مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه.

وبعد ..

فقد طلب إلينا كثير من قراء وتلاميذ المفكر الإسلامي الكبير، فقيه الدعاة، وداعية الفقهاء، الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، أن نجمع ما ينشر من لقاءاته ومحاوراته في المجلات والصحف العربية والإسلامية، والتي تتناول كثيرًا من قضايا العصر، وتجيب عن العديد من الأسئلة التي تشغل بال الكثيرين في مجالات الفكر والثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، في ضوء نظرة إسلامية شاملة، ومن منطلق إسلامي متميز، يجمع بين السلفية والتجديد، ويوازن بين الثوابت والمتغيرات، ويؤاخي بين العقل والنقل، ويوفق بين النظرة التراثية والنظرة المستقبلية، ويجمع بين عقل الفقيه وقلب الداعية ونظرة المصلح.

والواقع أن كتب العلَّامة الأستاذ القرضاوي ودراساته، إلى جوار دروسه وخطبه ومحاضراته، قد غدت زادًا وغذاء ووقودًا للصحوة الإسلامية المعاصرة، التي أصبحت تحتل في العقدين الأخيرين مساحة غير قليلة من فكره واهتمامه، إذا ألف أو حاضر أو سافر إلى الندوات والمؤتمرات العلمية والشبابية داخل العالم الإسلامي وخارجه. فهو مع الصحوة دائمًا بالتقوية والتعضيد، وبالترشيد والتسديد.

ولهذا سعينا منذ مدة إلى تحقيق رغبة الإخوة القراء وخصوصًا بعد

الحوار الرائع الذي أذيع في إذاعة جمهورية مصر العربية فى نوفمبر 1986 في برنامج «شاهد على العصر» الذي يقدمه الإذاعي والأديب الشاعر الأستاذ عمر بطيشة.

ولكن شيخنا - حفظه الله- كان مترددًا فى أول الأمر؛ نظرًا لأن بعض هذه المقابلات يلخص فى الصحف تلخيصًا مخلًا وغير واف بأصل الكلام، والمسجَّل منها قد تخفى فيه بعض العبارات ولا تسمع جيدًا، فتنشر محرفة، ويضطرب بها الكلام، ثم استخار الله وأذن في نشر مختارات منها، بعد أن يراجعها، وخصوصًا ما حرره منها بقلمه.

وها هي «مكتبة وهبة» تقدم هذه المجموعة من اللقاءات المتنوعة التى تعتقد أنها تحوي ثروة من الأفكار النافعة والمفاهيم الصحيحة، والإجابات الشافية لكثير من تساؤلات المسلم المعاصر والمسلمة المعاصرة، فى توازن واعتدال، واعتماد على القرآن والسنة، مع فقه لسنن الله وواقع الحياة. وهو ما يميز فكر شيخنا الجليل. وقد وافق على أن نسمي هذه المجموعة: «لقاءات ومحاورات .. حول الإسلام وقضايا العصر».

نسأل الله أن يمد فى عمر أستاذنا، ويبارك فى إنتاجه، وينفع به قارئيه وسامعيه ومحبيه، وأن يقر أعيننا بنصر من عنده، تعلو به كلمة الإسلام، وترتفع راية القرآن، اللهم أمين.

رجب 1412 هـ/ يناير 1992م

مكتبة وهبة

شاهد على العصر

في لقاء أجرته إذاعة جمهورية مصر العربية مع الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي وأذاعته من خلال برنامج «شاهد على العصر» في حلقتين: أولاهما في مساء الأحد الموافق للثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة 1407 هـ / 16 نوفمبر سنة 1986م. والثانية في الأحد التالي.

في هذا اللقاء دار الحوار صريحًا حول كثير من المسائل التي تهم المسلمين وتشغل أفكارهم في مشارق الأرض ومغاربها.

وقدم الإذاعي الكبير الأديب الشاعر الأستاذ عمر بطيشة – مقدم البرنامج- الحلقة الأولى من الحوار بقوله:

أيها الأصدقاء، يساءل بعض المراقبين عن حقيقة الصحوة الإسلامية المعاصرة، ويختلفون حول تقييمها، وترتبط معظم التساؤلات حول مواجهة الإسلام بتحديات العصر. والمواقف الجديدة في السياسة والاقتصاد والمجتمع.

لذلك نطرح اليوم تساؤلات تدور حول: قضايا السلفية والتجديد، والأصالة والمعاصرة، والوحدة والتفرق، والغزو الفكري والثقافي، والدعوة الإسلامية خارج الأمة الإسلامية. وكلها تساؤلات نقدمها إلى شاهدنا على العصر اليوم، وهو أحد أعلام المجددين في الفكر الإسلامي المعاصر. وقد وُصف بأنه من المتميزين بالاعتدال بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر.

ولد عام 1926 وحفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره، وأكمل تعليمه في معاهد الأزهر الشريف حتى حصل على الدكتوراة عام 1973،

وكان موضوع رسالته عن «الزكاة وأثرها في حل المشكلات الاجتماعية».

له أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفًا[1]، تُرجم الكثير منها إلى عدد من لغات المسلمين وبعض اللغات العالمية، كما طُبع معظمها مرات عديدة. كما شارك في معظم المؤتمرات والندوات والملتقيات الإسلامية على امتداد العالم الإسلامي، ولنا معه حوار نرجو أن يقدم لنا فيه شهادة على العصر.

* الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشرعية بقطر، أهلًا بكم ..

الحقيقة هي تساؤلات عديدة تلك التي جاءت في المقدمة التي قلتها الآن، ولكننا نرجئها إلى أن سنتمع من فضيلتكم أولًا إلى مجمل رؤيتكم العامة لهذا العصر، وأهم الظواهر والمتغيرات والملامح التي ترصدونها فيه وأهم ملاحظاتكم عنه.

** بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد ..

فإن الشهادة في نظري كمسلم توجب على الشاهد أمورًا، من هذه الأمور: أن يأتي الإنسان بالشهادة على وجهها، كما يقول القرآن الكريم، وكما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**على مثل الشمس فاشهد**».

ثم الشهادة يجب أن تكون منصفة، عادلة، لا يميل الإنسان فيها إلى أحد، ولا يمنعه من العدل حب ولا بغض، كما في القرآن الكريم: **{كُونُواْ قَوَّٰمِينَ**

(1) زادت الآن على الخمسين، كما تشهد بذلك قائمة كتبه.

بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ} [النساء: 135]، **{وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ}** [المائدة: 8].

الشهادة هذه صفة من صفات المسلم: أن يكون قائمًا بالشهادة: **{وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ}** [المعارج: 33].

وأن يقوم بها مخلصًا لله تعالى: **{وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ}** [الطلاق: 2].

ومن هنا كان مطلوبًا من الإنسان إذا شهد أن يشهد بحق وعدل وحَيَدَة، وخصوصًا إذا شهد على العصر، فهو لا يشهد في قضية جزئية بين فردين، أو بين زوج وزوجته، إنه يشهد على «العصر»، ومن هنا كانت المسئولية كبيرة.

وقد وصف الله هذه الأمة بقوله: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ}** [البقرة: 143]. فأرجو أن تكون شهادتي من النوع الذي يرضى الله تبارك وتعالى.

* إن شاء الله، ونحن سعداء بهذه المقدمة التي تعمق خط البرنامج وفكرته، وهذا يشرفنا كثيرًا ويسعدنا أيضًا.

إذن ننطلق مع العالم الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي إلى الرؤية العامة والمجملة لهذا العصر.

** هذا العصر شهدنا فيه تغيرات كثيرة، وكثيرة جدًّا، بل هو عصر التغيرات السريعة والمفاجئة التي لم تكن تخطر ببال أحد، شهدنا تغيرات في مجال العلم، ثورة التكنولوجيا، العلم الذي غزا الفضاء، عصر الصناعة الثاني – كان هناك عصر الصناعة الأول وهو الذي توفّر فيه الآلة الجهد

البدني للإنسان – الآن نحن في عصر الصناعة الثاني الذي توفِّر فيه الآلة الجهد الذهني للإنسان، عصر «الكومبيوتر».

نعم، هي الثورة الصناعية الثانية، شهد عصرنا هذه الثورة العلمية في مجالات الفضاء والكومبيوتر، والثورة البيولوجية وعلوم المستقبل، الثورة في علوم الحياة، الهندسة الوراثية، تحكم في الجينات وفي جنس الجنين، أشياء أصبحت هائلة – هذا ما شهدناه – وإذا كان لي من ملاحظة على ثورة العلم في عصرنا فهنا أقف وقفتين:

الوقفة الأولى: أن العلم أول ما ظهر كان يبدو منافيًا للدين؛ لأنه ظهر في الغرب – في أوروبا – وكانت أوروبا في وقت من الأوقات – في عصر محاكم التفتيش وغيرها – تقف الكنيسة ضد أي مكتشفات أو مخترعات أو تقدم فكري، باسم الدين للأسف. فلما انتصر العلم كان في ظاهر الأمر أنه انتصار على الدين.

والواقع أنه لم يكن انتصارًا على الدين – من حيث هو – ولكن كان انتصارًا على الكنيسة الغربية ورجالها! فأخذ العلم في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر موجة أنه مناوئ للدين.

جاء القرن العشرون فإذا بالعلم يسير في مسار المواكبة للدين والتأييد للدين، وهذا مكسب كبير لنا نحن الذين نرى أن الدين هو جوهر الوجود وسر الحياة. ولا قيمة للوجود، ولا للحياة، ولا معنى لها إذا لم يكن هناك دين، ولم يكن هناك إله، ولم يكن هناك آخرة.

العلم إذن أصبح في صف الدين، وأصبح يدعو إلى الإيمان .. وهذه

ملاحظة أولى على هذه الثورة العلمية الضخمة التي حدثت في هذا العصر.

الملاحظة الثانية: الملاحظة الأولى كانت سارة .. أما الملاحظة الثانية فهي مؤسفة ومحزنة. وهي أننا – نحن المسلمين، نحن العرب – ما موقفنا من هذه الثورة العلمية؟ وما موقفنا من هذه الآفاق؟ لا زلنا للأسف عالة على غيرنا. مع أن العلم عندنا عبادة، نحن المسلمين، والتفكير – كما يقول العقاد رحمه الله: هو فريضة إسلامية. نحن نتعبد بالعلم (نعتبر العلم عبادة)، والمنهج العلمي التجريبي الذي عرفه الغربيون أساسًا اقتبسوه من الحضارة الإسلامية، اعترف بهذا كثيرون، مثل: بريفولت ودرايبر وجوستاف لوبون، وجورج سارتون ... وغيرهم.

أخيرًا .. رجاء جارودي الذي اهتدى إلى الإسلام .. هؤلاء اعترفوا بأن المنهج التجريبي الاستقرائي .. هذا منهج إسلامي أخذ من الحضارة الإسلامية.

فرانسيس بيكون – الذي يعتبر أبا الفلسفة التجريبية، وقبله سميه روجر بيكون، هؤلاء كانوا تلاميذ الحضارة الإسلامية، وكانوا رسل الحضارة الإسلامية العربية إلى الغرب، وكانت الحضارة الإسلامية هي حضارة العلم في العالم كله. وكانت اللغة العربية هي لغة العلم لعدة قرون، وكانت المراجع العلمية هي المراجع الإسلامية المكتوبة بالعربية في الطب والفيزياء والكيمياء والتشريح والفلك ... إلى آخره.

والأعلام والأسماء العربية مثل: ابن رشد، ابن سينا، الرازي، البيروني، الزهراوي، وابن الهيثم، وابن النفيس ... وغيرهم. هذه الأسماء كانت أسماء

عالمية، لم تكن مجرد أسماء إسلامية أو عربية، فللأسف نحن في عصرنا هذا ننظر إلى الماضي يوم كنا قادة الدنيا في الجانب العلمي في كل ناحية من النواحي، ولم يكن هناك انفصال بين العلم والدين قط. ابن رشد الفقيه القاضي صاحب كتاب «بداية المجتهد» في الفقه، هو صاحب «الكليات» في الطب .. الذي أصبح مرجعًا في الغرب بعده لعدة قرون، وهو نفسه أكبر شارح لأرسطو في الفلسفة للغرب، وكان هو مرجع الغربيين، ومن خلاله تعرفوا على فلسفة أرسطو (وهو أعظم فلاسفة المسلمين على الإطلاق، في نظر بعض مؤرخي الفكر).

ولم يكن عندنا نحن المسلمين انفصال بين العلم والدين، ولم يكن هناك شيء اسمه ديني وشيء غير ديني، أعني هذا التقسيم الذي نعرفه في عصرنا هذا، هناك تعليم ديني وتعليم غير ديني، ورجل دين ورجل غير دين. هذا تقسيم غير معروف عند المسلمين، العلم كله ديني .. والناس كلهم رجال لدينهم، ليس هناك طبقة معينة – كهنوتية أو إكليروس – هناك متخصص في علم الدين، كما أن هناك متخصصًا في علم الطب، وهذا التخصص تفرضه طبيعة الحياة ويفرضه الإسلام نفسه، لا بد في كل فن من الفنون وفي كل علم من العلوم أن يوجد المختصون والخبراء: **{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ}** [فاطر: 14]**{فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا}** [الفرقان: 59]، **{فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ}** [النحل: 43].

هذا في كل فن وفي الدين أيضًا: **{فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ}** [التوبة: 122] .. القرآن قال هذا حينما نفر المسلمون كلهم للجهاد، وإذا نفرد الجميع للجهاد فمن يعلم الناس

أو يفقههم؟

{فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ} ..

{وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ} [التوبة: 122]

فهاتان ملاحظتان على عصرنا بالنسبة للتطور العلمي الضخم الذي شهده عصرنا.

ومن الأشياء التي لاحظناها في هذا العصر – على المستوى العالمي – سقوط الخلافة الإسلامية .. نحن لم نشهد يوم سقوط الخلافة ولكن شهدنا آثارها. قرأنا شوقي وهو يرثي الخلافة فيقول مخاطبًا لها:

عادت أغاني العرس رجع نواح!/ونُعيت بين معالم الأفراح!

كفنت في يوم الزفاف بثوبه/ودفنت عند تبلج الإصباح!

*** عندما توفي أمير الشعراء سنة 1932 كان عند فضيلتكم ست سنوات فقط؟**

** نعم .. ولكن قرأنا شوقي بعد ذلك، وعشنا معه أيام المسلمين، ومآسي المسلمين، فسقوط الخلافة الإسلامية كان من أبرز الأحداث؛ لأنه على رغم ما كان على الخلافة العثمانية من مآخذ وما فيها من نقاط ضعف كانت تمثل آخر تجمع للمسلمين تحت راية العقيدة.

كان المسلمون يكوِّنون أمة ضخمة تمضي تحت راية الإسلام، ولم يحدث بعد ذلك أن تجمع المسلمون تحت راية واحدة، مع أننا نجد هناك كتلًا ضخمة تحت عناوين شتى: قومية أو مذهبية، أو غير ذلك، ولكن فقد المسلمون بفقد

الخلافة الهوية الإسلامية الجامعة.

* هذا .. وإننا في عصر التكتلات والتجمعات الكبرى في العالم.

** نحن في عصر التجمعات والتكتلات الكبرى، ولكن لا يراد للمسلمين وحدهم أن يتكتلوا ويتجمعوا ليظلوا أممًا شتى ودولًا شتى، نحن المسلمين – كما أمرنا الله – أمة.

القرآن يقول: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا}** [البقرة: 143] **{كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ}** [آل عمران: 110]، **{وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ}** [المؤمنون: 52] فهي «أمة» ولكن الاستعمار والقوى المعادية للإسلام أرادتنا أن نكون «أممًا» يجافي بعضنا بعضًا، وربما يقاتل بعضنا بعضًا، نتقاتل أحيانًا على حدود سياسية!

أتعجب حينما أنظر في الخريطة العالمية، فأجد دولًا ضخمة على مساحة الخريطة، ثم أنظر في الدول الإسلامية، فأجد دويلات لا تكاد تراها على الخريطة .. تحتاج إلى مجهر حتى تراها!

ما الذي مزق هذه الدول؟

بعض الناس قال: كيف انتصرت إسرائيل عليكم وأنتم كذا وأربعون دول أيها المسلمون؟!

قلت: إنها انتصرت لأننا كذا وأربعون دولة! لو كنا دولة واحدة ما استطاعت أن تنتصر علينا.

ليس المهم هو الكثرة، إن رسولنا صلى الله عليه وسلم حذرنا من عصر نكون فيه «كثرة كغثاء السيل» الكثرة الغثائية، وغثاء السيل هو ما يحمله

السيل من قش وحطب وورق وأشياء غير متجانسة, أشياء خفيفة سطحية، وليس بينها تجانس، وليس لها هدف .. لأن السيل ليس له مجرى معلوم كالنهر، النهر له منبع ومجرى ومصب، أما السيل فلا تعرف أين يتجه.

فحينما تكون الأمة في المرحلة الغثائية تكون هذه قيمتها، فلا يهم الكثرة وحدها.

نحن المسلمين حوالي ألف مليون، أعني مليار بل أكثر، من الناحية العددية كم كبير، ولكنه كمٌّ بلا كيف، كثرة كغثاء السيل كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود: «**ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**».

الصحابة يسألون عن الوهن، لا يسألون عن معناه اللغوي، فمعناه اللغوي معروف أنه الضعف. إنما يسألون عن علته، عن سره، عن سببه، نحن كثرة، فما الذي يجعل عدونا يتجرأ علينا وينتزع المهابة منا؟

المسلمون الأوائل كانوا ينصرون بالرعب مسيرة شهر، كان خالد بن الوليد حينما يكتب إلى الأكاسرة والقياصرة وهؤلاء الناس يختم رسائله بهذه الكلمة: «وإلا غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»، فأما إذا ركن الناس إذا إلى الدنيا، وكرهوا الموت، وأحبوا الحياة، وأخلدوا إلى الأرض فلن يخيفوا عدوًا، ولن ينصروا صديقًا.

فالمهم أننا نحن المسلمين فقدنا هذا التجمع والتكتل في عصر هو عصر التجمعات والتكتلات .. أنواع شتى من التجمعات والتكتلات، بعضها

عسكري، وبعضها سياسي، وبعضها ديني، وبعضها اقتصادي، وبعضها ثقافي، أنواع .. حتى المختلفون قديمًا أصبحوا الآن يتقاربون بينهم، بين بعضهم بعض.

اليهودية والنصرانية منذ قرون عديدة كان بينهم خلافات وصراعات، واليهودية متهمة بقتل المسيح والتآمر عليه، أخيرًا رضوا أن يوجدوا بينهم شيئًا من التقارب والوافق، وأصدر الفاتيكان وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح.

سياسة الوفاق المعروفة بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الشيوعي أو المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي.

ما بالنا نحن المسلمين لا يراد لنا أن نتقارب أو نجتمع، أو يكون لنا هدف مرسوم؟ هذا للأسف من كيد أعدائنا من ناحية، ومن ضعف أمرنا من ناحية أخرى.

* سيادتكم تقولون: «لا يراد لنا» وكأن أمرنا معلق بإرادة الآخرين، وهذا أحد العلل التي نشكو منها: أننا نكل أمرنا دائمًا إلى الآخرين، لماذا لا يكون الزمام في أيدينا؟ هذا هو السؤال؟

** هذا في الواقع كلام طيب جدًّا، وأنا كتبت هذا في بعض ما كتبت، قلت: إننا كثيرًا ما نعلق كل أوزارنا وكل أخطائنا وكل تقصيرنا على غيرنا، وأحيانًا نقول: إنه خُطط لنا، والقوى الأخرى خططت لنا: اليهودية العالمية، والاستعمار العالمي، والشيوعية العالمية، وكذا وكذا، وكأننا – كما ذكر بعضهم – أحجار على رقعة الشطرنج! وكأن لا إرادة لنا ولا اختيار.

الحقيقة أنه لا بد أن نفرق بين أمرين، أنا في الحقيقة منهجي في الحياة دائمًا هو المنهج الوسط، هناك أناس يهولون من أمر القوى الخارجية وتأثيرها، بحيث نبدو نحن وكأننا لا اختيار لنا قط، كأننا مسيرون لا مخيرون! وهذا نوع من الجبرية السياسية كالجبرية الدينية، ففي العقائد هناك أناس يسمونهم «الجبريين» وهم الذين يقولون: إن الإنسان لا إرادة له، وأنه مسير لا مخير، وهو كالريشة في مهب الريح. وهناك أيضًا جبرية سياسية أي تجعل أننا ليس لنا أي إرادة، القوى الخارجية هي التي تسير أمورنا كلها ولا نملك أي قرار .. وهذا تهويل.

أيضًا بعض الناس يقول: لا .. ليس هناك أي قوى، ونحن الذين نصنع مصيرنا بأيدينا، والواقع أن هناك فعلًا تأثيرات خارجية تؤثر على كثير من أمورنا، وتضغط علينا أحيانًا ضغوطًا علنية، وأحيانًا ضغوطًا خفية، ولها أصابع تلعب من وراء ستار حينًا، وتلعب على المكشوف حينًا آخر .. لا ننكر هذا، والأدلة على هذا كثيرة، ولكن نظل نحن المسئولين –وحتى هذا- نحن مسئولون عنه كذلك:

لماذا يُخطط الآخرون لنا، ولا نخطط لأنفسنا؟!

إلى متى نظل نقول: القوى المعادية خططت لنا؟

لماذا نظل نحن ضحايا مخططات الغير ولا نخطط لأنفسنا؟!

فنحن مسئولون أيضًا ..

وهنا في الواقع – في موضوع المسئولية هذا – أمر هو أحد سلبياتنا، إننا عادة كل واحد يحاول أن يرمي الحمل على غيره، حينما تسأل: ما السبب فيما

نحن فيه من تخلف؟ ما السبب فيما نحن فيه من خلل اقتصادي أو اجتماعي، أو خلل أخلاقي أو سياسي؟ فبعض الناس يُحملون المسئولية على الحكام، وبعضهم يلقون المسئولية على العلماء، وبعضهم يقول: المسئولية على القوى الخارجية.

والواقع أن الكل مسئول، ويجب أن يتحمل كل مسئوليته، وكما جاء في الحديث المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**»، فالكل مسئول، وإن كانت المسئولية تتفاوت.

أضرب لك مثلًا .. فبعض العلماء والدعاة في يوم من الأيام كان يكلم بعض الناس فقال له أحد الحاضرين: صار لكم أربعون سنة وأنتم تتكلمون، فماذا عملتم؟! فكان رده: وأنتم لكم أربعون سنة وأنتم تسمعون، فماذا عملتم؟!

نعم .. رد مفحم، فلماذا نجعل المتكلم عليه مسئولية، والسامع ليس عليه مسئولية؟ أصبحنا شريكين معًا، ومن هنا فإن الكل عليه المسئولية.

من الأحداث المهمة التي حدثت في هذا العصر: أن هذا العصر حدث فيه تغير بين أوائله وأواخره، نحن الآن على مشارف القرن الحادي والعشرين .. في أوائل هذا القرن كان هناك انحسار في جانب التدين، وانحسار نحو الجانب الإسلامي وبخاصة الجانب الفكري، فالغزو الفكري عمل عمله، خطورة الاستعمار ليس في احتلاله الأرض فقط، احتلال الأرض ليس مشكلة؛ لأنه لا بد أن يأتي يوم يجلو عن الأرض ويحمل عصاه ويرحل عن الديار، إنما الخطورة حينما يحتل الأنفس والعقول، خصوصًا أن احتلال الأرض أمر حسي يشاهد فيقاوم، أما احتلال العقل فأمر معنوي، لا يُلمس ولا

يُحس، ولذلك أحيانًا تتبعه وأنت راضي النفس، وأنت مختار، ويخطط لك وأنت تمشي وراءه، وهذه هي الخطورة، أن يفتنك عن نفسك، ولم يكن في المقابل – من الناحية الإسلامية – لم يكن هناك إمكانات تقابل هذا الغزو في أول الأمر، أستطيع أن أقول: إنه كان هناك انحسار حتى إنه في وقت من الأوقات لم تكد ترى من المتدينين إلا القليلين، كبار السن والعجائز من الناس، الإنسان بعد أن يحال إلى التقاعد يذهب إلى المسجد، يفكر في الصلاة وفي التوبة، يفكر في الحج والعمرة، يقرأ بعض الكتب الدينية.

الآن نجد الأمر تغير، نحن في عصر الصحوة الإسلامية التي أشرتَ إليها في مقدمة هذا البرنامج النافع إن شاء الله، عصر الصحوة الإسلامية نحن نعيشه الآن، الانبهار الذي حدث من قبل بالحضارة الغربية بدأ ينقشع لأسباب كثيرة، من هذه الأسباب أن الحضارة الغربية جاءت من المستعمر فتحررنا مع المستعمر فبدأنا نتحرر من آثاره الفكرية والاجتماعية والتشريعية ... إلى آخره.

من ناحية أخرى: في أوج الحضارة الغربية لم يكن يظهر فيها عيوب، كانت عيوبها مغطاة بالجوانب الكثيرة الحسنة فيها، الآن بدأت عيوبها تتكشف حتى للمفكرين من أهلها، وللنقاد منها. وجدنا أناسًا كثيرين من مفكري الغرب ينقدون الحضارة الغربية مثل شبلينجر وتوينبي – المؤرخ الشهير في كتاباته – وأليكسيس كاريل .. الكثيرون من نقاد الحضارة الغربية حتى رجاء جارودي أخيرًا، الحضارة التي تنفق عشرات المليارات على السلاح، على حين هناك مليارات من البشر، لا تجد القوت، ولا تجد الدواء .. هذه ليست حضارة، وكما قال أحد المفكرين الشرقيين لفيلسوف غربي: إن الحضارة

الغربية استطاعت أن تجعل الإنسان يحلق في الهواء كالطير، ويغوص في البحر كالحوت، ولكنه لم يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان.

المهم الجانب الإنساني في الحضارة، أين الإنسان؟!

ولذا ثار عليها أهلها أنفسهم، ما نسمعه وما نقرأه وما نراه من الشباب الغربيين الذين يتسمون الخنافس أو الهيبيز أو العراة .. أو غير ذلك. الذين نراهم يخرجون إلى البراري حفاة، بالملابس الممزقة .. تركوا حياة الأزرار والأتوماتيك، تركوا هذا كله ويعيشون في الصحراء ويحيون حياة بدائية. لماذا؟!

الحياة المرفهة الأتوماتيكية هذه لم تُشبع نهمهم الروحي، لم تملأ فراغهم العقائدي، لم تحل المشكلات الفكرية عندهم، لم تجب عن الأسئلة الخالدة التي يفكر فيها الإنسان وفي أجوبتها دائمًا: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟

من أين جئت وجاء هذا العالم من حولي؟ وإلى أين أذهب بعد أن أعيش أيامًا تطول أو تقصر؟ وبين الحياة والموت: لماذا أعيش؟ وما هي رسالتي؟ هل أنا جئت لمجرد أن آكل وأشرب، وألهو وألعب؟

أنا تراب! جاء من تراب، ويمشي على التراب، وينتهي إلى التراب!

قصة الحياة هي كلها «أرحام تدفع، وأرض تبلع»، ولا شيء وراء ذلك .. **{نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ}** [الجاثية: 24] كما قال الدهريون قديمًا ..

هؤلاء ثاروا على هذه الحضارة، أبناؤها ثاروا عليها وتمردوا على آليتها؛ لأنهم لم يشعروا بالسعادة، إنهم يحتاجون إلى شيء آخر، يحسون به، وإن لم يعرفوا ما هو!

والواقع أن الذي يملك هذا الشيء الآخر الذي يملأ الفراغ الروحي والفكري عند الإنسان، ويعطيه الأجوبة عن الأسئلة التي يسألها، هو الإسلام، الذي يعطي الإنسان الآخرة ولا يحرم من الدنيا: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا». **{وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ}** [القصص: 77]، **{رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ}** [البقرة: 201].

الإنسان في حاجة إلى منهج متوازن، المنهج الذي لا يحطم خصائص الإنسان الذاتية، لا يحطمها من الداخل، والذي يوفر له السعادة الحقة، ليس مجرد منهج يوفر له المتعة ولا يوفر له السكينة، يوفر له الرفاهية ولا يوفر له الطمأنينة القلبية .. هذا هو المنهج الذي يحتاج إليه الإنسان في عصرنا، ولا يوجد إلا في الإسلام.

* ولهذا يرصد العالم الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي صحوة إسلامية في هذا العصر، ولهذا فضيلتكم تسمونه عصر الصحوة الإسلامية؟

** نعم، أنا أقول: عصر الصحوة الإسلامية، وهذه الصحوة لها مظاهرها، نجد آثار هذه الصحوة في كل مكان، هي صحوة عالمية أولًا، وأنا أقول هذا عن شهادة فعلًا.

إذا اعتبرتني شاهدًا في هذا العصر أقول عن شهادة: لمستُ هذه الصحوة في مصر، ومصر – كما رأيتُ – من أرجى بلاد الله للإسلام، لمستها في العالم العربي كله، في الجناح المشرقي وفي الجناح المغربي، وجدت الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي خارج العالم العربي، بل أقول: وجدت

هذه الصحوة خارج العالم الإسلامي، هناك في أمريكا – وقد زرتها أكثر من ست مرات وذهبت إلى أوروبا مرارًا عديدة، وذهبت إلى الشرق الأقصى: وجدتُ هذا في ماليزيا، في إندونيسيا، في سنغافورة، وفي هونج كونج، في كوريا، في الفلبين، في اليابان، في الجاليات الإسلامية المختلفة التي تعيش أقلية. ومع هذا وجدت المسلمين الملتزمين بالإسلام .. فهي صحوة عالمية.

وهي صحوة شباب أكثر منها صحوة شيوخ، كان التدين قديمًا – كما أشرت من قبل – يكاد يكون مقصورًا على العجائز والشيوخ والكبار من الناس، الآن اذهب إلى المساجد تجد معظم الذين يؤمون المساجد من الشباب الغض، وأي نوع من الشباب؟ إنهم الشباب المثقف، معناه أننا تخلصنا من عقدة النقص القديمة: أن الدين للمتخلفين أو للأميين أو لأهل القرى. لا .. أصبح الدين الآن للشباب المثقف، للشباب ولشابات أيضًا .. تجد الآن المسلمات الملتزمات والمصليات الصائمات المحجبات.

في وقت من الأوقات – ولا أكتمك حديثًا- كان الإنسان يمشي في شوارع العواصم الكبرى لبلاد الإسلام، فلا يكاد يجد امرأة محجبة .. قضية المرأة كانت من القضايا التي هُزمنا فيها بسرعة أمام الحضارة العربية .. بعد أن كانت المعركة في أول الأمر هي مسألة سفور الوجه، أعني أن المرأة تخلع النقاب – النقاب فقط – وتخرج سافرة وتتعلم وتذهب إلى المدرسة، وتعمل إذا احتاجت إلى العمل.

في وقت من الأوقات وقف الناس ضد هذه الأوليات، وللأسف وقف بعضهم ضد هذه الأشياء باسم الدين، والدين من هذا براء، المرأة المسلمة في العصر الأول شاركت في الحياة مشاركة فعالة سجلتها كتب السنة والسيرة

النبوية والتاريخ الإسلامي .. الآن نرى في الجامعات والكليات والمدارس الفتيات المحجبات بالآلاف ومئات الآلاف، لهذا نحن الآن نقول: إنها صحوة شباب، وصحوة شابات.

وفي مواسم الحج والعمرة تجد الآن تطورًا قد جد عن أيام زمان، في صغرنا كان الذين يذهبون إلى الحج هم الناس الذين يريدون أن يختموا حياتهم بحجة مبرورة، ليعود أحدهم من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فكان الإنسان الذي أكل الدهر عليه وشرب، وأصبح على حافة القبر، يذهب ليحج .. الآن ما عادت هذه الفكرة قائمة، معظم الذين يحجون الآن من الشباب.

إنها صحوة سلوك، وصحوة فكر وعقل أيضًا، أصبح الشباب يريد أن يقرأ عن الإسلام، أصبح الكتاب الإسلامي هو الكتاب الأول في سوق التوزيع، اذهب إلى أي معرض كتاب تجد الكتاب الإسلامي هو الكتاب الأول الذي يضرب الرقم القياسي، وهذا بشهادة الخبراء والأرقام وشهادة الإحصائيات، بل هناك في بعض البلاد التي زرتها مثل الجزائر الشقيقة قالوا لي: إنه حين يُقام معرض يبيت الشباب عند باب المعرض، حتى إذا فُتح في الصباح هجموا على الكتب الإسلامية، فنفدت في ساعات؛ لأنه تأتي أعداد محدودة من الكتب لطلب غير محدود، فهي مسألة العرض والطلب – وهي مظاهر لظاهرة واحدة هي الصحوة.

ومن مظاهر هذه الصحوة: المؤسسات الاقتصادية الإسلامية .. البنوك الإسلامية، شركات الاستثمار الإسلامي، الشركات التي تعمل في الاقتصاد الإسلامي والتأمين الإسلامي، وهذا في بلاد كثيرة.

وأيضًا في وقت من الأوقات كان يقال: إنه لا يمكن أن تقام بنوك بغير فائدة، كان يقال لنا من قبل: إنه لا حياة بغير اقتصاد، ولا اقتصاد بغير بنوك، ولا بنوك بغير فائدة! فأريحوا أنفسكم.

كان فينا من يقول: إننا لا بد أن نأخذ الحضارة الغربية بعجرها وبجرها، بخيرها وشرها، بحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن ظن غير ذلك فهو خادع أو مخدوع!

* هذه مدرسة قائمة في الفكر فعلًا، وما زالت موجودة للآن!

** موجودة فعلًا، ولكن كان صوتها عاليًا قبل ذلك، بل كادت تكون هي المسيطرة على التثقيف والتفكير، والمنفردة بالتأثير والتوجيه، الآن هي موجودة، ولكن صوتها أصبح ضعيفًا، وأصبحت الآن تحاول أن تتملق الفكر الإسلامي، وتحاول أن تغلف نفسها بغلاف ما، لم تعد تصرح بهذا، فهذه المدرسة موجودة ولكن لم تعد بالقوة التي كانت عليها.

بعد هذا – أي بعد هذه المرحلة – جاءت مرحلة «التبرير»: نحاول أن نلبس الخواجة عمامة! أعني: نحاول أن نسند الأوضاع التي جاءتنا من الغرب بفتاوى شرعية!

بعد ذلك أصبحنا في موقف الدفاع، أي: انتقلنا إلى مرحلة أخرى هي مرحة الدفاع، وكأن الإسلام في قفص الاتهام، ومهمتنا أن ندافع عن هذا المتهم!

لماذا لا نكون كالغربيين في كذا؟

كأن الأصل هو الغرب وأن الناس جميعًا يجب أن يكونوا في تفكيرهم

وسلوكهم غربيين!

وإذا لم نوافق – نحن المسلمين – الغرب فنحن محتاجون إلى حجة نحتج بها، وندافع بها عن أنفسنا!

كان هذا في وقت من الأوقات، أستطيع أن أقول إننا قد تجاوزنا هذه المراحل كلها، وأصبحنا الآن في مرحلة المواجهة، نقول للغربيين: نحن لنا حضارتنا ولكم حضارتكم، لكم دينكم ولنا ديننا، لكم عملكم ولنا عملنا، نحن لسنا أذيالًا لأحد ولا أتباعًا لأحد .. نحن رءوس لأنفسنا، بل نحن الأمة المتميزة، نحن الأمة الوسط، نحن الذين نملك منهجًا لا يملكه غيرنا، هذه هي المرحلة الجديدة – مرحلة المواجهة – مرحلة الصحوة الإسلامية التي نقولها. ولكن أنا كشاهد – كما قلت – أرجو أن أكون عادلًا.

أقول أيضًا: إن الصحوة الإسلامية تحتاج إلى ترشيد وتسديد .. ففيها فجوات، وفيها أخطاء، وفيها جوانب ضعف يجب على المفكرين والدعاة والعلماء أن يرشدوها. هذه الصحوة فيها من خير ما أنتجه هذا العصر، ونعتبر الشباب المسلم المتدين هذا هو أعظم ما في بلادنا الآن، وهذا الترشيد والتسديد لا يكون باتهامها كما يفكر بعض الناس، إنما أن نعامل هؤلاء بروح الأبوة .. بوسطية الإسلام، لا بإسلام الغلاة والمتشددين، ولا إسلام أولئك الذين أيضا يريدون أن يحمِّلوا الإسلام ما ليس فيه، فنحن مشكلتنا أننا نقع بين طرفي الإفراط والتفريط، هذه مشكلتنا في معظم الأمور.

هناك أناس يريدون باسم التجديد أن يحلوا كل شيء، ويبرروا الأوضاع التي جاءتنا من الغرب كما قلت لك، أن يلبسوها عباءة إسلامية وباسم

«التجديد» وهذا ليس تجديدًا، هذا تبديد وليس بتجديد!

ومقابل هؤلاء .. آخرون يريدون أن يُبقوا كل قديم على قدمه، وشعارهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان! وما ترك الأول للآخر شيئا!

لا .. فكم ترك الأول للآخر، وهناك في الإمكان أبدع مما كان، وما دام الإنسان هو خليفة الله في الأرض، وميزه الله بالعقل والإرادة، وآتاه القدرة على العلم والعمل والتجديد والابتكار، فنحن قادرون على أن نفعل كثيرًا، مهمة الإنسان المسلم أن يبدع ويبتكر ويجدد حتى في أمور الدين.

قامت معركة في وقت ما بسبب كلمة «تجديد الدين» .. بعض الناس من تخوفه وتحوطه قال: ليس هناك تجديد في الدين .. وقامت مناقشة بين فضيلة الشيخ الشعراوي والأستاذ أحمد بهاء الدين حول هذا: هل هناك تجديد في الدين؟ وأنا لا أرى أي مانع من استخدام كلمة «التجديد في الدين». بعض الناس يخاف من استخدام مثل هذه الكلمات في غير موضعها، ولكن هذا لا يجعلنا ننفي الحقائق؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، فبنص الحديث إن الدين يقبل التجديد، ولكن المهم أن نحدد المفاهيم ولا نتركها هلامية رجراجة، ما المقصود بتجديد الدين؟ هل معناه: أننا نخرج طبعة جديدة من الدين؟ لا .. إن الدين اكتمل: {**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ**} [المائدة: 3]، وليس بعد القرآن وحي، وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم رسول، ولا بعد الإسلام شريعة.

إنما معنى تجديد أي شيء هو أن تعيده إلى ما كان عليه، يعني: إذا كان

عندنا بناء أثري – قصر أو مسجد – ونريد أن نجدده، فليس معنى أن نجدده أننا نهدم البناء الأثري ونقيم مكانه عمارة شاهقة حديثة، هذا ليس من التجديد في شيء إنما أن تحاول أن ترممه وتعيده إلى وضعه القديم يوم ظهر، أن تزيل عنه الصدأ والأتربة والغبار والأشياء الطارئة عليه، وإذا وَهَى شيء منه تقويه، بحيث يبدو كما كان من قبل، وكذلك حينما أجدد الدين أحاول أن أعود به إلى ما كان عليه في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وأيام الصحابة وأيام كان الإسلام إسلامًا، وأيام كان المسلمون مسلمين، أعيده إلى نقائه الأول .. إلى صفائه الأول، نعيده دينًا ميسَّرًا وميسِّرًا، دينًا يحل للناس مشكلاتهم.

* وهذه النقطة – الحقيقة – الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي – فضيلتكم كنتم تقولون الآن: إن المستغربين أو الذين يحاولون الاعتماد على الحضارة الغربية ويصبحون تابعين لها، هذا فريق .. وفريق آخر يرى أن الحل في اتباع الإسلام في فطرته الأصيلة مثل ما ذكرتم فضيلتكم الآن: هناك فريق ثالث يوافق على الرأي الأخير، ولكنه يريد من الإسلاميين أن يجدوا صيغة أو تصورًا لكيفية مواجهة الإسلام لقضايا العصر بالتفصيل، يعني: نظرته للسياسة .. الأحزاب .. الاقتصاد .. المجتمع .. كل هذه مسائل ينبغي أن تصاغ على شكل نظرية إسلامية، ما رأي فضيلتكم في هذا؟

** جماعة المستغربين ومن دار في فلكهم يريدون تفصيلات لكل شيء، والتفصيل في كل شيء ليس مطلوبًا، يعني هذا – عادة – حينما يقوم اتجاه يريد أن يغير من الحياة، هذا يأتي عادة بالأصول العامة والخطوط العريضة، هذا ملحوظ حتى في الماركسية، أعني أن ماركس لم يأت بتفصيلات، فهذه

الخطوط العريضة موجودة من ناحية. ومن ناحية أخرى أنا أقول أيضًا: حتى الكثير من التفصيلات موجود بالفعل، يعني الآن: إذا نظرت إلى موضوع كموضوع الاقتصاد الإسلامي .. صدرت عشرات الدراسات حول الاقتصاد الإسلامي وبعضها دراسات متخصصة وبتفصيلات: في النقود، في البنوك، في الإنتاج، في التوزيع .. في الربا .. في الزكاة .. في كذا وكذا. والعشرات من رسائل الدكتوراة، وهذا ليس بالأمر الصعب، وقد رأينا أناسًا كثيرين حكموا واستمر حكمهم فترات طويلة ولم يكن عندهم برامج مفصلة ولا شيء من هذا.

* إذن .. ممكن الوصول إلى رؤية؟

** ممكن الوصول إلى رؤية. وهنا الآن الفكر الإسلامي غني، ويستطيع أن يحدد ملامح كثيرة، بل يمكن أن يحدد تفصيلات أكثر، وهو ليس بالأمر الصعب إذا صدقت النية وصدق العزم، وكما قيل: إذا صدق العزم وضح السبيل. المهم أننا انتهينا من المرحلة التي كان يجمد فيها الإسلام باسم أن باب الاجتهاد مغلق، أو أننا لسنا قادرين على الاجتهاد. أو أن الأقدمين صنعوا كل شيء، لا، لا بد أن نجتهد لعصرنا وكما قال علماؤنا: إن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف. فالآن عصرنا تغير فيه شيء كثير، قالوا هذا في عصور كانت رتيبة، بطيئة الحركة والتطور، والأنماط تكاد لا تتغير.

في عصرنا هذا الذي تحدثنا عنه في أول هذا اللقاء وما فيه من تغيرات ضخمة أصبحت هناك أشياء جديدة لم يخطر للسابقين أمرها على بال. هذه كلها تحتاج منا إلى اجتهاد، وهو ما نسميه بالاجتهاد الإنشائي، بجوار اجتهاد آخر نسميه الاجتهاد الانتقائي. أي أن ننتقي من أقوال الأئمة والفقهاء السابقين

ما هو أليق بعصرنا وأوفق بمصالحنا وأولى بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

* فضيلتكم كنتم ذكرتم أيضًا الجانب الإنشائي .. هل لنا أن نعرف ما هو؟

** الجانب الإنشائي في الاجتهاد: ما يتعلق بالقضايا الجديدة التي لم يعرفها فقهاؤنا السابقون .. أضرب لك مثلًا في ذلك: هناك قضايا طبية جديدة – مثلًا تتعلق بعلم الطب، وكثير من الأشياء العلمية، مثلًا: قضية زرع الأعضاء، هل يجوز زرع الأعضاء؟ هل يجوز ذلك عن طريق التبرع؟ هل يجوز أن يبيع الإنسان عضوًا منه؟

هناك قضايا استجدت في هذا العصر لم يكن يعرفها السابقون من علمائنا، ولم يقولوا فيها رأيا، فرأينا فيها رأيًا إنشائيًا – أعني: ليس مجرد ترجيح أو انتقاء من آراء سابقة موجودة، أي: نحن ننشئ شيئًا جديدًا، فهو شيء ناشئ عن تفكيرنا نحن في ضوء الأدلة الشرعية، فهذا هو المقصود بالاجتهاد الإنشائي.

* لعل هذا المنهج الذي عرضه علينا الآن الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي في التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر يذكرنا بالعبارة الشهيرة للأستاذ عباس محمود العقاد والتي أشرتم إليها فضيلتكم في بداية هذا اللقاء: إن التفكير فريضة إسلامية، ويمكن بهذه العبارة أن نختتم هذا الجزء الأول من شهادة الاستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، وأنا لم أسأل أسئلتي بعد، فهل تأذن فضيلتكم بلقاء ثان للأسئلة المفصلة.

** أنا يسعدني ذلك إن شاء الله، وأرجو أن نوفق في الإجابة عن الأسئلة

إن شاء الله.

شاهد على العصر

* وفى مساء الأحد الموافق للعشرين من شهر ربيع الأول سنة 1407هـ /23 نوفمبر سنة 1986 أذيعت الحلقة الثانية من الحوار. وقدم الأستاذ عمر بطيشة للحلقة بقوله:

أيها الأصدقاء .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته التقينا في حلقة الأسبوع الماضي مع الجزء الأول من شهادة المفكر الأسلامي الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بقطر، وقد تناول الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة، وعودة العلم إلى تأييد الدين في العالم المتقدم.

وقال: إن العالم الإسلامي أصبح فى هذا العصر عالة على الغرب بعد أن كان هو مصدر التقدم للغرب، حينما كان العلم فى بلادنا غير منفصل عن الدين، أما الآن فقد فصلنا الدين عن العلم والتعليم فى العالم الإسلامي.

وقال: إن سقوط الخلافة الإسلامية على ما كان فيها من ضعف أفقد المسلمين الهوية الإسلامية الجامعة، فتمزق العالم الإسلامي إلى دول ودويلات متفرقة متنازعة فى عالم يجنح إلى التكتل والتجمع والمصالحة والوفاق.

وقال: إن الاستسلام للجبرية السياسية العالمية هو تهويل لقوة الآخرين، كما أن عدم تقدير قوتهم تهوين من هذه القوة.

وأكد أننا كلنا مسئولون عن التخلف والضعف الذى وصل إليه عالمنا الإسلامي، وأن عصرنا هو عصر الصحوة الإسلامية العالمية، والمواجهة الفكرية الحضارية مع الغرب ومع الغزو الفكري؛ لأن الانبهار بالحضارة

الغربية بدأ ينقشع بعد أن بدأ أبناؤها أنفسهم يثورون عليها.

وأكد أن الإسلام هو المنهج المتوازن بين المادة والروح، والدنيا والآخرة، وأن الدين أصبح الآن للشباب ٍوليس للكهول فقط كما كان قديما، وأن مظاهر الصحوة الإسلامية تتمثل فى الشباب المثقف والكتاب الإسلامي والأزياء والبنوك والشركات والمعارض الإسلامية.

وقال: إننا الآن نعيش مرحة المواجهة مع حضارات العالم، ونعيش مرحلة رفض التبعية، وأننا نقع بين طرفي نقيض هما: الإفراط والتفريط.

أما المطلوب – من وجهة نظره وفي شهادته – فهو التوازن والاعتدال.

ثم تناول منهجه في الاجتهاد، ومفهومه في التجديد في الدين، وهو إعادته إلى ما كان عليه، وتساءل عن كيفية الوصول إلى برنامج أو تصور إسلامي، وأوضح الفرق بين الاجتهاد الإنشائي والاجتهاد الانتقائي.

أيها الأصدقاء .. والآن إلى الجزء الثاني من شهادة هذا المفكر المصري الإسلامي الكبير.

الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي – عميد كلية الشريعة بقطر – أهلًا بكم في الجزء الثاني من شهادتكم.

** أهلًا بكم يا أستاذ عمر.

* الحقيقة أن الجزء الأول استغرق معظمه في صدر الشهادة الذي رصدت فيه فضيلتكم أهم الظواهر المتعلقة بهذا العصر الذي نعيشه. ننتقل في هذا الجزء إلى بعض الأسئلة التفصيلية، ويمكن أن أستطرد من ختام الجزء

الأول الذي كنتم فضيلتكم تتحدثون فيه عن قضية التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، وأطرح على فضيلتكم هذا التساؤل الذي قاله الكثيرون في هذه الأيام: إذا كان الدين واحدًا، فلماذا تتعدد الرؤى والمناهج وزوايا التكفير، وتختلف فيما بينها حركات التجديد إلى حد الصدام أحيانًا؟!

** بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد،

فمن سنة الله في البشر أن يختلفوا، ولا خطر في الاختلاف إذا أمكن أن يجتمع الناس على الأصول الكلية والأهداف الكبرى، وقديمًا وُجد في الفكر الإسلامي مدارس فقهية، ومدارس كلامية، وتعايش بعضها مع بعض، ولكن ساد المنهج الأوسط في الغالب، الوسيطة هي التي تفوز في النهاية، فأهل السنَّة غلب مذهبهم على المذاهب الأخرى؛ لأنهم وسط في الفرق، كما أن المسلمين وسط في الأمم، وحتى مذهب أهل السنة جاء من يجددها ويطعمها مثل مدرسة ابن تيمية، لا مانع أن يوجد في عصرنا رؤى متعددة، وأن يوجد هناك زوايا للنظر في مختلف الأمور، على شرط أن ينظر كل واحد للآخر أنه ليس عدو، أعني أن يكون هناك قدر مشترك بحيث يُحسن الأخ الظن بأخيه، وقد قال الإمام الشافعي كلمة ينبغي أن تكون شعارًا: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، الاحتمال في الجانبين احتمال الخطأ عندي، واحتمال الصواب عند صاحب الرؤية الأخرى، هذا يُقرب المسافة بين الطرفين، إنما الخطأ والخطر هو أن يظن كل إنسان له رؤية خاصة أنه يمثل الحق الذي لا يشوبه باطل، والصواب الذي لا يقبل

الخطأ.

لا .. هذه رؤى واجتهادات بشرية ما دامت في إطار الإسلام العام، هناك أيضًا يمكن أن نختلف ولكن على أساس أن نختلف اختلاف تنوع وليس اختلاف التضاد، وهناك .. شيخ الإسلام ابن تيمية له عبارة في بعض الاختلافات التي ترد عن الفقهاء والمفسرين في شرح بعض الأشياء.

أضرب لك مثلًا يقرب الموضوع: حينما يقول المفسرون في قول الله تعالى: {ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6] تجد من مفسري السلف من يقول: الصراط المستقيم هو الإسلام، وآخر يقول: الصراط المستقيم هو القرآن، وآخر يقول: الصراط المستقيم هو السنة، وآخر يقول: الصراط المستقيم هو اتباع أبي بكر وعمر وباقي الخلفاء الراشدين.

ابن تيمية يقول: ليس هذا الاختلاف اختلاف تضاد وتناقض، إنما هو اختلاف تنوع .. أي أن كل واحد يضرب مثلًا بما يرى أن الشخص يحتاج إليه، تقول: الصراط المستقيم أنك تتبع السنة إذا رأيته مفرطًا في اتباع السنة، وإذا كان هناك واحد يهمل شأن القرآن تقول له: الصراط المستقيم هو أن تتبع القرآن ... وهكذا، فمن الممكن أن توجد رؤى متعددة للاجتهادات الإسلامية.

واحد يهتم بجانب العقيدة، وآخر يهتم بتحرير العبادة من البدع، وثالث يهتم بالجانب الخلقي، وغيره يهتم بالجانب السياسي ووجود اتجاه إسلامي سياسي أو معسكر إسلامي سياسي، وواحد يهتم بالتربية والتكوين.

ليكن هذا .. على أن تكون هذه الرؤى المتعددة تمثل تنوعًا وتخصصًا .. كل واحد يهتم بالجانب الذي يرى نفسه أقدر عليه، وأقدر على الإحسان فيه،

بشرط ألا تؤدي إلى التصادم، وألا يحاول كل واحد هدم الآخرين، بل يحسن الظن بالآخرين.

ويلتقي الجميع في القضايا الكبرى .. هناك قضايا لا بد أن يقف الجميع فيها صفًا واحدًا. أقول هنا: إنه يجب أن تكون نظرة الناس الذين يقفون في الجانب الإسلامي – والأصل كما قلت: دينهم واحد. لا ينبغي أن تفرقهم الرؤى الجزئية المختلفة. وهناك قاعدة معروفة اسمها «قاعدة المنار الذهبية» .. قاعدة وضعها السيد رشيد رضا رحمه الله صاحب المنار، وتبناها الشيخ الشهيد حسن البنا، لها مدلول جيد جدًّا، وعبارتها عبارة مركزة ودالة أبلغ الدلالة تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه» وهذه يجب أن تكون شعار كل العاملين للإسلام: نتعاون فيما اتفقنا عليه، وما اتفقنا عليه كثير.

* لو أذن لي الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي بالإضافة هنا في هذه الجزئية .. نتذكر دور مصر على مدى التاريخ الإسلامي في التجميع في وجه التفريق، وفي التوحد في وجه التشرذم والمذهبية والتمزق .. والاختلافات والانقسامات التي ذكرتموها فضيلتكم الآن .. أعتقد أن دور مصر هنا دور لا ينكر.

** نعم .. دور مصر عن طريق القادة الذي حكموا مصر في وقت من الأوقات مثل صلاح الدين الأيوبي، وغير هؤلاء، دور في العصر الحديث مثل جمال الدين الأفغاني ومحاولة إيقاظ العالم الإسلامي وتحريكه، والدعوة إلى الوحدة، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية في مقابل الدعوات التي أرادت أن تفرق المسلمين بين عصبيات إقليمية أو عصبيات عنصرية أو رايات

مختلفة، وكذلك تلميذه الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، والحركة الإسلامية الحديثة ودعوتها إلى توحيد المسلمين .. الحركة الإسلامية الحديثة – الحقيقة – مبعثها الأول مصر.

وأنا أقول بحق: إني رأيت أثر مصر في أنحاء العالم كله، فحينما ذهبت إلى الفلبين وجدت الذين يقودون الثورة الإسلامية في الفلبين أصلهم شباب درسوا هنا في مصر .. في الأزهر .. وعادوا يحملون الدعوة الإسلامية ويحملون الثورة على الديكتاتورية وعلى التعصب الأعمى ضد الإسلام هناك.

فدور مصر لا ينكر، وهذا ما يجعلنا في الحقيقة نقول: إن مصر ينبغي أن تظل رائدة وقائدة .. لا ينبغي أبدًا أن تترك دورها لتتحصر وتعيش لنفسها كما ينادي بعض الناس، ومصر ينبغي أن يظل دورها دور الريادة والقيادة للعالم الإسلامي بعيدًا عن الإقليمية.

طبعًا المطلوب من كل مصري أن يعمل لبلده، طبيعي – حتى الحكم الإسلامي– أن الإنسان مطلوب أن يعمل لنفسه: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» .. الجيران لهم حق، وأقربهما بابًا له حق أكبر من غيره، والأقربون أولى بالمعروف.

هذه طبيعة الأشياء حتى في الزكاة، نقول: إن الزكاة تؤخذ من الإقليم لتصرف فيه، تؤخذ من أغنيائه لترد على فقرائه، إذا استغنى أهل الإقليم نذهب إلى من هو أبعد منه .. وهكذا.

فلا يمنع الإسلام أن يعمل الإنسان لوطنه ولإقليمه الذي يعيش فيه، ولكن

ليس معنى هذا أن يسجن داخل هذه الإقليمية، ولذلك الذين يريدون لمصر أن تنحصر في الإقليمية المصرية يقتلون مصر، لا يريدونها أن تظل مخلصة لدورها الريادي التاريخي، مصر من عهد صلاح الدين وعهد قطز.

بقيادة صلاح الدين هزمت الصليبيين في حطين واستردت بيت المقدس .. وبقيادة قطز هزمت القوى الأخرى، قوة التتار في عين جالوت بعد أن أصبح هؤلاء التتار أو المغول هم الذين يرعبون العالم .. بمجرد أن يُذكر التتار – ينتشر الرعب في كل مكان – فقد كانوا مثل: **{ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ 41 مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ}** [الذاريات: 41، 42]، كان المثل السائر: «إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق»، نفس ما كنا نسمعه في هذا العصر، أسطورة القوة التي لا تقهر! كان هذا حال التتار وأسقطوا بغداد سنة 656 هـ، وسالت الدماء من المياذيب في الشوارع واسود نهر دجلة مما ألقي فيه من كتب، بعد سنتين فقط – سنة 658 هـ - كانت معركة عين جالوت بقيادة قطز القائد المملوكي مع الجيش المصري. وكانت معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ، ونصر الله المسلمين في الخامس والعشرين من رمضان في سنة 658 هـ بعد سنتين فقط. هذا دور مصر .. ولكن حينما تقاد بالإسلام.

قطز كادت تدور عليه الدائرة لولا أنه حينما رأى التخاذل والفرار من بعض الناس مما كان في قلوبهم من رعب بالنسبة للتتار ألقى بخوذته على الأرض وصاح الصيحة التاريخية الشهيرة: «وا إسلاماه» هذه غيرت المجرى .. جعلت الجنود يعودون حينما تنادى بالإسلام.

* هذه هي مصر .. ويمكن حتى في الجزئية التي بدأنا بمناقشتها وهي جزئية وقوف مصر في وجه التمذهب والتشرذم بين الفرق الإسلامية

المختلفة نجد أنه رغم أن حكامها كانوا من الشيعة في العصر الفاطمي إلا أن مصر لم تتشيع، وهذا يدل على طبيعتها في رد التمذهب وفي محاولة توحيد الإسلام في وحدة واحدة.

** هم لم يكونوا مجرد شيعة، بل كانوا من غلاة الشيعة، وهم لم يكونوا فاطميين، ثبت تاريخيًّا أنهم ليسوا من نسل فاطمة. اسمهم «العبيديون» وهذا اسمهم الحقيقي. رغم أنهم عاشوا في مصر وكان لهم حكامهم، وكانت لهم أبهتهم، وكانوا ينافسون الخلافة العباسية، ولكن لم يستطيعوا أن يتركوا أثرًا في ضمير الشعب.

مصر الآن هي البلد الوحيد الذي ليس فيه طوائف من الناحية الدينية، فهذا الغلو الذي حمله الفاطميون، بمجرد ذهابهم أذهب الله كل آثارهم، ولم يبق إلا بعض البدع والتقاليد مثل الموالد ونحوها، وهذه الأشياء لا تتعلق بالفكر إنما تتعلق بالسلوك الذي يؤثر على بعض العوام، فمصر بخير، وكما قلت في الحديث السابق: إني أجد مصر أرجى بلاد الله للإسلام، ونستطيع أن نجعل منها قوة عالمية لا نظير لها.

* ولكن لو أذن لي فضيلة الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي .. كما ذكرتم فضيلتكم: إن مصر هي محراب الإسلام وحصنه الحصين، ومصر التي شهد لها المؤرخ العالمي «جريستد» عالم المصريات الشهير عندما سمى عنوان كتابه ومؤلفه عن مصر «فجر الضمير» دلالة على أن مصر عرفت في الحضارة الفرعونية الثواب والعقاب والبعث والجنة والنار والضمير، فما تفسير فضيلتكم أنه رغم أن الإنسان المصري هو سليل هذه الروح الإيمانية المتدينة العميقة الأصيلة، نرى بعض السلبيات

وبعض الانحرافات هنا وهناك على هذه الأرض في هذه المرحلة من العصر؟

** لا شك أن مصر قلعة من قلاع الإسلام الكبرى، وهذا أيضا يجعل هناك قوى كثيرة تتربص بها، وتحاول أن تكيد لها في الخفاء، ولا أريد أن أضخم هذا – كما قلنا؛ لأنه ليس من منهجي التهويل في هذه الأمور ولا التهوين، لكن هناك بالفعل بعد سقوط الخلافة العثمانية انتقلت القوى المعادية من الأستانة (استامبول) إلى القاهرة، خشية أن تقود مصر تيارًا إسلاميًا عالميًا جديدًا، فمن أجل هذا يجب أن نحذر من دسائس هذه القوى من ناحية.

ومن ناحية أخرى إن الاستعمار الذي احتل مصر فترة طويلة من الزمن خرب ما خرب وترك آثاره، وهناك أيضا أوضاع وأنظمة تعرضت لها مصر تسببت في هذا الذي نراه من سلبيات وتسيب وانحراف، ولكن للإنصاف أقول: إن هذا لم يمس لباب الإنسان المصري. نستطيع بقليل من التصميم والإصرار على بناء هذا الإنسان أن نعيده إلى فطرته لأن الفطرة سليمة .. إذن ليس علينا إلا أن نجلو الصدأ عن هذه الفطرة ونزيل العوائق، وننقي هذا الزرع من الأشياء التي تحاول أن تأكله أو أن تبتلعه، فنحتاج إلى أن نتيح الفرصة لجو صحي يتربى فيه الإنسان المصري المسلم على الإسلام الصحيح. وهذا أمر يجب أن يتعاون فيه الجميع وبخاصة أن الهدم دائما أسهل من البناء، وقد عبر عن هذا الشاعر تعبيرًا جيدًا حينما قال:

فلو ألفُ بانٍ خلفهم هادمٌ كفى/فكيف ببان خلفه ألف هادم؟!

أي: إن ألف بانٍ لو كان من ورائهم هادم واحد يستطيع أن يزيل آثار

بنائهم، فإذا كان الأمر بالعكس: الهدامون كثيرون والبناءون قليلون .. البناء واحد والهدامون ألف!!

نحن نحاول أن نحمي مصرنا حماها الله، من هؤلاء الهدامين، نريد أن نكثر من البنائين وأن نشد عضدهم، ونحن نعتقد أن رصيد الفطرة عند هذا الشعب عظيم، وهو كذلك عند شعوبنا العربية والإسلامية أيضًا؛ لأن الشعب المصري مثل بارز أمام الشعوب الأخرى. إذن .. رصيد الفطرة مع البنائين والداعين إلى البناء الصحيح.

* يتساءل الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي: أيصنع العقل الغربي السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها: «عين الحسود فيها عود» أو «كايدة الأعداء»؟!

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والمدن والنظام والسير في الشوارع؟

فما تعليق فضيلتكم على هذا التساؤل من الشيخ الغزالي؟

** والله هو تساؤل محق، وهو يؤيد ما قلته في الحلقة السابقة حينما تحدثنا عن العلم المعاصر وعصر الصناعة الثاني، وأين نحن من هذا كله، نحن للأسف فعلًا نستورد أدوات الحضارة ولا نصنعها .. أعني: مهمتنا أن نستهلك ولا ننتج. مع أننا كما قلت مرارًا: أمة «سورة الحديد»، لم نتعلم صناعة الحديد وقد قال الله تعالى فيها: **{وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ}** [الحديد: 25] .. وانظر إلى هذا التعبير، تعبير له إيحاؤه ودلالته: **{فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ}** إشارة إلى الصناعات الحربية. **{وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ}** إشارة إلى

الصناعات المدنية.

* وحتى في الناحية السلوكية أيضًا – ليس فقط في الناحية الصناعية أو الحضارية – في الناحية السلوكية يقول: نستقدم خبراء ليعلمونا السير في الشوارع والنظافة في البيوت.

** مع أننا نحن أصحاب الدين الذي يجعل النظافة من الإيمان: «**الطهور شطر الإيمان**» .. وهذا الدين بُني على النظافة، وأول شيء ندرسه في الفقه الإسلامي كتاب اسمه «كتاب الطهارة». هناك فوضى في حياتنا مع أن ديننا دين النظام. أحد قادة الفرس نظر إلى جيش المسلمين أيام سيدنا عمر، فنظر إلى المسلمين العرب صفوفًا صفوفًا، لا خلل، لا فرجة بين الصفوف، الصف المستقيم، إمامهم يقوِّمهم، يقول لهم: «إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج».

نظافة .. يقوم كل واحد منهم إلى الطهارة ينظف نفسه ويستاك فينظف أسنانه ويكرم شعره: «**من كان له شعر فليكرمه**».

الإمام يركع فيركعون، يسجد فيسجدون، يقرأ فينصتون، غاية في النظام والنظافة والتعاون والانسجام.

نظر الرجل إلى هؤلاء وقال: «أكل كبدي عمر، لقد علَّم هؤلاء البداة الجفاة مكارم الأخلاق»! الواقع أن عمر ليس هو الذي علمهم، الذي علمهم وعلم عمر معهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. هو الإسلام.

نحن للأسف نريد أن نستورد أناسًا من غيرنا مع أننا يجب أن نكون نحن في مرتبة الأولوية لهذه الأمور، فنحن من ناحية العلم لم نعمل بالعلم، وكذا من ناحية الصناعة، بل من ناحية الزراعة، كنا نقرأ في الصغر: إن بلادنا

بلاد زراعية، إذن البلاد الزراعية هذه يجب أن يكون عندها من الخبرات الزراعية ما يغنيها عن غيرها، ولكن مع الأسف .. لا زلنا عالة على غيرنا .. نحن نستورد من أقواتنا حوالي 60% أو أكثر!! أين الاستقلال الحقيق إذا كنا لا نملك القوت الذي نطعمه أبناءنا .. نحن في حاجة لأن نفكر من جديد على ضوء إسلامنا الذي يعلمنا أن نكون أحرارًا وسادة في ديارنا .. كيف ننفذ قوله تعالى: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ}** [الأنفال: 60] - ورباط الخيل في هذا العصر هو الدبابات والمصفحات – لأن لكل عصر خيله، فلا بد من العمل والإنتاج مع الوعي والتصميم. وهذا أيضًا كما قلت في حاجة إلى بناء الإنسان.

الإنسان هو الذي يحسن أن ينتج، وينتج شيئًا سليمًا وشيئًا جيدًا، فما دام هناك من ينتج أي شيء فيقول لك: أهي ماشية، وخليها على الله!! فلن نفلح، إن مسمارًا واحدًا في جهاز أو صامولة، أو لمسة أخيرة في التشطيب، تفسد هذا الشيء. نريد من يفهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملًا أن يتقنه**»، «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**» .. وكتبه أي: فرضه، يعني: إحسان العمل فريضة إسلامية، الناس يسألون بالتعبير العامي: أين قُفِلت؟ لأن اللمسات الأخيرة هذه مهمة .. إننا في حاجة لأن نبني الإنسان كي نبني الصناعة، ونبني الزراعة، ونصنع المجتمع من جديد، وهذا ما ينبغي أن تقوم به الصحوة الإسلامية المعاصرة، وأن نتيح لها الفرص لتبني هذا الإنسان المنشود.

* سأنتقل مع فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي إلى جانب آخر – في هذه الشهادة – من جوانبكم العديدة .. هو جانب الشعر، ونسأل: هل عدم

اهتمام فضيلتكم بإظهار هذا الجانب .. هل هو موقف من الشعر؟

** أنا كنت أقول الشعر – في الحقيقة – في مطلع حياتي .. حتى إني في وقت من الأوقات عُرفت بالشعر أكثر مما عرفت بغيره، كان إذا قيل: القرضاوي، يقولون: القرضاوي الشاعر؟ يعني: قبل الخطيب أو الداعية، أو كذا. هذه كانت فترة من الزمن، ثم شُغلت فعلًا بالجانب الفقهي، والجانب الفكري، والجانب الدعوي، فشغلنا عن الشعر، لكن أحيانًا تأتي ظروف معينة مثل ظروف المعتقلات التي امتحن بها أبناء الحركة الإسلامية، فالإنسان كان لا يجد الكتاب الذي يقرأه، ويكون عنده قدر من الفراغ وقدر من الصفاء فيقول الشعر في هذه الأوقات. ولذلك تجد كثيرًا من شعري هو شعر المحن(2).

* لو سألت فضيلتكم عن البيت أو الأبيات التي تعتبرونها شهادة على هذا العصر فماذا تقولون؟

** يمكن أقدر أقول بعض أبيات تمثلني أو تمثل خطي، أبيات من القصيدة الشهيرة باسم «النونية» التي أنشأتها في السجن الحربي 1954 – 1956.

كان في أواخر هذه القصيدة أبيات تعبر عني وعن موقفي أقول فيها:

ضع في يدي القيدَ، ألهب أضلعي/بالسوط، ضع عنقي على السكين

لن تستطيع حصار فكري ساعة/أو نزع إيماني ونور يقيني

---

(2) ذهب أكثر شعري القديم في أتون المحن التي أصابت الإخوان المسلمين في مصر، وبقيت بعض قصائد قديمة، مع أخرى حديثة، جمعها بعض الأخوة في ديوان نشر في عمان والقاهرة بعنوان «نفحات ولفحات».

فالنور في قلبي، وقلبي في يدي/ربي، وربي حافظي ومعيني

سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي/وأموت مبتسمًا ليحيا ديني

* هذه شهادة نعتبرها على عصر مضى أو مرحلة مضت من العصر.

** مرحلة مضت نرجو ألا تعود إن شاء الله، نحن نعتقد أنه لا يمكن أن نبني الإنسان الذي ننشده ولا يمكن أن تنتعش القيم وأن ينتعش الإسلام – صانع القيم – إلا في جو الحرية.

* فضيلة الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي .. الأستاذ السيد أبو الحسن الندوي في رده على تساؤله الذي جعله عنوانًا لمؤلفه وهو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» .. يعدد السيد أبو الحسن الندوي معتمد دار العلوم بالهند عددًا من أمراض الحضارة المعاصرة التي تتمثل في رأيه في التعصب والعرقية وبطلان الحاسة الدينية وطغيان المادة والانحلال الخلقي والاجتماعي، وكلها أدواء تتفق مع رؤية فضيلتكم التي ذكرتموها في الجزء الأول من هذه الشهادة، ويناشد العرب – مع أنه هندي – أن يعودوا إلى القيادة العالمية التي هيأتها لهم البعثة المحمدية، وأعلنتها سورة الإسراء، فهل تشاركونه فضيلتكم هذه الرؤية؟ وما هو تصوركم لطريقة العلاج ولما نشكو منه؟

** أما إني أشارك الأستاذ الكبير السيد أبا الحسن الندوي فيما قاله، فأنا أشاركه مشاركة مائة في المائة، وأرى أن العالم فقد الكثير وخسر الكثير بانحطاط المسلمين وتخلفهم عن القيادة العالمية، وهذا الدور لم يشغله أحد، ولا يمكن أن يشغله أحد غير أمة الإسلام، والدور دور المسلمين حتى من

الناحية التاريخية، أعني: إذا نظرت إلى أدوار التاريخ بين الشرق والغرب تجد أن زمام الحضارة في وقت من الأوقات كان في يد الشرق: الحضارات الفرعونية، والأشورية، والبابلية، والفارسية، والصينية، والهندية، ثم انتقل هذا إلى الغرب: الحضارة اليونانية والرومانية، ثم عاد هذا إلى الشرق عن طريق الحضارة الإسلامية التي قادت الدنيا عدة قرون – كما تحدثنا في الحلقة الماضية – ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب مرة أخرى، والغرب الآن لم يحسن القيام بحق هذه الأمانة .. فأصبح العالم يعاني ما يعانيه الآن من إفلاس روحي في الجانب الأخلاقي، للأسف حدث هذا التحلل المذهل .. حتى البلاد التي كنا نعتبرها محافظة في أوائل هذا القرن. اذهب إلى هذه البلاد وانظر ماذا أصابها الآن، وماذا يشكو منه علماؤها أنفسهم ومفكروها .. الأمراض الجنسية، الإيدز، والشذوذ وغيره .. هذه الأشياء .. لم تعد هذه البلاد قادرة على أن تظل مستمرة في هذا الدور القيادي، وكما قال «كارلايل» أحد فلاسفة هؤلاء القوم وصاحب كتاب «الأبطال» يقول: إننا نعيش على ظل لظل، فعلام يعيش من بعدنا؟ أي: نحن نعيش على ظل الناس المتدينين الذين بنوا هذه الحضارة، بل ظل مَن بعدهم ممن ورث بعض تدينهم، فعلى أي شيء تعيش الأجيال الآتية، ولم يبق للإيمان ظل، ولا ظل ظل؟!

يعني: الحضارة الغربية فيها أمراض وأدواء كبيرة جدًّا، ولكن عادة الجسم القوي لا تظهر فيه الأمراض، ولكن حينما يبدأ في الضعف تبدو الأعراض المرضية عليه، هذه الحضارة بدأت تشيخ، والمفروض أن يكون هناك ورثة لهذه الحضارة، فمن غيرنا؟

ولكن نحن نعاني أيضًا من العلل، غير أنّا نقول: نحن الآن في عصر

الصحوة، فالمفروض أننا نستفيد من هذه الصحوة لنرث هذه الحضارة. يجب ألا تفوت علينا هذه الفرصة، هذا ما ينبغي أن نفكر فيه.

هذه الصحوة الإسلامية هي نعمة كبرى على هذه الأمة، يجب على الجميع أن يعرف هذا: حكَّامًا ومحكومين.

يجب أن يكون هناك وعي عام على أن نعترف بهوية هذه الأمة.

مَن نحن؟ نحن مسلمون، إذن لا ننتصر إلا بالإسلام.

لو انتصر النظام الرأسمالي في ديارنا وقامت أنظمة رأسمالية، هل يعتبر هذا انتصارًا لنا؟

لا .. هو انتصار لبلاد الرأسمالية الأم .. أمريكا وغيرها.

لو انتصرت الماركسية في بلادنا هل يعتبر انتصارًا لنا؟

لا .. هو انتصار لروسيا أو للصين أو لغيرهما.

متى ننتصر نحن؟

حينما ننتصر بإسلامنا.

هذا هو أساس هويتنا الحضارية، فيجب أن نعرف من نحن؟ ولذلك لا بد أن يقوم هذا الوعي العام يشارك فيه كل من له فكر ورأي .. يجب أن تقام ندوات لمثل هذا.

لعلك سمعت عن الندوة التي أقمناها عن الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين نحاول أن نقرب المسافة بين هؤلاء وهؤلاء عسى أن يستفيد الإسلاميون مما يسمعونه من العلمانيين، وعسى أن يستفيد العلمانيون مما

يسمعونه من الإسلاميين.

* هذه الندوة التي ضربتم فضيلتكم فيها مثلًا لما يمكن أن يؤدي إليه العلمانية كما يحدث في لبنان والهند؟

** نعم .. قلت: إن العلمانية ليست حلًّا للمشكلة الطائفية، بعض الناس يقولون: إنه إذا وُجدت أديان متعددة في بلد ما فدواء هذا التعدد للأديان وتعدد الطوائف هو العلمانية، قال هذا بعض الأساتذة في ندوة «الإسلام والعلمانية» واحتججتُ عليهم بما يقع في لبنان والهند وغيرهما. وقد كان هذا حجة قاطعة على العلمانية ودعاتها؛ لأن هذه البلاد من يوم نشأتها علمانية، ومع هذا فإن العلمانية لم تغن عن طائفيتها، بل الطائفية موجودة، وفي الهند نحن نرى الهند وما فيها من طائفية، طائفة السيخ، طائفة الهندوس المتعصبين وما يحدث للمسلمين وغيرهم من مجازر في بلاد شتى وأوقات شتى، ولبنان قريب منا، والأحداث على مرأى ومسمع منا، العلمانية لم تغن عنهم شيئًا.

بدل هذا الكلام نتصارح: المسلم يجب أن يظل مسلمًا، والمسيحي يجب أن يظل مسيحيًا، ولا نضغط على أحد أن ينخلع من دينه، ندع النفاق السياسي.

أنا لا يمكن أن أترك ديني لأرضي المسيحي، ولا المسيحي سيترك دينه ليرضيني كمسلم. لماذا لا يبقى كل منا على دينه، ونتعاون فيما اتفقنا عليه ونتسامح فيما اختلفنا فيه، والإسلام لا يريد أن يذبح من يخالفنا في الدين. لا .. بالعكس نحن نقول: لا داعي للنفاق السياسي، لتكن هناك مصارحة، أنا مسلم ولي شريعة، والله يأمرني أن أطبق هذه الشريعة، وهذه القوانين الشرعية قائمة على مُثُل عليا دينية الأصل في الأديان كلها، فمن المعقول أن نتفق

عليها.

الإسلام حرم الزنا فهل المسيحية تبيح الزنا؟! الإنجيل يقول: «قد كان من قبلكم يقولون: لا تزني، والحق أقول لكم: مَن نظر بعينه فقد زنى». إذن جاء المسيح بالعفاف والإحسان الذي جاء به الإسلام، هنا نجد نفس المعنى قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «**العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما اللمس، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**» .. القولان ينبعان من عين واحدة، ولذلك ينبغي أن تشيع هذه الروح بيننا وبين أخوتنا المسيحيين، بدل أولئك الذين يوقظون الفتن النائمة، ويكيدون في الخفاء، وليس هذا في مصلحة الإسلام، ولا في مصلحة المسيحية، ولا في مصلحة أي الفريقين، وإنما من مصلحة أعداء الله، وأعداء الأوطان، وأعداء الأمة.

* بالعكس .. إن الوحدة الوطنية في مصر دائمًا يُضرب بها المثال في تجميع المصريين كلهم في وحدة وطنية واحدة، ومعروف السماحة التي يعيش في ظلها المسلمون والأقباط على أرض مصر طوال القرون الماضية، وهذا شيء معروف في التاريخ، يمكن لو قلت بعض العناصر لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي كسبيل للعلاج من بعض العلل التي نشكو منها نقول: يجب التخلص مثلًا من الاهتمام بالشكل على حساب الجوهر، والاهتمام بالفروع على حساب الأصول، ويجب أن نقرِّب المسافة بين القول والعمل والسلوك.

** نعم .. هذا جزء من برنامج أو من ورقة عمل كنت قدمتها لملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر منذ سنتين، كان الملتقى عن الصحوة الإسلامية

المعاصرة، وقدمت برنامجًا لترشيد هذه الصحوة مؤلفًا من عشرين نقطة، فمن ضمن ما قلته: أن ننتقل من الشكل إلى الجوهر، من الفروع إلى الأصول، من الجزئيات إلى الكليات، من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل، من المختَلف فيه إلى المتفق عليه، من النوافل إلى الفرائض، من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب، من التشاحن إلى التعاون، من الارتجال إلى التخطيط، من العاطفية إلى العلمية، من التعسير إلى التيسير، من التنفير إلى التبشير. لقد ذكرت عشرين نقطة في الحقيقة، وكل نقطة من هذه النقط تحتاج إلى شرح وإلى تفصيل.

أضرب لك مثلًا من المختلَف فيه إلى المتفق عليه، نجد للأسف أن بعض فصائل الصحوة الإسلامية يكادون يشغلون أنفسهم بالأمور المختلف فيها، في الطهارة والصلاة واللباس والمرفهات ونحوها، وهذه ليست مشكلتنا، مشكلتنا الأمور المتفق عليها المتروكة: يعني الناس يختلفون: الغناء حلال أم حرام؟ الموسيقى حلال أم حرام؟ إطلاق اللحية واجب أم غير واجب؟ أشياء من هذا النوع للأسف، في بعض الأماكن أذهب إليها تكاد تكون هذه الأسئلة التي أسأل فيها حتى في أمريكا! ذهب المسلمون – للأسف – إلى أمريكا ومعهم هذه الخلافات الجزئية، نقلوها معهم من بلادهم! أقول: يا جماعة إنكم جئتم في بلاد وصلت إلى القمر فكل ما تسألونني عنه هو: الذبح بأي طريقة؟ وأشياء من هذا النوع .. وتطويل اللحية، وتقصير الثوب .. سبحان الله العظيم!! أهذا كل ما يهمكم من أمر الإسلام؟!

مرة من المرات قلت لهم: لن أجيبكم عن الأسئلة التقليدية المكررة، عن اللحم الحلال والذبح وشحم الخنزير والجبنة ... ونحوها.

فللأسف هذه الأشياء الخلافية هي التي تشغل من تفكير بعض الشباب وبعض فصائل الصحوة الإسلامية الشيء الكثير، فنحن نريد أن نهتم بالأشياء المتفق عليها، نهتم بالفرائض بدل النوافل، عندنا قاعدة تقول: «إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة»، للأسف تجد أناسًا يشتغلون بالنوافل ويضيعون الفرائض!

تذهب لمصلحة حكومية تجد رجلًا يعطل مصلحتك؛ لأنه صائم يوم الإثنين أو يوم الخميس! يا أخي إن شاء الله ما صمت، هل من أجل نافلة تصوم وتعطل مصالح الناس؟ هذا لا يجوز.

الحديث النبوي الشريف يذكر بالنسبة للزوجة أنها لا يجوز أن تصوم تطوعًا وزوجها شاهد إلا بإذنه؛ لأن هناك حقًّا يتعلق بالزوج، فكل واحد عنده شيء يتعلق بحقوق الآخرين لا يجوز أن تشغله النافلة عن الفرض.

هل تذهب للحج وعليك ديون للناس؟ هذا لا يُقبل شرعًا.

كنت بالأمس مع بعض الأخوة الذين يحجون لعله للمرة الأربعين! وقلت لهم: لم هذا؟ لو أنك يا أخي تركت هذا الحج، ووسعت مكانًا لغيرك من المسلمين بدل الزحام الذي يدوس الناس فيه البشر تحت أقدامهم من كثرة الزحام، لو نويت أن تترك مكانًا لغيرك وتقلل الزحام وأنفقت هذا المال في مصلحة المسلمين، لكان هذا أولى، ولكن للأسف لا يفعلون هذا؛ لأن هناك شهوة، متعة نفسيه وروحية، ولكن المسألة ليست مسألة متعة. أنا أنظر إلى ما هو أصلح. واحد أيضًا قال لي: أنا أذهب ببعض الناس يحجون على حسابي من غير القادرين – عشرين فردًا ذاهبين ليحجوا، فهم محتاجون لمن

يخدمهم، قلت له: ومن كلَّفك أن تجعل هؤلاء يحجون على نفقتك وعلى حسابك؟ إن الله جعل الحج على من استطاع إليه سبيلًا، فهؤلاء رفههم الله وأعفاهم من هذه الفريضة، لماذا تكلفهم أنت؟ وتكلف نفسك هذا؟ أليس أولى من هذا مساعدة المجاهدين بدلًا من أن تشبع شوقًا لرجل، هو مشتاق أن يذهب ليطوف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة! ولكن أولى من إطفاء هذا الشوق: أن تطعم جائعًا في إفريقيا أو في آسيا يكاد يقتله الجوع. يئن من الجوع أنين الملسوع، أن تؤوي مشردًا لا يجد سقفًا يظله، تدفع ديون مدين مثقل، تخفف بعض آلام الناس، تشغل عاطلًا، تدرب عاملًا، تعلم أميًّا. إن هذه المشاكل هي التي جعلتني أنادي بإقامة هيئة إسلامية خيرية عالمية لتحقيق وتعميق العمل الخير الاجتماعي.

نحن نريد أن نقيم أعمالًا خيرية اجتماعية، نُعلم فيها الجاهل، ونشغل العاطل، وندرب العامل، ونطعم الجائع، ونكسو العاري، ونرعى اليتيم، ونؤوي المشرد.

نحن في حاجة إلى فقه جديد، لنعلم الأمة كيف تختار الأولويات .. فقه الأولويات – فقه «مراتب الأعمال» كما نسميه نحن دعاة الصحوة – أمر واجب؛ لأن الشرع أعطى تسعيرة لكل أمر .. لماذا نشتغل بالمفضول ونترك ما هو أفضل منه؟ نشتغل بالمرجوح ونترك الراجح، نشتغل بالنافلة ونترك الفريضة، نشتغل بفرض الكفاية ونترك فرض العين، نشتغل بفرض الكفاية الذي قام به البعض ونترك فرض الكفاية الذي لم يقم به أحد. نسأل الله أن يوفقنا إلى فقه كتابه وسنة نبيه، وإلى فقه دينه فقهًا راشدًا صحيحًا. وهذا هو أساس نهضتنا الحقيقية وأساس بنائنا المنشود لهذا العصر.

* وهكذا – أيها الأصدقاء – نصل إلى ختام هذه الشهادة الثرية التي قدمها لنا المفكر الإسلامي الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي. نشكره عليها شكرًا جزيلًا ونرجو أن نلقاه دائمًا على خير.

** ونشكرك يا أخ عمر، ونسأل الله أن ينفع ببرنامجك هذا .. أن ينفع به كل من استمعه، وأن ينفعنا نحن به أيضًا .. وأن يجعل يوم أمتنا خيرًا من أمسها، وأن يجعل غدها خير من يومها، الله آمين.

* * *

الاجتهاد .. فريضة وضرورة

أجرت جريدة «الأهرام» القاهرية حديثًا مع الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بقطر نشر خلال شهر فبراير سنة 1986 يدور حول الاجتهاد:

يقول فضيلته: إن الاجتهاد فريضة وضرورة. فريضة من الوجهة الشرعية وضرورة من الناحية الواقعية .. ونحن الآن في حاجة إلى نوعين من الاجتهاد: أحدهما: اجتهاد ترجيحي انتقائي، والآخر: اجتهاد إبداعي إنشائي .. وأعني بـ «الترجيحي الانتقائي» أن عندنا ثروة هائلة من المدارس الفقهية المختلفة لا يجوز أن نقول: قال فلان وقال فلان .. أين موقفنا نحن من هذه الأقوال المتعددة، وقد تكون متعارضة في بعض الأمور؟

فحيث يرى البعض – على سبيل المثال – أن الزكاة تجب في كل الزروع والثمار وكل ما أنبتت الأرض، يرى آخرون أنها لا تجب إلا في مأكولات معينة، فالقصب لا تجب فيه الزكاة، وكذلك الحال في القطن والشاي والتفاح والمانجو، وهذا ما جعل بعض الشيوعيين في بعض بلاد الشرق الأقصى التي زرتها يقولون إن الإسلام يوجب الزكاة على الزراع الفقراء – زراع القمح والشعير – ويعفي منها الإقطاعيين الكبار (أصحاب مزراع المطاط والشاي)؛ لأنهم أخذوا بمذهب الشافعي ونسوا مذهب أبي حنيفة ..

النوع الثاني: الاجتهاد الذي يتطلبه العصر هو ما يسميه الدكتور القرضاوي: «الاجتهاد الإبداعي الإنشائي» ويعني به ما يتعلق بالمسائل الجديدة في عصرنا التي لم يعرفها السابقون أو ربما عرفوها ولكن بحجم

ضئيل .. في مجال المال والاقتصاد – على سبيل المثال – جدت شركات لم يكن لنا بها عهد من قبل مثل شركات المساهمة، والتضامن والتأمين، والشركات القابضة والمصارف والبنوك وما تقوم به من أعمال كثيرة .. خطابات الضمان والاعتمادات المستندية هذه كلها تحتاج من العلماء أن يجتهدوا، وقد يجدون في فقه السلف ما يعاونهم، ولكن لا شك أن كثيرًا منها لم يُفرض على السلف أو لم يكن بالصورة القائمة الآن .. ثم الأمور المتعلقة بالطب كزرع الأعضاء، وهل يجوز أن نأخذ عضوًا من كافر لمسلم أو من حيوان – كالخنزير والكلب – لإنسان .. لا بد أن يقول الفقه المعاصر – بناء على اجتهاد معاصر – رأيه في كل هذه الأمور .. لا بد أن نجتهد لعصرنا كما اجتهد فقاؤنا السابقون لعصرهم، بشرط أن نراعي النصوص من ناحية، ونراعي المقاصد العامة للشريعة من ناحية أخرى.

وفي موضوع الاجتهاد يرى الدكتور القرضاوي ضرورة مراعاة عدة أمور عامة منها:

* الاجتهاد ليس بابًا مفتوحًا لكل من «هبَّ ودب». لا بد للمجتهد أن يكون على معرفة تامة بالكتاب والسنة واللغة العربية ومقاصد الشريعة وأصول الفقه ومعرفة الناس والحياة.

* الأمور التي قطعت فيها الشريعة بحكم لا ينبغي أن تكون موضعًا للاجتهاد، وإلا قلبنا الشريعة كلها رأسًا على عقب.

* لا بد أن نفسح صدورنا للمجتهد حتى وإن أخطأ، فهو ليس معصومًا، ولعله لم يخطئ.

فالرأي الذي نعتبره الآن خطأ قد يأتي زمان يعتبره صوابًا كما اعتبرت آراء شيخ الإسلام ابن تيمية – في الطلاق – في وقت من الأوقات، آراء مرفوضة وهي الآن موضع الاحترام والثقة من لجان الفتوى في معظم بلدان العالم الإسلامي.

تشجيع المجتهد يساعد على استمرار مسيرة الاجتهاد .. ومن مزايا الإسلام أنه جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجرًا إذا أخطأ.

ويختم الدكتور القرضاوي حديثه مع المحرر بقوله: «حينما ننادي بتطبيق الشريعة الإسلامية والعودة إلى أحكامها لا بد أن ننادي في الوقت نفسه بضرورة وجود الاجتهاد».

* * *

من الأسباب الرئيسة لتخلف المسلمين
عدم فهمهم للإسلام .. واهتمامهم بالجوانب الشكلية(3)

كان ملتقى الفكر الإسلامي الذي عقد خلال الشهر الماضي – سبتمر سنة 1986 – في الجزائر فرصة للقاء عدد من أبرز العلماء والمفكرين الإسلاميين الذين اشتركوا فيه .. وقد عرضنا في الأسبوع الماضي للقاء الذي تم مع المجاهد الإسلامي الكبير الشيخ أبي الحسن الندوي – واليوم نعرض للقاء الذي تم مع الداعية الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بجامعة قطر وصاحب العديد من المؤلفات والدراسات الإسلامية.

* كيف ينظر الداعية الكبير إلى ما يجري الآن على الساحة الإسلامية من سلبيات وخلافات وحروب أبرزها الآن الحرب الدائرة بين إيران والعراق؟

** بعض الناس يرجعون ما يجري الآن على الساحة الإسلامية إلى تخطيط اليهودية العالمية والصليبية الغربية والشيوعية الدولية، وأنا لا أريد أن أنفي المؤامرة الخارجية فيما يحدث؛ لأننا نعتقد أن هناك بالفعل كيدًا للمسلمين على كل مستوى، ولكن أريد أن نتحمل المسئولية، إن المسلمين لسوء فهمهم لدينهم ودنياهم يقعون في مثل هذه الأمور؛ لأن هذه الحروب القائمة بينهم لا لمصلحة الدين ولا لمصلحة الدنيا .. الدين يرفض أن يقتل المسلم أخاه المسلم، وقد حذرنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم من هذا

---

(3) نشر في جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ 10 أكتوبر 1986 أجرى الحوار الأستاذ محمود مهدي مساعد رئيس التحرير، والمشرف على القسم الديني بالأهرام.

القتال حين قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»، وقال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، الإسلام يرفض تمامًا أن يشهر المسلم سلاحه في وجه المسلم .. وإني لفي عجب كيف أصبح المسلمون الذين وصفهم الله بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، أصبحوا أشداء على أنفسهم رحماء بغيرهم .. إن تجار الحروب وحدهم هم المستفيدون من ضعف المسلمين، فحين يتقاتلون يبيعون لهم السلاح بالبلايين، وحين تضع الحروب أوزارها هم الذين سيكسبون البلايين التي ستنفق في تعمير ما خربته الحروب ودمرته.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي:

«الحق إن الحرب بين إيران والعراق حرب لا عقل لها، لا يستطيع الإنسان أن يبررها بأي منطق، لا بمنطق الدين، ولا بمنطق الدنيا، ولا بمنطق الاقتصاد، ولا بمنطق الأخلاق، وينبغي أن توقف فورًا .. وعسى أن يسعى العقلاء من المسلمين – وقد سعى بعضهم من قبل، ولكن للأسف لم يأتوا بنتيجة – أقول: عسى أن يسعى العقلاء مرة ومرة حتى يتوقف هذا النزيف الدموي الخطير الذي لا يرضى عنه الله ولا العقلاء من الناس».

* يرى البعض أن يلتقي عدد من علماء الأمة ومفكريها في بلد محايد – غير العراق وإيران – ويواصلوا السعي في تحقيق الصلح .. فماذا ترون؟

** أرى أنه لا بد من السعي للصلح، وإذا صدق العزم وضح السبيل، ومن سار على الدرب وصل، والله تعالى يقول في قصة النزاع بين الزوجين: **{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا**

يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ} [النساء: 35].

ولما بعث عمر رضي الله عنه حكمين في قضية من هذا النوع وعادا قائلين: لم نستطع الإصلاح، قال لهما: أصلحا نيَّتكما وعودا، فعادا بنية غير الأولى فوفقهما الله ..

ولهذا أقول: إذا اجتمع أناس من أهل العلم والفكر الإسلامي ممن لا يشك أحد في صدق نيتهم وعملهم وإخلاصهم، وعلى أرض محايدة، ووجهوا نداء إلى الفريقين، لعل الله سبحانه ببركة هذه النية الصالحة يوفق بين الفريقين ويتحقق الصلح بينهما.

* * *

أزمة في الدعوة والدعاة

* ماذا ترى في دعاة اليوم .. فيمن يتصدون لمسئولية الدعوة؟ هل تعتقد كما يعتقد البعض – أننا نعيش الآن حالة أزمة في الدعوة والدعاة؟ وما هو المخرج من هذه الحالة من واقع خبرتكم الطويلة في هذا المجال؟

** إن هناك أزمة في الدعوة والدعاة لا شك في ذلك .. ولكن لا بد أن نحدد ما المراد بالدعوة والدعاة؟

ليس المراد عندي بالداعية مجرد الخطيب الذي يؤثر في الناس بوعظه وصوته وقصصه التي يثير بها العواطف .. هذا قد يوجد، وإنما أريد الداعية الفقيه، الداعية الذي يعرف حقيقة الإسلام ويعرف ما يجري في هذه الحياة، لا يعيش منعزلًا عن عصره وما يدور فيه من تيارات وما يعتريه من مشكلات .. نحن نريد الداعية الذي يفقه أحكام الله الشرعية وسنن الله الكونية .. نحن الآن في حاجة إلى الداعية الفقيه الذي يُعلم الناس الإسلام حق التعليم .. الداعية الذي لا يشغل الناس بالسنة وهم يضيعون الفرض، ويشغلهم بأمر مختلف فيه وهم يرتكبون الكبائر!

ومن أسف .. فإن كثيرًا من المسلمين يشتغلون بالمرجوح عن الراجح، وبالمفضول عن الفاضل، وبالنوافل عن الفرائض، مع أن المقرر عندنا فقهًا أن الله تعالى لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة .. والسلف يقولون: «من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور».

من هنا لا بد من إعداد دعاة على مستوى الإسلام من ناحية، وعلى

مستوى الدعوة المطلوبة.

وقد تناول الحديث مع الدكتور القرضاوي عددًا كبيرًا مما يدور الآن على الساحة الإسلامية نعرض اليوم لبعضه، ونواصل عرض الباقي في الأسابيع القادمة ..

لقد تحدثنا عن واقع العالم الإسلامي المعاصر وأسباب التخلف الذي يعيش فيه معظم المسلمين في بلاد العالم .. كما تحدثنا عن مشكلات الدعوة ومستوى الدعاة، وما يرتبط بذلك من فراغ ديني لدى بعض الشباب، وتطرف في الفهم والسلوك لدى البعض الآخر .. وتناول الحديث مع الداعية الإسلامي الكبير قضايا إسلامية أخرى مثل: قضية تطبيق الشريعة، والحرب بين إيران والعراق بصفة خاصة، والمنازعات القائمة بين المسلمين بصفة عامة والسبيل لمواجهتها ..

ثم كان لنا حديث مفصل حول الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في وقت جدت فيه كثير من المسائل – خاصة في جانب المعاملات – تحتاج إلى حسم يريح ضمائر المؤمنين.

عن الواقع المعاصر للمسلمين وأسباب تخلفهم بعد أن كانوا قبل في مرتبة القيادة والريادة في كثير من مجالات الحياة يقول الدكتور يوسف القرضاوي:

«ما نحن فيه اليوم هو نتيجة لما وقع للمسلمين في الأعصر الأخيرة، حينما أساءوا فهم الإسلام وأساءوا تطبيقه، فأخذوا منه جانبًا ونسوا جوانب .. لقد اهتموا ببعض الجوانب العبادية وبعض الجوانب الشكلية. أما الجوانب الاجتماعية .. الجوانب العلمية .. الجوانب التي تتعلق بكيان الأمة، فقد أهملت

رغم أن الإسلام أعطى هذه الجوانب الشيء الكثير، ولننظر في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ألا أدلكم على أفضل من الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البين**» إن النبي صلى الله عليه وسلم هنا أعطى المعنى الاجتماعي أكثر من المعنى التعبدي الفردي».

ويضيف الدكتور القرضاوي: «لقد قرر فقهاء الأمة أن كل علم يحتاج إليه المسلمون في دينهم أو دنياهم فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية تأثم الأمة كلهاإذا فرطت فيه – وأولو الأمر خاصة .. إن الطب والهندسة والتشريح والفيزياء والكيمياء وغيرها .. علوم يحتاج إليها المسلمون، ومع هذا لم تعط حقها، واشتغل المسلمون بما سموه علوم الدين وتوسعوا فيها توسعات لم تكن عند السلف الصالح، وكان أولى بهم لو شغلوا أنفسهم بما يهمهم ويرفع من شأنهم في أمر دنياهم، وقد ترتب على هذا أن أوروبا التي أخذت منا منهج الحضارة الإسلامي: المنهج التجريبي الاستقرائي، استفادت به وارتقت ونمنا نحن وتخلفنا، وبعد أن أفقنا وجدنا المسافة شاسعة بيننا وبين القوم ونريد اللحاق بهم فلا نستطيع».

* * *

التخلف جريمة في حق الإسلام

* كيف نخرج من هذا التخلف ونعوِّض ما فاتنا؟

** لا بد من وعي بضرورة هذا الأمر، واعتباره فريضة علينا .. إن التخلف جريمة منكرة في حق الإسلام، ثم لا بد من تفجير طاقات الإنسان المسلم عندنا ولا يفجر هذه الطاقات إلا الإيمان.

لا بد من تنمية الإيمان في نفوس الناس، القرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان عنده أحيانًاطاقة تماثل عشرة أمثال ما عند غيره كما في قوله تعالى: **{إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ}** [الأنفال: 65] .. الإنسان بالصبر والاحتمال يمكن أن يكون عنده ما عند عشرة أمثاله .. ومن هنا نستطيع أن نهيئ ونجند طاقات أمتنا لو قدناها بالإيمان، قدناها بالله أكبر، لو رفعنا أمامها المصحف وقلنا لها: سيري على بركة الله ..

التقدم ليس كلمة تقال ولكنه يحتاج إلى مناخ صحي، مناخ إيماني، مناخ أخلاقي، مناخ سياسي، والذين يظنون أن عملية التكنولوجيا والتقدم المادي بعيدة عن العقيدة أو بعيدة عن الأخلاق مخطئون، إننا لا نستطيع أن نوجد الصانع الذي يتقن عمله ويتفوق فيه ويصنع الآلة المحكمة إلا في ظل أخلاق تراعى فيها الأمانة ويعرف فيها الصانع: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»، و«**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**».

وباختصار .. فإن العودة إلى الإسلام الحقيقي الذي نحسن فهمه ونحسن تطبيقه، ونعيش في رحابه، هي التي توصلنا إلى التقدم المنشود وتجعلنا نتجاوز مرحلة التخلف التي نشكو منها.

* * *

مسئولية الحركات الإسلامية
والخطوط العريضة لترشيدها(4)

إن الفهم الصحيح للإسلام والعمل المستمر الدءوب يحققان للحركة الإسلامية تجنب المزالق التي قد تعترضها.

والكتاب الذي نعرض له اليوم للداعية والمفكر الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي يتناول: «مسئولية الحركات الإسلامية والخطوط العريضة لترشيدها».

وقد أكد المؤلف أن مفتاح شخصية الأمة الإسلامية ومفجر طاقاتها هو الإيمان بالله تعالى الذي جعلها من قبل: «خير أمة أخرجت للناس»، وحقق لها النصر على أعظم الإمبراطوريات رغم قلة عددها وعدتها.

فنحن نملك أعظم عقيدة وأكمل رسالة، فما أحوجنا إلى الاستفادة من كل الطاقات الفكرية والبشرية والاقتصادية، والعمل الصادق لتجديد الدين وتحكيم شريعته وإحياء الأمة به والعودة به إلى مكانه الطبيعي والتاريخي في قيادة المجتمع، وتطبيقه في كل مجالات الحياة خُلُقًا وسلوكًا، وفكرًا وشعورًا، واعتقادًا وتعبدًا، وتشريعًا وتوجيهًا، وقضاء وتنفيذًا .. فالحركة الإسلامية قبل كل شيء هي دعوة للناس أن يقوموا المعوج ويصلحوا الفساد ويتداركوا ما ضاع.

ويقول المؤلف: «إنه من غير العدل أن نُحمل الحركة الإسلامية مسئولية كل ما عليه مسلمو اليوم من تمزق وتخلف هو حصيلة عصور الجمود

(4) نشر في جريدة الأهرام – القاهرية – بتاريخ 17 أكتوبر سنة 1986.

وعهود الاستعمار وعهود الحكم العثماني بعد الاستقلال.

الحركة الإسلامية عليها قدر من المسئولية يوازي ما لديها من أسباب وإمكانات مادية ومعنوية هيأها الله لها .. استخدمت بعضها وأهملت بعضًا آخر، وأساءت استعمال بعض ثالث».

حدد المؤلف الأسباب الذاتية التي عاقت الحركة الإسلامية عن بلوغ غاياتها في إقامة المجتمع الإسلامي المنشود واستئناف الحياة الإسلامية القائمة على عقيدة الإسلام وشريعته نوجزها فيما يلي:

أولًا: ضعف النقد الذاتي:

ينبغي للحركة الإسلامية أن تقف بين الحين والحين مع نفسها للتقويم والمراجعة وأن تشجع أبناءها على تقديم النصح وإن كان مرًّا والنقد وإن كان موجعًا، فالحركة الإسلامية ليست مِلك نفسها بل ملك الأمة الإسلامية كلها وملك الأجيال الإسلامية القادمة، فمن حقها أن تعرف ما في هذه الحركة من مواضع القوة وما يؤخذ عليها من نقاط الضعف لتأخذ منها العبرة .. والواجب أن يُفتح باب النقد الذاتي لأهله القادرين عليه.

ثانيًا: الانقسام والاختلاف:

من الواجب على قادة الحركة الإسلامية أن يحاولوا التقريب والتوفيق بين الهيئات الإسلامية على اختلاف نزعاتها، وأن يبرز العلماء والمفكرون مواضع الاتفاق التي يجب التعاون فيها، وتقريب شُقة الخلاف في مواضع الاختلاف، وتخفيف حدة الجدل والخروج من هذه الدراسة بورقة عمل أو وثيقة شرف يمكن أن يلتقي الجميع عليها.

ثالثًا: غلبة الاتجاه العاطفي على الاتجاه العقلي والعلمي:

وقد أبرز المؤلف ثلاثة أمور من آثار غلبة العاطفة:

1- قصور الدراسة والتخطيط لواقع الأمة والقوى المعادية للإسلام.

2- الاستعجال في خوض معارك قبل أوانها وأكبر من طاقاتها.

3- المبالغة في الإعجاب بأنفسنا ونبالغ في النقد لغيرنا.

رابعًا: الخوف من التجديد:

من نقاط الضعف في الحركة الإسلامية أنها تخاف من الاجتهاد ولا ترحب كثيرًا بالتجديد ولا تميل إلى مواكبة التطور.

ويقول المؤلف: «وقد تحدثت عن الخطوط العريضة لمستقبل الحركة الإسلامية المنشودة في فهم الإسلام – في ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر بالجزائر (يوليو 1984) – وحددت المنطلقات العشرين، والتي اعتبرت بمثابة «ورقة عمل» لتوجيه الحركة الإسلامية، ويكفيني أن أشير إلى عناوين هذه النقاط، ولا ريب في أن كل نقطة منها تحتاج إلى تفصيل، فلا بد أن تنتقل دائرة الاهتمام والتركيز من الفروع والجزئيات إلى الأصول والكليات، من النوافل إلى الفرائض، ومن المختلف فيه إلى المتفق عليه، ومن أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب، ومن طرفي الغلو والتفريط إلى الوسطية والاعتدال، ومن التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير، ومن الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد، ومن الكلام والجدل إلى العطاء والعمل، ومن العاطفية والارتجال إلى العلمية والتخطيط، ومن التعصب على المخالفين في الرأي إلى التسامح معهم، ومن الإثارة إلى التفقيه، ومن الكم إلى الكيف، ومن سماء

الأحلام إلى أرض الواقع، ومن الاستعلاء على المجتمع إلى المعايشة له، ومن الانكفاء على الماضي إلى معايشة الحاضر والإعداد للمستقبل، ومن الاستغراق في العمل السياسي إلى الاهتمام بالعمل الاجتماعي، ومن الاختلاف والتشاحن إلى التعاون والتآلف، ومن إهمال شئون الحياة إلى التعبد بإتقانها، ومن الإقليمية الضيقة إلى العالمية الواسعة، ومن الإعجاب بالنفس إلى محاسبة النفس».

ويستطرد المؤلف فيقول:

«لا بد للحركة الإسلامية أن تحدد لنفسها ميادين للعمل تخدم بها دينها وأمتها، وألا يستهلك العمل جانبًا واحدًا فما زال العمل الاجتماعي يحتاج إلى مزيد من العمل والجهد.

وهذا ما دعانا للمناداة بتكوين «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» التي تعمل بكل طاقاتها على توفير الغذاء للجائع والكساء للعاري والدواء للمريض والرعاية لليتيم والإيواء للمتشرد والتعليم للجاهل والتشغيل للعاطل والتدريب للعامل والمشاركة الجادة في تنمية المجتمعات الإسلامية من داخلها».

المستقبل يبشر بالخير للحركة الإسلامية:

ويقول المؤلف: «ومما يقوي رجاءنا في المستقبل:

1- أن معنا الحق الذي قامت به السموات والأرض، والقرآن الكريم الذي يحمل الهداية للفرد، والسكينة للأسرة، والخير للإنسانية.

2- وأن معنا فطرة الإسلام والتي يرجع إلى حظيرتها كل يوم أعداد غفيرة تهتدي بعد ضلال وتنضم إلى موكب الإسلام.

3- وأن معنا شعوب الأمة الإسلامية التي غدا الإسلام لحمتها وسداها وأصبح جزءًا لا يتجزأ من كيانها العقلي والنفسي والاجتماعي، فلا يمكنها أن تعيش وتحقق ذاتها إلا بالإسلام.

4- وأن معنا مصلحة الإنسانية التي شقيت بفلسفات البشر وتشريعات الأرض فما عاد يسعدها إلا هداية السماء، ولا توجد هذه الهداية نقية مصفاة إلا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي حفظ الله كتابها.

5- ومعنا – قبل ذلك كله وبعده – تأييد الله تبارك وتعالى الذي وعد بنصر من ينصره، وتكفل بأن يظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون، وأن يتم نوره وإن كاد له الكائدون».

* * *

الأسوة الحسنة[5]

نستأنف اليوم حديثًا بدأناه في الأسبوع قبل الماضي مع الداعية الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بقطر وصاحب العديد من الدراسات والأبحاث في مجال الفكر الإسلامي.

يحدثنا اليوم عن أسباب التطرف لدى بعض الشباب وكان قد عالج هذا الموضوع في كتابه «الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف» فيقول:

«إن ثمة أسبابًا كثيرة لهذا التطرف .. منها ما هو علمي وفكري ونفسي، ومنها ما هو اجتماعي وسياسي، كذلك فإن للفراغ الديني دوره في هذا الموضوع بسبب عدم وجود كثيرين من الدعاة الذين يعلمون الناس الإسلام الصحيح».

ويرى الدكتور القرضاوي: أن التطرف يحتاج إلى حكمة في معالجته فلا ينبغي أن نقف ممن نعتبرهم متطرفين موقف ممثل الاتهام، وإنما ينبغي أن نقف منهم موقف الأبوة، نشعرهم بقربهم منا وحرصنا عليهم .. ومن هنا نستطيع أن ندخل إلى قلوبهم وعقولهم ونبدأ في إقناعهم بالإسلام الصحيح ونعرض عليهم الحجج، وهي معنا كثيرة، وهي دائمًا في جانب الاعتدال .. فليس في الإسلام إفراط ولا تفريط.

ويركز الداعية الإسلامي الكبير على أن يقوم بهذه المهمة علماء لا شُبهة عليهم؛ لأن بعض من يقومون بها قد يتهمون عند بعض الشباب بأنهم دعاة للسلطة أو أنهم أبواق لغيرهم ويعملون لحساب الآخرين .. ولهذا من المهم

---

(5) نشر في جريدة الأهرام – القاهرية – بتاريخ 24 أكتوبر سنة 1986.

لكـي نـرد هـؤلاء الشـباب إلـى صـراط التـوازن ونخـرجهم مـن هـذا الغلـو والتطرف أن نراعي هذا الجانب عند من يخاطبون الشباب.

ثم ينتقل بنـا الحديث مع الدكتور القرضـاوي إلـى موضـوع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية .. هل يبدأ التطبيق على الفور – كما يرى البعض – أم لا بد من التهيئة؟

فيقول: «إنه أولًا يحب أن يؤكد على أن الإسلام كما يفهمه هو نظام حياة يصحب الإنسان في رحلة حياته من صرخة الوضع إلى أنَّة النزع، بل من قبل أن يولد وبعد أن يموت .. لأن هناك توجيهات وأحكامًا تتعلق بالجنين في بطن أمه وأحكامًا أخرى تتعلق بالإنسان بعد موته كتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وتنفيذ وصاياه وقضاء ديونه وتوزيع تركته.

الإسـلام الـذي يفهمـه منهـاج حيـاة كامـل، ولا يجـب قصـره علـى الجانـب القانوني وحده، والعقوبات تدخل في هذا الجانب .. صحيح أن الحدود جزء لا يتجزأ من الشريعة ولكنها ليست كل الشريعة».

وعن طريق التطبيق يقول: «لا بد من تهيئة، وإن كانت هناك أشياء لا تحتاج إلى تهيئة، ينبغي أن نبدأ بها على الفور كتنقية المجتمع من المظاهر غير الإسلامية .. أما الأمور التي تحتاج إلى تهيئة فهي تتعلق مثلًا بالنظام الاقتصادي ونظام التعليم، فهذا لا يتم بين يوم وليلة .. لا بد أن نكون واقعيين ونقول بالتهيئة أولًا، بشرط ألا يتخذ هذا سبيلًا لإرجاء الأمر وتمويته.

يجب أن نعود إلى الإسلام كله، عقيدة وعبادة وأخلاقًا وشريعة، وينبغي أن نضع خطة لتحويل المجتمع إلى مجتمع إسلامي.

في عصور الاشتراكية كانوا يقولون: نحن لم نطبق الاشتراكية، بل نحن في مرحلة التحول الاشتراكي.

نحن أيضًا نريد مرحلة التحول الإسلامي، والتحول ليس مجرد كلام يقال، بل يحتاج إلى خطة وتحديد منهج وتحديد وسائل، كما يحتاج إلى تحديد مراحل، كل مرحلة تسلِّم إلى ما بعدها حتى يتحقق التطبيق الكامل».

وما زال الحديث مستمرًا مع الداعية الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي.

* * *

هل نعيد كتابة تاريخنا الإسلامي(6)

فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي مع من ينادي بإعادة النظر في كتابة تاريخنا الإسلامي تدفعه إلى ذلك أسباب منها:

أن زيفًا كثيرًا قد تعرض له تاريخنا الإسلامي في فترات بعينها لعبت فيها الأهواء دورها.

ومنها: أن تاريخنا الإسلامي قد كتب نقلًا عن روايات شفهية ينقص أكثرها السند والتوثيق.

لكنه يضع شروطًا يركز عليها ويحددها تفصيلًا مطالبًا بمراعاتها عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي وإلا أصبح الأمر فوضى وأصبحنا في حاجة إلى إعادة كتابته من جديد!

يقول الدكتور القرضاوي: «إن التاريخ ذاكرة الأمة ومرآة ماضيها التي تنطلق منها إلى مستقبلها، ولا يجوز للأمة أن تهمل تاريخها وتبدأ من الصفر إلا إذا كانت أمة فاقدة لذاكرتها فهي أمة مريضة إذن ومبتلاة، ولو جاز هذا لأمة من الأمم لما جاز لأمتنا الإسلامية التي صنعت تاريخًا من أعرق التواريخ وحضارة شامخة الذرى فاقت الحضارات بشمولها وتوازنها وربانيتها وإنسانيتها وأخلاقيتها، فلا غرو أن يهتم العلماء والمفكرون بالتاريخ وكتابة التاريخ.

ومن هنا اتفق مع من نادوا بإعادة النظر في كتابة تاريخنا الإسلامي

---

(6) نشر في جريدة الأهرام – القاهرية – بتاريخ 7 أكتوبر سنة 1988 أجرى الحوار الأستاذان سيد أبو دومة وسامي دياب.

بشرط أن يبدأ ذلك بمنهاج قويم وفي ضوء مفاهيم واضحة ومن منطلقات يتفق عليها وإلا أصبح الأمر فوضى، وأصبحنا بعد إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي في حاجة إلى أن نطالب بإعادة كتابته مرة أخرى، وهكذا يدور الأمر أو يتسلسل!

تاريخنا تعرض لكثير من الزيف:

والذي يجعلنا نوافق الداعين إلى إعادة كتابته بمنهج جديد أن تاريخنا تعرض لدخول كثير من الزيف إليه وخاصة في فترات معينة لعبت فيها الأهواء دورها، ودخلت فيها عناصر مخربة، واستغلت فيها قوى خفية الفتن التي حدثت والتي كانت لها هي أصابع ذات أثر كبير في تحريكها وإشعالها وإيصالها إلى أمد لم يكن يتوقعه أحد».

روايات شفهية ينقصها السند والتوثيق:

ويستطرد الدكتور القرضاوي: «إن تاريخنا الإسلامي قد كُتب نقلًا عن روايات شفهية ينقص أكثرها السند والتوثيق، لهذا كان أهم ما نحتاج إليه في كتابة تاريخنا الإسلامي هو توثيق المصادر، ولا أعني بتوثيق المصادر مجرد أن يقال: هذه الواقعة ذكرها الطبري أو البلاذري أو ابن الأثير في كتابه كذا الجزء كذا، فهذا ليس توثيقًا، فإن هؤلاء المؤرخين قد جمعوا في كتبهم الصحيح والضعيف والموضوع، وكان أكبر همهم أن ينقلوا كل ما بلغهم من روايات دون أن يُعمِلوا مبضع الجرح والتعديل في رواتها أو يتأملوا في متونها وموضوعاتها كما فعل علماء الحديث في نقد رواياته.

ومن هؤلاء المؤرخين أنفسهم علماء كبار في علم الحديث ومعرفة

الأصول اللازمة لنقد الروايات والمعايير العلمية بتوثيقها أو تصنيفها، ولكنهم لم يستخدموا خبرتهم هذه في نقد الروايات التاريخية، والطبري مثال بارز لهذا النوع من العلماء، فهو في كتبه الحديثية والفقهية ينقد الأسانيد ويمحص الروايات ويقبل منها ويرد حسب المقاييس العلمية المعروفة، ولكنه لم يفعل ذلك في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» المعروف بـ «تاريخ الطبري».

وسبب ذلك في يقيني أمران:

الأول: أنه يرى أن التشدد في الأسانيد والنقد للروايات إنما يجب فيما يتعلق بأمر الحلال والحرام والفرائض وغيرها، أما التاريخ فهو في نظره لا يستحق هذه المعاناة، وهذا ما ذكره بصراحة في مقدمة تاريخه فقال: «إننا لم نرد بهذا الكتاب الاحتجاج أو الاستدلال».

الأمر الثاني: أنه نقل الروايات بأسانيدها، وهم يقولون: «من أسند لك فقد حمَّلك»، أي: حملك مسئولية البحث عن السند.

فلنعد إلى منهج الجرح والتعديل:

وهذا كان سهلًا في زمنهم حيث كان الناس على صلة بعلم الأسانيد ومعرفة الرجال، إذا ذُكر راوٍ معين عرف الناس قيمة الرواية التي يرويها، لكن الخطر يكبر حينما يفقد الناس هذه الملكة وهذه المعرفة، فإذا قرأ أحدنا كتابًا مثل تاريخ الطبري استوت عنده كل الأسماء التي تقترن بالروايات.

وواجبنا الآن أن نرجع إلى منهج المحدثين، أي: منهج الجرح والتعديل في نقد الأسانيد التي تروى بها الوقائع التاريخية في أمهات الكتب وفي غيرها من الكتب التي تُروى بالأسانيد أيضًا ولو كانت كتب أدب كالأغاني أو العقد

الفريد أو نحو ذلك.

أمور ينبغي أن تراعى:

ويركز الدكتور يوسف القرضاوي على أمور ينبغي أن تراعى في رأيه عندما نعيد كتابة تاريخنا الإسلامي:

1- فيجب أن نكون عُدولًا في نظرنا إلى هذا التايخ، فلا يجوز أن نضخم ناحية من النواحي السلبية على حساب النواحي الإيجابية.

فإذا أخذت كتابًا كالأغاني وأردت أن تأخذ منه صورة المجتمع في العصر العباسي فلقد ظلمت العصر العباسي .. فكتاب الأغاني يمثل شريحة معينة من المجتمع ليست هي المجتمع الحقيقي ولا أغلبه.

كذلك ينبغي أن نكون عدولًا عند تقويم الأشخاص، فإذا أردنا أن نقوم شخصية كشخصية هارون الرشيد فعلينا أمران:

الأول: أن نميز بين الصحيح وغير الصحيح من الروايات التي تتحدث عن الرشيد، وما أكثر التزييف في هذه الأشياء وخاصة من الذين يهوون المبالغات ويجعلون من الحبة قبة.

والثاني: أن نقوِّم الشخص بمجموع أعماله ومواقفه وآثاره، فرجل كالرشيد كان يغزو عامًا ويحج عامًا، وكان يستنصح الوعاظ ويبكي عند الموعظة، ويقوم الليل ويكرم العلماء، فمثل هذا لا يتصور أن يكون بالصورة التي يأخذها كثير من الناس من «ألف ليلة وليلة» ويسمون ذلك تاريخًا!

2- ويجب أيضًا عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي ألا نخضعه للأهواء

والتيارات الأيديولوجية المختلفة، فالليبرالي يريد أن ينظر إلى تاريخنا من وجهة نظر ليبرالية أو رأسمالية، والاشتراكي أو الماركسي يريد أن يكتب التاريخ الإسلامي ويفسر في ضوء التفسير المادي، ويريد أن يقسر الأحداث قسرًا لتمشي في ركاب نظريته حتى إنه يقسم الصحابة بين يمين ويسار، ويدير عجلة التاريخ على هذا الأساس.

كما أن المتطرفين من القوميين يريدون أن يكتبوا تاريخنا الإسلامي من وجهة قومية بحتة، ينصرون فيه العروبة على الإسلام، ويقيمون بينهما حربًا لا مبرر لها، فالإسلام هو صانع أمجاد العروبة ومخلد ذكرها وباعث أمتها وصاحب رسالتها، والعروبة هي وعاء الإسلام ولغتها هي لسانه وأرضها هي حرمه، ولكن قومًا يريدون أن يحذفوا الإسلام ويبقوا العروبة وحدها .. فهي حضارة عربية لا إسلامية وهي بطولات عربية لا إسلامية، حتى من لم يكونوا عربًا من ناحية العنصر جعلوهم عربًا كعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وهؤلاء مسلمون عرَّبهم الإسلام.

3- ويجب ألا ننسى إذا كتبنا عن الصحابة في تاريخنا الإسلامي أن هؤلاء الصحابة هم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه من المهاجرين والأنصار، وأن القرآن الكريم أشاد بهم وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكرهم بكل خير وحذر من الإساءة إليهم، فأي كتابة عنهم ينبغي أن تضع هذه العناصر المتفق عليها في اعتبارها لا على معنى أن الصحابة معصومون وأنهم لا يقع منهم خطأ، ولكن على ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في شأن واحد من أهل بدر أخطأ خطأ كبيرًا عند تخطيطهم لفتح مكة، حتى همَّ عمر أن يضرب عنقه قائلًا إنه قد نافق،

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**وما يدريك يا عمر .. لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم**»، فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أن الرجل الذي له تاريخ لا يسقط بموقف واحد وأن سوابقه تشفع له، وهذا هو العدل والإنصاف في النظرة إلى هذه المرحلة الخطيرة من مراحل تاريخنا العظيم.

4- وينبغي أن نراعي عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي أن التاريخ ليس هو التاريخ السياسي فقط، أعني أن التاريخ ليس هو تاريخ الملوك والحكام وحدهم، وإنما يجب أن يكون تاريخ الشعوب والمجتمعات أيضًا.

وكذلك فإن تضخيم الجانب العسكري في تاريخنا الإسلامي – ابتداء من السيرة النبوية وما بعدها – أعطى انطباعًا لدى الناشئة وغيرهم بأن الإسلام دين سيف وحرب، وأنه معركة مستعرة الأوار مستمرة اللهيب، فالسيرة النبوية غزوات، وعهد أبي بكر وعمر فتوح، وعصر عثمان وعلي حرب أهلية، وعصر الأمويين عصبيات وحروب، مغفلين جانب الرسالة وجانب الدعوة وجانب الحضارة في هذا التاريخ، وهذا كله يجب أن يصحح وأن ينظر إلى التاريخ نظرة شاملة متكاملة.

5- كذلك يجب أن ننبه إلى أن كثيرًا ممن يكتبون في تاريخنا الإسلامي يقعون – من حيث يشعرون أو لا يشعرون – أسرى لما كتبه المستشرقون في هذا الجانب.

ولا ننكر أن للمستشرقين جهودًا في كتابة تاريخنا وغيره من نواحي تراثنا الرحب، ومنهم منصفون إلى حد كبير، ولكن قلَّما تخلو كتاباتهم من ثغرات

وآفات بعضها يرجع إلى طبيعة تكوينهم الفكري والعقائدي فهم ينظرون إلى العالم كله وإلى التاريخ كله من زاوية الغربي الذي يرى أن أوروبا هي أم الدنيا وأن الحضارة من هناك بدأ وإليها انتهت، كما أن نظرتهم إلى الإسلام تحكمها عُقد موروثة منذ الحروب الصليبية .. قد تكمن ولكنها لا تزول، وتختفي ولكنها لا تموت!

وقد اعترف كثير منهم بهذه العقدة إذا كتبوا عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا ينبغي ألا تؤخذ النتائج التي وصلوا إليها قضايا مسلَّمة، وإنما ينبغي أن تناقش في ضوء منهج النقد والتمحيص للروايات.

ويستنكر الدكتور يوسف القرضاوي وصف البعض لتاريخنا الإسلامي بأنه ظلمات بعضها فوق بعض، وبأن الغالبية العظمى من حكامنا المسلمين – بعد عصر الراشدين – كانوا حكام ظلم فيقول: «إن في ذلك ظلمًا أي ظلم، وتحاملًا أي تحامل على تاريخنا».

* * *

الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة(7)

المدخل:

- من مواليد جمهورية مصر العربية عام 1926.

- حفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره.

- حصل على العالمية فى أصول الدين من جامعة الأزهر عام 1953، وعلى دبلوم معهد الدراسات العربية فى اللغة والأدب عام 1958، وعلى الكتوراة عام 1973 من الكلية نفسها وكانت رسالته عن الزكاة وأثرها فى حل المشكلات الاجتماعية.

- عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر. والمدير المؤسس لمركز بحوث السنة والسيرة النبوية بجامعة قطر.

- عضو الهيئة العليا للفتوى والرقابة الشرعية للاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية.

- عضو مجلس أمناء الدعوة الإسلامية فى إفريقيا.

- خبير مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

---

(7) حوار أجرته مجلة «الأمة» القطرية بإشراف مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة في رمضان سنة 1408 هـ (إبريل سنة 1988م). وصدر في كتاب «فقه الدعوة: ملامح وآفاق» للأستاذ عمر عبيد حسنة.

- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

- ألف بضعة وثلاثين كتابًا في مختلف جوانب الدراسات الإسلامية تلقاها أهل العلم بالقبول والثناء، طُبع أكثرها عدة طبعات، وترجم بعضها إلى جملة من لغات العالم.

من مؤلفاته:

- فقه الزكاة، وقد شهد له المختصون بأنه: لم يؤلف مثله في موضوعه، وقال عنه الأستاذ محمد المبارك رحمه الله: هو عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويعتبر حدثًا هامًا في التأليف الفقهي، وقال عنه الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله: إنه كتاب هذا القرن في الفقه الإسلامي.

- الحلال والحرام، طبع أكثر من ثلاثين مرة، وهو مترجم إلى العديد من اللغات.

- الإيمان والحياة – العبادة في الإسلام – فتاوى معاصرة – غير المسلمين في المجتمع الإسلامي – ثقافة الداعية – درس النُكبة الثانية – جيل النصر المنشود – نفحات ولفحات (ديوان شعر) – الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف (الكتاب الثاني في سلسلة كتاب الأمة).

إلى جانب الكثير من المقالات والدراسات والبحوث العلمية، والمشاركة في العديد من المؤتمرات والملتقيات الإسلامية والندوات العلمية. ولعل نظرة سريعة على عناوين الكتب التي قدمها للمكتبة الإسلامية تعطي صورة واضحة عن شمولية اهتماماته. والقدر الهام الذي ساهم به في تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، وما منحه من الفقه الضروري للتعامل مع الحياة،

وتصويب المسار للعمل الإسلامي وترشيد الصحوة لتلتزم المنهج الصحيح وتأمن منزلقات الطريق.

يرى أن الحركة الإسلامية تعني مجموع العمل الإسلامي الجماعي الشعبي المحتسب المنبثق من ضمير الأمة، والمعبر بصدق عن شخصيتها وآلامها وآمالها وعقيدتها وأفكارها وقيمها الثابتة وطموحاتها المتجددة وسعيها إلى الوحدة.

كما يرى أنه ليس من العدل تحميل الحركة الإسلامية مسئولية كل ما عليه مسلمو اليوم من ضياع وتمزق وتخلف؛ بل إن ذلك هو حصيلة عصور الجمود وعهود الاستعمار، وإن كان عليها بلا شك قدر من المسئولية يوازي ما لديها من أسباب وإمكانات مادية ومعنوية هيأها الله لها، استخدمت بعضها، وأهملت بعضًا آخر، وأساءت استعمال بعض ثالث.

ويرى ضرورة أن تقف الحركة الإسلامية مع نفسها للتقويم والمراجعة، وأن تشجع أبناءها على تقديم النصح وإن كان مرًّا، والنقد وإن كان موجعًا، ولا يجوز الخلط بين الحركات الإسلامية والإسلام ذاته، فنقد الحركة لا يعني نقد الإسلام، وإن كان بعض العلمانيين ينقدون الحركة الإسلامية لينفذوا إلى نقض الإسلام وأحكامه وشرائعه، ولقد عصم الله الأمة أن تجتمع على ضلالة، ولكنه لم يعصم أي جماعة منها أن تخطئ أو تضل خصوصًا في القضايا الاجتهادية التي تتعدد فيها وجهات النظر.

ويقول: «إن بعض المخلصين يخافون من فتح باب النقد أن يلجه مَن يحسنه ومَن لا يحسنه، وهذا هو العذر نفسه الذي جعل بعض العلماء

يتواصون بسد باب الاجتهاد، والواجب أن يفتح الباب لأهله، ولا يبقى في النهاية إلا النافع ولا يصح إلا الصحيح».

وهو لا ينكر تعدد الجماعات العاملة للإسلام، ولا يرى مانعًا من التعدد إذا كان تعدد تنوع وتخصص: فجماعة تختص بتحرير العقيدة من الخرافة والشرك، وأخرى تختص في تحرير العبادات وتطهيرها من البدع، وثالثة تُعنى بمشكلات الأسرة، ورابعة تعنى بالعمل السياسي، وخامسة تهتم بالعمل التربوي، ويمكن أن تعمل بعض الجماعات مع الجماهير وبعضها الآخر مع المثقفين، على شرط أن يُحسن الجميع الظن ببعضهم، وأن يتسامحوا في مواطن الخلاف، وأن يقفوا صفًا واحدًا في القضايا الكبرى.

ويرى أن على الحركة الإسلامية أن تنتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل على مستوى الإسلام ومستوى العصر – ولا يعفيها من سؤال التاريخ أن تقول إنها كانت ضحية لمخططات دبرتها قوى جهنمية معادية للإسلام من الخارج – وأن تعمل في إطار النخبة والجماهير معًا. وسوف تنجح الحركة الإسلامية عندما تصبح حركة كل المسلمين لا حركة فئة من المسلمين.

ويأخذ على بعض العاملين للإسلام حرمان أنفسهم من العمل لخير الناس أو مساعدتهم حتى تقوم الدولة الإسلامية المرجوة، فهو يرى أن كل مهمة هؤلاء الانتظار؛ فهم واقفون في طابور الانتظار دون عمل يذكر حتى يتحقق موعودهم.

ويرى ضرورة التخطيط القائم على الإحصاء ودراسة الواقع، وأن من آفات الحركة الإسلامية المعاصرة غلبة الناحية العاطفية على الاتجاه العقلي

والعلمي، كما أن الاستعجال جعل الحركة الإسلامية تخوض معارك قبل أوانها، وأكبر من طاقتها.

ويأخذ على بعض العاملين للإسلام النفور من الأفكار الحرة والنزعات التجديدية التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار، وضيقهم بالمفكرين، وربما أصدروا بشأنهم قرارات أشبه بقرارات الحرمان.

ويقول: «إن اتباع أهواء العامة أشد خطرًا من اتباع هوى السلطان؛ لأن الذين يتبعون هوى السلطان يُكشفون ويُرفضون».

ويرى أن الاستبداد السياسي ليس مفسدًا للسياسة فحسب بل هو مفسد للإدارة والاقتصاد والأخلاق والدين .. فهو مفسد للحياة كلها.

ويرى أن الصحوة الإسلامية تمثل فصائل وتيارات متعددة كلها تتفق في حبها للإسلام، واعتزازها برسالته، وإيمانها بضرورة الرجعة إليه، والدعوة إلى تحكيم شريعته، وتحرير أوطانه، وتوحيد أمته.

ويعتبر أهم تيارات الصحوة وأعظمها هو التيار الذي أسماه: «تيار الوسطية الإسلامية»؛ لأنه التيار الصحيح القادر على الاستمرار، ذلك أن الغلو دائمًا قصير العمر وفقًا لسنة الله.

ويرى أن من أهم المحاور التي يقوم عليها هذا التيار، والمعالم التي تميزه:

- الجمع بين السلفية والتجديد.
- الموازنة بين الثوابت والمتغيرات.
- التحذير من التجميد والتجزئة للإسلام.

- الفهم الشمولي للإسلام.

وينصح الحركة الإسلامية أن تعمل على ترشيد الصحوة، ولا تحاول احتواءها أو السيطرة عليها، فمن الخير أن تبقى الصحوة حرة غير منسوبة إلى جماعة أو هيئة أو حزب.

يرى أنه ليس من العدل ولا من الأمانة أن نُحمِّل الشباب وحدهم مسئولية ما تورطوا فيه، أو تورط فيه بعضهم من غلو في الفكر أو تطرف في السلوك، والعجب أننا ننكر على الشباب التطرف ولا ننكر على أنفسنا التسيب، ونطالب الشباب بالاعتدال والحكمة ولا نطالب الشيوخ والكبار أن يطهروا أنفسهم من النفاق.

ويرى أن الشباب ضاق ذرعًا بنفاقنا وتناقضنا فمضى وحده في الطريق إلى الإسلام دون عون منا.

ويرى أن المؤسسات الدينية الرسمية – على أهميتها وعراقتها – لم تعد قادرة على القيام بمهمة ترشيد الصحوة الشبابية وعلاج ظاهرة الغلو ما لم ترفع السلطات السياسية يديها عنها، وأن الذي يعيش مجرد متفرج على الصحوة الإسلامية أو مجرد ناقد لها وهو بعيد لا يستطيع أن يقوم بدور إيجابي في تسديدها وترشيدها، فلا بد لمن يتصدى لنصح الشباب من أن يعايشهم ويتعرف على حقيقة حالهم.

ويرى أن أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللغة، وطبيعة التكليف، فمن أراد أن يزيل الخلاف بالكلية فإنما يكلف الناس والحياة واللغة والشرائع ضد طبائعها، وأن الخلاف العلمي لا خطر فيه إذا

اقترن بالتسامح وسعة الأفق، وتحرر من التعصب وضيق النظر.

ويرى أن الأمة المسلمة اليوم ابتدعت في دين الله، والابتداع في الدين ضلالة، وجمدت في شئون الدنيا والجمود في الدنيا جهالة، وكان الأجدر بها أن تعكس الوضع فتتبع في أمر الدين وتبتدع في أمر الدنيا.

ويرى أن من العلماء من قصر في واجب البلاغ المبين، ومنهم من مشى في ركاب السلاطين، ومنهم من جعل من نفسه جهازًا لتفريغ الفتاوى حسب الطلب.

والحكام في الغالب أشبه بشعوبهم وهم إفراز مجتمعهم.

ولا شك أن الأخ الدكتور يوسف القرضاوي يعتبر من أبرز الفقهاء المعاصرين الذين يتمتعون بقدرة متميزة على النظر الدقيق من خلال كسبه المتعمق للعلوم الشرعية، وتجربته الميدانية في مجال العمل الإسلامي، كما يعتبر من المفكرين الذين يمتازون بالاعتدال، ويجمعوا بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر، تجمع مؤلفاته بين دقة العالِم، وإشراقة الأديب، وحرارة الداعية.

* * *

المقدمة

في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر اقترح أحد المشاركين تغيير موعد صلاة الجمعة ليكون في يوم العطلة في البلاد غير الإسلامية (يوم الأحد) وكان الاقتراح جديرًا بلفت الانتباه إلى قضية الاجتهاد – التي كان الملتقى منعقدًا بشأنها أصلًا – فهل يدخل هذا الاقتراح في مجال الاجتهاد؟ أم أن الاجتهاد بتعريفه الشرعي، وببدايته منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبر مراحله التاريخية حتى عصرنا الحاضر، له أطر محددة، ومجالات يُتاح للعلماء فيها أن يبذلوا الجهد ويجتهدوا، وأخرى لا مجال فيها للاجتهاد؟!

وخلال التطور لحركة الحياة، ينشأ كثير من المشاكل والقضايا، وتظهر أنواع متعددة من المعاملات تجعل الحاجة دائمًا ماسة لوجود المجتهدين الذين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد – سواء أكان الاجتهاد مطلقًا أم في مسائل جزئية. كما يطرح الأمر في الاجتهاد قضية التجديد؛ فللتجديد أيضًا مجالات ومفاهيم، وهل المجدد فرد أو جماعة؟ وفيم يجددون؟ لقد حاول بعضهم الدخول إلى الفكر الإسلامي بمطاعن عديدة تحت شعاري: الاجتهاد والتجديد.

* * *

المراحل التاريخية للاجتهاد

* الاجتهاد من الدين، وهو أصل من أصوله التي تثبت حيوية الإسلام وقدرته على إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة، فما هي المراحل التاريخية لحركة الاجتهاد؟ وهل أغلق بابه – كما يقول بعضهم – في عصور معينة؟ ومَن يتحمل مسئولية هذا الأمر؟

** بدأ الاجتهاد، منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كما ظهر ذلك في قصة «صلاة العصر في بني قريظة»، وفي حديث معاذ رضي الله عنه حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، وسأله: «**بماذا تقضي إن عُرض لك قضاء؟**»، فقال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**فإن لم تجد؟**»، قال: أجتهد برأيي ولا آلو. فأقره وأثنى عليه، وهو حديث مشهور جوَّد إسناده عدد من الأئمة مثل ابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير وغيرهم. وقد اجتهد عدد من الصحابة في عدد من القضايا في غيبتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبلغه ذلك، فمنهم من أقره على اجتهاده، ومنهم من صحح خطأه.

بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم اجتهد الصحابة رضي الله عنهم، وواجهوا مشكلات الحياة المتجددة في مجتمعات الحضارات العريقة التي ورثوها بحلول إسلامية اقتبسوها من نصوص الإسلام أو من هديه العام، ووجدوا فيه لكل عقدة حلًّا، ولكل داء دواء.

واجتهاد الصحابة في وقائع الحياة، وفقههم لدين الله في علاجها، يمثل بحق الفقه الأصيل للإسلام الذي يتسم بالواقعية، والتيسير، ومراعاة الشريعة

ومصالح العباد، دون تجاوز أو افتئات على النصوص.

والناظر في فقه الخلفاء الراشدين أو في فقه ابن مسعود وابن عباس وعائشة وغيرهم – رضوان الله عليهم – يجد ذلك واضحًا للعيان، ويوقن أن الصحابة هم أفقه الأجيال لروح الإسلام.

ومن الأمثلة على ذلك: موقف عمر ومن معه من فقهاء الصحابة، مثل: علي ومعاذ، حين أبى قسمة أرض العراق على الفاتحين؛ باعتبارها غنيمة لهم أربعة أخماسها، كما هو ظاهر قوله تعالى: **{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ}** [الأنفال: 41]، ورأى أن توقف الأرض لمصلحة الأجيال الإسلامية، وقال لمن عارضه: أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟!

وقال له علي ومعاذ: انظر أمرًا يسع أول الناس وآخرهم!

وقرر بذلك وجوب تكافل الأمة في جميع أجيالها، إلى جوار تكافلها في جميع أقطارها.

ومثل ذلك موقف عثمان رضي الله عنه من ضالة الإبل، فقد جاء في الحديث الأمر بتركها، وقال لمن سأله عنها: **«ما لك وما لها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يأتي ربها»**. وهكذا كانت تترك ضوال الإبل في عهد أبي بكر وعمر مرسلة تتناتج، لا يمسها أحد، حتى يجدها صاحبها، فلما كان عهد عثمان، وجد الناس قد تغيروا، وامتدت الأيدي إلى ضوال الإبل، فلم يعد بعضها يصل إلى أصحابها، فرأى المصلحة تعينت في التقاطها، فعين راعيًا يجمعها ويعرفها، فإن لم يجد صاحبها باعها وحفظ

الثمن له حتى يجيء.

وفي عهد علي رضي الله عنه رأى تضمين الصناع إذا ضاع ما في أيديهم من متاع الناس، مع أن يدهم في الأصل يد أمانة، ولكن عليًّا قال: «لا يصلح الناس إلى ذلك».

وهكذا كان فقه الصحابة في سعة أفقه، وواقعيته، وتيسيره، مع التزامه بالأصول ولا ريب.

وقد سار في هذا الاتجاه تلاميذ الصحابة من التابعين الذين كوَّنوا مدارس فقهية في كل الأمصار تعلم، وتفتي في النوازل، وتواجه كل حادث بحديث، ومن هذه المدارس أو الجامعات التي نشأت تحت سقوف الجوامع، برز مشاهير الأئمة أصحاب المذاهب المتبوعة مثل: الثوري، والأوزاعي، والطبري، وداود الظاهري رحمهم الله.

وقد كان المجتهدون في القرون الأولى أكثر من أن يحصروا، وقد تنوعت مشاربهم ومداركهم في استنباط الأحكام، ولكنهم اتفقوا على أن المصدر الأساسي لأحكام الشريعة هو الكتاب والسنة؛ فالكتاب هو الأصل، والسنة هي الشارحة والمبينة، ويأتي بعد ذلك الإجماع والقياس عند جمهور الأئمة، وتأتي بعد ذلك المصادر التبعية الأخرى، مثل: الاستحسان، والاستصلاح، وسد الذرائع، ورعاية العرف، وشرع من قبلنا، وغيرها مما اختلف فيه الفقهاء ما بين مثبت وناف، وموسع ومضيق.

المهم أن الفقه نما واستبحر، وكثرت مسائله الواقعة، والمتوقعة أو المفترضة، ودونت كتبه، وقعِّدت قواعده، وضُبطت طرائق استنباطه

بواسطة علم الأصول الذي ابتكره المسلمون، ولا يوجد عند أمة مثله، ويُعد من مفاخر التراث الإسلامي.

وقد ظل الفقه الإسلامي أساس القضاء والفتوى في المجتمعات الإسلامية كلها حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين، وعزل الشريعة عن التقنين والقضاء إلا في دائرة ضيقة هي ما سموه: «الأحوال الشخصية».

وليس صحيحًا ما يقال: إن الإسلام قد عطل بعد عصر الخلفاء الراشدين، فإن الذي لا شك فيه أن المسلمين طوال اثني عشر قرنًا، لم يكن لهم دستور ولا قانون يتحاكمون إليه غير الشريعة الإسلامية، برغم ما حدث من سوء الفهم أو سوء التطبيق لأحكامها السمحة.

إغلاق باب الاجتهاد

أما عن إغلاق باب الاجتهاد فنقول:

أصبحت الدولة العثمانية مشجبًا يعلق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتى المجالات، فالواقع أن سيطرة التقاليد والتعصب المذهبي وذبول شجرة الاجتهاد المطلق أمور سبقت الدولة العثمانية، واستشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوته، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين ومجددين، حتى وجدنا الإمام السيوطي (المتوفى 911 هـ) يعلن أنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ويرجو لنفسه أن يكون مجدد المائة التاسعة كما هو المشهور في فهم الحديث الوارد في التجديد، ويؤلف كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض».

وفي القرن الثاني عشر نجد المجدد الكبير حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم: شاه ولي الله الدهلوي (المتوفى 1176 هـ) صاحب «حجة الله البالغة» وغيره من الكتب الأصيلة، وفي القرن الثالث عشر يظهر في اليمن الإمام المجتهد المطلق محمد بن علي الشوكاني (المتوفى 1255 هـ) الذي تجلى اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه «نيل الأوطار» و«السيل الجرار» و«الدراري المضيئة» وشرحه «الدرر البهية» و«إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول».

على أنه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أن نقول:

إن الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد أكثر من اهتمامها بالاجتهاد، مع أن القيادة الإسلامية تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدى ودين الحق

الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد لحمايته والذود عنه؛ وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: «لا بد للدين من كتاب هاد وحديد ناصر» مشيرًا إلى قوله تعالى: **{لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ}** [الحديد: 25].

وكان اهتمام الدولة العثمانية بالحديد – أي: بالجانب العسكري – أكثر من الجانب الفكري، حتى كانت الصدمة المذهلة بمواجهة نهضة الغرب الحديثة.

* * *

الاجتهاد المعاصر

* يقول بعضهم: إن حركة الاجتهاد في العصر الحديث قد بدأها جمال الدين الأفغاني، إلا أن تلامذته من بعده عادوا تدريجيًا إلى الاقتصار على النص، فأصبحوا أقرب إلى التقليد – خاصة محمد رشيد رضا – فهل يمكن وضع هذه الجهود في إطارها المناسب من حركة الاجتهاد؟

** هذه المقولة تدل على أن قائلها لم يحط علمًا بمدلول الاجتهاد ومجالاته وشروطه، ولو أحاط بذلك علمًا لعرف أن المسيرة كانت تصاعدية، ولم تنتكس كما زعموا، بل بدأ بالعموميات والمجملات ثم أخذت تتخصص، وبدأ رجراجة ثم شرعت تنضبط، فالشيخ محمد عبده كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأفغاني بحكم ثقافته الأزهرية المتعمقة، والسيد محمد رشيد رضا كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأستاذ الإمام، بما له من سعة اطلاع على كتب السنة والآثار، وإنتاج المدرسة السلفية التي يمثلها الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهو الذي شن حملاته القوية من مجلته العتيدة «المنار» على الجمود والتقليد، وكتب المقالات الإصلاحية، والفتاوى العلمية التجديدية خلال ثلث قرن من الزمان، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد، وفتاواه التجديدية في العالم الإسلامي كله، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلتها، أما السيد جمال الدين فلا نكاد نعرف له اجتهادًا معينًا، وقد كانت شخصيته شخصية الزعيم «الثائر» الموقظ للعقول، المحرك للمشاعر، المثير للهمم والعزائم، لا شخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد، وكل ميسر لما خُلق له.

وقد أُخذ على الشيخ محمد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن، كقوله في قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل، ونحو ذلك، وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها، وكان الانبهار بها على أشده، لذا غلبت النزعة العقلية ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة.

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما، وتقدير فكره وعمله، أن يضعه في إطاره التاريخي الخاص، لا يعدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحًا مسلَّمًا، لم يكن كذلك في زمنه، فرحم الله امرءًا أنصف من نفسه، وأعطى كل عمل ما يستحقه، وأقام الشهادة لله.

* * *

الاجتهاد وآفاقه

* الاجتهاد الشرعي فرض كفاية حينًا، وفرض عين حينًا آخر، وله مدلوله ومجاله وشروطه، هل يمكن تحديد هذه القضايا حتى لا تختلط الأمور، ويدخل باب الاجتهاد من ليس أهلًا له؟

** الاجتهاد هو بذل غاية الجهد، واستفراغ غاية الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها؛ لطريق النظر وإعمال الفكر، وهو فرض كفاية على الأمة في مجموعها، تأثم إذا لم يتوافر لها عدد من أبنائها يسد حاجتها فيه، وهو فرض عين على من أنس في نفسه الكفاية له، والقدرة عليه، إذا لم يجد في المسلمين من يسد مسده.

والاجتهاد يعمل في منطقتين:

إحداهما: منطقة ما لا نص فيه، مما تركه الشارع لنا قصدًا منه، رحمة بنا غير نسيان؛ ليملأ المجتهدون هذا الفراغ بما يحقق مقصد الشارع، وفق مسالك الاجتهاد التي يتبعونها، من القياس أو المصلحة المرسلة أو الاستحسان أو استصحاب الحال – أو غير ذلك – ومن الملاحظ أن بعض المجالات كثرت فيه النصوص إلى حد التفصيل أحيانًا، مثل: العبادات وشئون الأسرة؛ لأنها مما لا يكاد يتغير بتغير الزمان والمكان، والحاجة ماسة إلى نصوص ضابطة لمنع التنازع ما أمكن ذلك، وإلى جانب ذلك توجد مجالات تقل فيها النصوص إلى حد كبير، أو تأتي عامة مجملة، لتدع للناس حرية الحركة في الاجتهاد لأنفسهم – في ضوء الأصول الكلية – وفق مصالح مجتمعهم، وظروف عصرهم. دون أن يجدوا من النصوص المفصلة

ما يقيدهم، أو يعوق مسيرتهم، كما في شئون الشورى، ونظام الحكم، وقوانين الإجراءات والمرافعات وغيرها.

وثانيتهما: منطقة النصوص الظنية، سواء أكانت ظنية الثبوت – ومعظم الأحاديث النبوية كذلك – أو ظنية الدلالة – ومعظم نصوص القرآن كذلك، فوجود النص لا يمنع الاجتهاد كما يتوهم واهم، بل تسعة أعشار النصوص أو أكثر قابلة للاجتهاد وتعدد وجهات النظر، حتى القرآن الكريم ذاته يحتمل تعدد الأفهام في الاستنباط منه، ولو أخذت آية مثل آية الطهارة في سورة المائدة، وقرأت ما نقل من أقوال في استنباط الأحكام منها، لرأيت بوضوح صدق ما أقول.

وبجانب هاتين المنطقتين المفتوحتين للاجتهاد، توجد منطقة في الشريعة مغلقة بإحكام، لا يدخلها الاجتهاد، ولا يجد حاجة لدخولها؛ إنها منطقة القطعيات في الشريعة، مثل وجود الفرائض الأصيلة، كالصلاة والزكاة والصيام، وتحريم المحرمات اليقينية، كالزنا، وشرب الخمر، والربا، وأمهات الأحكام القطيعة، كأحاديث المواريث المنصوص عليها بصريح القرآن، وأحكام الحدود والقصاص، وعدد المطلَّقات والمتوفى عنهن أزواجهن، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص القطعية في ثبوتها، القطعية في دلالاتها.

هذا النوع من الأحكام – التي لا يدخلها الاجتهاد – هو الذي يجسد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، فلا يجوز أن تدخل معترك الاجتهاد، ليبحث باحث، هل يجوز السماح بالخمر من أجل السيَّاح؟ أو نُعطل الصيام من أجل زيادة الإنتاج؟ أو نجمِّد الحج توفيرًا للعملة الصعبة؟ أو نعلق الزكاة اكتفاء بالضرائب الوضعية؟ أو نعطل الحدود والقصاص إشفاقًا على المجرمين –

كأننا أرحم من الله بعباده – {قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ} [البقرة: 140]، وهذا هو الذي يجب الاحتراس منه:

أن نجتهد فيما لا يجوز، فيه، أو أن يلج باب الاجتهاد من ليس أهلًا له، ولا تتحقق فيه شروطه، وهذا هو الذي دعا بعض العلماء قديمًا أن ينادوا بإغلاق باب الاجتهاد، ليسدوا الطريق على الأدعياء والمتطفلين. على أن باب الاجتهاد سيظل مفتوحًا، ولا يملك أحد إغلاقه بعد أن فتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يسع فردًا أو مجموعة من العلماء أن يقولوا في واقعة تعرض عليهم، ليس لنا حق الاجتهاد فيها؛ لأن الأقدمين لم يقولوا شيئًا في شأنها، إذ الشريعة لا بد أن تحيط بكل أفعال المكلفين، وأن يكون لهم حكم في كل واقعة، وهذا ما لا يختلف فيه اثنان.

* * *

من هو المجتهد؟

* لا بد من توافر شروط محددة فيمن يتصدى للاجتهاد الشرعي: فما هي هذه الشروط؟ وهل تنسحب على المجتهدين عمومًا، أم أن هناك فرقًا بين من يتصدى للاجتهاد المطلق، ومن يتصدى للاجتهاد الجزئي؟

** ليس في الإسلام طبقة خاصة تحتكر الاجتهاد أو تتوارثه، إذ ليس فيه كهنوت ولا «إكليروس»، ولكن هناك عالمًا متخصصًا يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه، فهو الذي يجتهد فيما يعرض عليه من وقائع، ويصدر فيها رأيه بما انتهى إليه اجتهاده، أصاب أو أخطأ.

وشروط المجتهد معروفة ومفصلة في كتب أصول الفقه، منها: شروط علمية ثقافية، مثل: العلم باللغة العربية، والعلم بالكتاب والسنة، والعلم بمواضع الإجماع المتيقن، والعلم بأصول الفقه وطرائق القياس والاستنباط، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، وهذا الأخير هو الذي ركَّز عليه الإمام الشاطبي، وجعله سبب الاجتهاد؛ ولا بد مع هذا كله أن يكون لديه ملكة الاستنباط، وهي تنمو بممارسة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومدارسهم، ولهذا قالوا: «مَن لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه».

وشرط آخر نبَّه عليه الإمام أحمد، وذكره ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين» وهو: معرفة الناس، وهذا أمر مهم؛ ألا يعيش المجتهد الذي يفتي الناس في برج عاجي أو صومعة منعزلة ويصدر أحكامًا بعيدة عن الواقع، أو يطبق أحكام عصر انقضى وأناس مضوا على عصر آخر وأناس آخرين، مغفلًا هذه القاعدة العظيمة: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال

والعرف، كما ذكر المحققون.

ويستلزم هذا اطلاع المجتهد على أحوال مجتمعه، وإلمامه بالأصول العامة لثقافة عصره بحيث لا يعيش في وادٍ والمجتمع من حوله في وادٍ آخر، فهو يسأل عن أشياء قد لا يدري شيئا عن خلفيتها وبواعثها وأساسها الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي فيتخبط في تكييفها والحكم عليها؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، كما يقول علماء المنطق.

والمجتهد الحق هو الذي ينظر إلى النصوص والأدلة بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى حتى يوائم بين الواجب والواقع، ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب لماكنها وزمانها وحالها.

وهناك شرط آخر في المجتهد، وهو شرط ديني أخلاقي، وهو أن يكون عدلًا مرضي السيرة، يخشى الله فيما يصدر عنه، ويعلم أنه في فتواه في مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يتبع هواه، ولا يبيع دينه بدنياه، فما بالك بدنيا غيره؟!

وإذا كان الله تعالى قد اشترط العدالة لقبول الشهادة في معاملات الناس فكيف بمن يشهد في دين الله، ويتحدث عن الله تعالى بأنه أحل كذا، وحرم كذا، وأوجب كذا، ورخص كذا؟!

وهذه الشروط العلمية التي ذكرناها إنما يجب توافرها في حق المجتهد المطلق، أي: الذي يجتهد في جميع أبواب الفقه ومسائله، أما المجتهد الجزئي فيكفيه أن يحيط من العلم بما يتعلق بمسألته، بعد أن تكون عنده المؤهلات العلمية العامة، بناء على أن الاجتهاد يتجزأ، وهو القول الراجح عند

الأكثرين.

فيستطيع أستاذ الاقتصاد أن يجتهد في مسألة ما في مجال تخصصه، إذا أحاط بكل ما ورد فيها من نصوص، وما يتعلق بها من اجتهادات، إذا كان لديه المعرفة بأصول الاستدلال، وقواعد التعارض والترجيح، وغير ذلك.

* * *

ضوابط الاجتهاد المعاصر

* ثارت مناقشات كثيرة حول قضية الاجتهاد في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى ظهور بعض الاجتهادات المنحرفة في هذا السبيل، وما دام الأمر كذلك فلا بد من وضع ضوابط تجب مراعاتها في الاجتهاد الشرعي المعاصر حتى يمكن للمسلمين التعرف على هذه الاتجاهات ونبذها.

** الضوابط التي ينبغي مراعاتها في الاجتهاد المعاصر أستطيع أن أجملها في هذه النقاط:

- البعد عن منطقة «القطعيات» فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنيًّا من الأحكام، ولا يجوز لنا أن ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون أن يحولوا القطعي إلى ظني، والمحكم إلى متشابه، وبذلك لا يبقى لنا معوَّل نعتمد عليه، ولا أصل نحتكم إليه.

- وكما لم نجز تحويل القطعي إلى ظني، يجب ألا نحول الظني إلى قطعي، ونزعم الإجماع فيما يثبت فيه الخلاف، فلا يصح أن نشهر سيف الإجماع في وجه كل مجتهد، كما فعل معاصرو ابن تيمية في اختياراته واجتهاداته، مع أن الإمام أحمد قال: «من ادعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه؛ لعل الناس اختلفوا وهو لا يدري».

- أخشى ما أخشاه هو الهزيمة النفسية أمام الحضارة الوافدة، والاستسلام للواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام، ولم يصنعه المسلمون، بل صنعه لهم الاستعمار المتسلط، وفرضه عليهم بالقوة والمكر، وقام هذا الباطل الدخيل في غفلة من أهل الحق الأصيل الذي لدى

المسلمين.

لهذا يجب رفع ذلك النوع من الاجتهاد – إن صح أن يسمى اجتهادًا – وهو اجتهاد «التبرير للواقع» خاصة إذا كان فيه إرضاء للسلطة الحاكمة، واجتهاد «التقليد للآخرين» كاجتهاد الذين يحاولون منع الطلاق، وتعدد الزوجات، ومحاربة الملكية الفردية، وتسويغ الفوائد الربوية، وغيرها.

- يجب أن يتحرر المجتهد من الخوف بكل ألوانه، الخوف من سلطان المتسلطين من الحكام، الذين يريدون فتاوى جاهزة دائمًا تبرر تصرفاتهم، وتضفي الشرعية على أعمالهم، والخوف من سلطان الجامدين المقلدين من العلماء، الذين يشنون الغارة على كل اجتهاد جديد، وهم الذين وراء سجن ابن تيمية ومحنه المتتابعة، فقد كانت محنته رحمه الله منهم لا من السلاطين، وأن يتحرر من الخوف من سلطان الجماهير والعوام الذين يستطيع هؤلاء المقلدون أن يثيروهم على كل رأي مخالف لما ألفوه.

- يجب أن نفسح صدورنا للاجتهاد وإن خالف ما نشأنا عليه من آراء، وأن نتوقع الخطأ من المجتهد، ولا نضيق به ذرعًا؛ لأنه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسبناه خطأ هو الصواب بعينه، ورُبَّ رأي رفضه جمهور الناس يومًا، ثم أصبح بعد ذلك هو الرأي المقبول والمرتضى، وليس في الإسلام سلطة «بابوية» تقول: هذا الرأي صواب؛ فيغدو صوابًا، ويستحق البقاء، وذلك خطأ، فيحذف من الوجود ويحكم عليه بالإعدام.

* * *

الاجتهاد الإنشائي والاجتهاد الانتقائي

* هناك قضايا معاصرة يحتاج المسلمون فيها إلى فقه متجدد يحل لهم مشكلاتهم، ما هي أهم هذه القضايا؟ وكيف ترى هذه الأمور داخل إطار العملية الاجتهادية؟

** نظرًا لتغير شئون الحياة عما كانت عليه في الأعصار الماضية، وتطور مجتمعات اليوم تطورًا هائلًا في الأفكار والسلوك والعلاقات، فإن عصرنا الحاضر أحوج ما يكون إلى الاجتهاد، وذلك بعد الثورة التكنولوجية التي يشهدها العالم، وكان من جرَّائها أن طرحت قضايا جديدة كل الجدة مثل: أطفال الأنابيب، وشتل الجنين، وزرع الأعضاء، ونقل الدم، وما جد في العلاقات الدولية والأنظمة المالية والاقتصادية من أشياء لم يعرفها السابقون، أو عرفوا بعضها في صورة مصغرة جدًّا.

فهذه وما شابهها تقتضي اجتهادًا جديدًا، وهو ما نسميه «الاجتهاد الإنشائي» أي: الذي يصدر فيه المجتهدون حكمًا جديدًا، وإن لم يتقدم من قال به من فقهائنا السابقين، ولم ينص عليه أحد؛ مثل زكاة العمارات والمصانع والأسهم والسندات والرواتب، واعتبار الذهب وحده أساس نصاب النقود، وإيجاب زكاة الأرض المستأجرة على كل من المالك والمستأجر، كل فيها وصل إليه إذا بلغ نصابًا، فالمالك يزكي الأجرة بمقدار زكاة الخارج من الأرض، والمستأجر يزكي الخارج من زرع أو ثمر، طارحًا منه الأجرة؛ لأنها دين عليه.

وهناك اجتهاد آخر أسميه «الاجتهاد الانتقائي» وهو اختيار أرجح الأقوال

من تراثنا الفقهي العظيم، مما نراه أقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، وأليق بظروف العصر؛ وقد يكون الانتقاء داخل المذاهب الأربعة مثل ترجيح مذهب أبي حنيفة في إيجاب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض، وترجيح مذهب الشافعي في إعطاء الفقير كفاية العمر، وترجيح مذهب مالك في إبقاء سهم المؤلفة قلوبهم.

وقد يكون الانتقاء من خارج المذاهب الأبعة، فالأئمة الأربعة – على جلالتهم وفضلهم – ليسوا كل الفقهاء، فهناك من عاصرهم من نظرائهم، ومن يمكن أن يكون قد تفوق عليهم، وهناك من سبقهم من شيوخهم من فقهاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ممن هم أفضل منهم بيقين.

فلا حرج في الأخذ بمذهب أحدهم إذا ترجح لدينا باعتبارات شرعية، كالأخذ بمذهب عمر رضي الله عنه في التضييق في زواج الكتابيات إذا خيف منهم على نساء المسلمين أو الذُرِّية، أو خيف عدم التدقيق في شرط الإحصان: **{وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ}** [المائدة: 5] أي: العفيفات منهن، أو الأخذ بمذهب عطاء في إيجاب المتعة لكل مطلقة، أو الأخذ بمذهب بعض السلف في عدم وقوع الطلاق في حالة الغضب الشديد، وهو ما فسروا به حديث: «**لا طلاق في إغلاق**»، أو مذهب بعضهم في إيقاع طلاق الثلاث بلفظة واحدة أو في مجلس واحد، طلقة واحدة رجعية فقط، وهو ما أفتى به ابن تيمية وابن القيم، ومثله: عدم إيقاع الطلاق البدعي، أي: الطلاق في حالة الحيض، وكذلك الطلاق إذا أريد منه الحمل على شيء أو المنع منه، فيعامل معاملة اليمين، وفيه كفارة يمين.

ونحو ذلك الأخذ بمذهب بعض السلف في وجوب الوصية لمن لا يرث

من الأقربين، وعلى أساسه قام في مصر وغيرها قانون «الوصية الواجبة» للأحفاد إذا مات آباؤهم أو أمهاتهم في حياة والديهم، فلهم نصيب الوالدين بشرط ألا يزيد على الثلث.

ومن ذلك ما رجحه الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر من الإفتاء بمذهب عطاء وطاووس من التابعين في جواز رمي الجمرات قبل الزوال في الحج، تيسيرًا على الناس، ورفعًا للحرج والمشقات الهائلة التي يتعرض لها الناس من الزحام حول المرمى، إلى حد الهلاك تحت الأقدام.

والاجتهاد الذي نحتاج إليه في عصرنا هو «الاجتهاد الجماعي» الذي يقوم في صورة مجمع فقهي عالمي، يضم الكفايات العلمية العالية، ويصدر أحكامه بعد دراسة وفحص، بشجاعة وحرية، بعيدًا عن ضغط الحكومات، وضغط العوام.

ومع هذا أؤكد أنه لا غنى عن الاجتهاد الفردي الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدم من دراسات متأنية مخدومة.

* * *

الدعاة والتجديد

* يُتهم بعض الدعاة إلى الإسلام أحيانا بأنهم أنصار للجمود والتشديد، ومعاداة أي تجديد، فهل يرتبط هذا بحقيقة واقعة، أم أنه يرتبط برغبة أخرى خفية؟

وهل لنا أن نتعرف على الموقف الصحيح من قضية التجديد؟

** ينقسم الناس بشأن التجديد إلى أصناف ثلاثة:

1- أعداء التجديد الذين يريدون أن يبقي كل قديم على قدمه، حكمتهم المأثورة: ما ترك الأول للآخر شيئًا، وشعارهم المرفوع: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وهم بجمودهم يقفون في وجه أي تجديد: في العلم، في الفكر، في الأدب، في الحياة، فما بالك بالدين؟! إن مجرد كلمة «التجديد» بالنسبة للدين يعتبرونها هرطقة.

وفي مجال الدين وجدت فئتان ينتهي موقفهما إلى «تجميد الإسلام» وهما: فئة مقلدي المذاهب، المتعصبين لها، الذين يرفضون أي خروج عليها، ولا يعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا لجماعة في هذا العصر.

والفئة الأخرى هي التي سميتها «الظاهرية الجدد» وأعني بهم الحرفيين الذين يقفون جامدين عند ظواهر النصوص، ولا يمعنون النظر إلى مقاصدها، ولا يفهمون الجزئيات في ضوء الكليات، ولا غرو أن تراهم يقيمون معارك حامية من أجل أمور هامشية في الدين، وهؤلاء وأولئك قوم

مخلصون للإسلام، ولكنهم معه كالأم التي تسببت في موت وليدها، بحبسه والإغلاق عليه خوفًا عليه من الشمس والهواء.

2- ويقابل هؤلاء: الغلاة في التجديد، الذين يريدون أن ينسفوا كل قديم، وإن كان هو أساس هوية المجتمع، ومبرر وجوده، وسر بقائه، كأنما يريدون أن يحذفوا «أمس» من اللغة، ويحذفوا «علم التاريخ» من علوم الإنسان!

وتجديد هؤلاء هو التغريب بعينه، إن قديم الغرب غدا عندهم جديدًا، فهم يدعون إلى اقتباسه بخيره وشره وحلوه ومره، وهؤلاء هم الذي يسخر منهم الرافعي رحمه الله حين دخل معركته معهم «تحت راية القرآن» وقال: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر.

ورد عليهم شاعر الإسلام محمد إقبال بأن «الكعبة لا تجدد بجلب حجارة لها من أوروبا» وأشار إليهم أحمد شوقي – أمير الشعراء – في قصيدته عن الأزهر:

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا/من مات من آبائهم أو عمّرا

من كل ساعٍ في القديم وهدمه/وإذا تقدم للبناية قصرا

وهذا الصنف والذي قبله هما اللذان شكا منهما الأمير شكيب أرسلان حين قال: إنما ضاع الدين بين جامد وجاحد، ذلك ينفر الناس منه بجموده، وهذا يضلهم عنه بجحوده.

3- وبين هذين الصنفين يبرز صنف وسط، يرفض جمود الأولين، وجحود الآخرين، ويلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويقبل التجديد، بل يدعو إليه، وينادي به، على أن يكون تجديدًا في ظل الأصالة الإسلامية،

يفرق بين ما يجوز اقتباسه، وما لا يجوز، ويميز بين ما يلائم وما لا يلائم.

إنه يدعو إلى أخذ العلم المادي والتقني بكل ما يستطيعه مما تحتاج الأمة إليه، بشرط أن نهضم التكنولوجيا وننشئها لا أن نشتريها ونظل غرباء عنها.

وهذا هو موقف دعاة الإسلام الحقيقيين .. إن شعارهم: الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح على العالم دون الذوبان فيه، والثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل، والتشديد في الأصول والتيسير في الفروع.

* بين الاجتهاد والتجديد – كمفهوم معاصر – صلة، فإذا كان الإسلام يعتبر الاجتهاد أداة لفهم أحكام القرآن والسنة، فهل يقبل الإسلام التجديد كما يقبل الاجتهاد؟

أم أنه ينافي طبيعة الدين الذي جاء ليضبط الحياة بعقائده وقيمه ومفاهيمه وأحكامه؟ أم أن لكل منهما مجاله الذي يعمل فيه؟

** أدهشني إنكار عالم فاضل نسبة التجديد إلى الدين – في حوار مع أحد الصحفيين – باعتبار أن الدين ثابت لا يتجدد ولا يتطور، ودافعه إلى هذا – فيما أعتقد – خشيته أن يفهم الناس من إطلاق كلمة «تجديد الدين» إعمال يد التغيير فيه بالحذف أو الزيادة، فأراد أن يسد الباب كلية بإنكار مطلق التجديد.

والحقيقة أن الحديث الشريف قد فصل في هذه القضية، وذلك فيما رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، بإسناد صحيح: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»، وليس بعد قول رسول الله قول، ولا بعد حكمه حكم.

وكثير من العلماء المخلصين ينكرون أشياء ثابتة لسوء استخدام بعض

الناس لها، وهم بهذا يعالجون الخطأ بخطأ، والمنهج السليم هو إثبات الثابت، وإعطاؤه التفسير الصحيح، ورد كل فهم أو تفسير خطأ.

فتجديد الدين ثابت بالنص، ولكنه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعًا منه، ولونًا من ألوانه، فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أما التجديد فيشمل الجانب الفكري، والجانب الروحي، والجانب العملي، وهي الجوانب التي يشملها الإسلام، وهي: العلم والإيمان والعمل.

وأمتنا أحوج ما تكون اليوم إلى من يجدد إيمانها، ويجدد فضائلها، ويجدد معالم شخصيتها، ويعمل على إنشاء جيل مسلم يقوم في عالم اليوم بما قام به جيل الصحابة من قبل، وهو الذي سميناه «جيل النصر المنشود»، وقد بدأ هذا الاجتهاد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، من أمثال: سعيد النورسي، وحسن البنا، وأبي الأعلى المودودي رحمهم الله، وعلى من بعدهم أن يكملوا المسيرة ويصححوها حتى يتم الله نوره.

* * *

المجددون

* للحديث الشريف: «**إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**» أهمية في القضية، فماذا تعني كلمة «**مَن**» كما وردت في الحديث؟ وهل تظل عملية ترقب المسلمين لفرد مجدد ملازمة لتفكير المسلم في بداية أو نهاية كل قرن هجري؟ في ظل الفهم الإسلامي لدور الجماعة في حياة الفرد يبدو مفهوم الحديث يحمِّل المسلم مهمات وتبعات في إطار تجديد أمر الدين.

** هذا الحديث الذي رواه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، وغيرهم من الأئمة، يمد الأمة بشعاع قوي من الأمل، يطرد عنها ظلال اليأس، ويبعث فيها الروح والأمل في أن الله لا يدعها طويلًا لأنياب الضعف حتى يفترسها، ولا لدخان الهمود حتى يخنقها، ولا لمخالب التمزق حتى تقتلها. بل يهيئ لها بين قرن وآخر مَن يجمعها من شتات، ويحييها من موات، ويوقظها من سبات، وهذا بعض معاني التجديد، فهو يجددها بالدين، ويجدد بها الدين.

وقد فهم شراح الحديث أن المراد بـ «من» يجدد الدين فيه: فرد واحد، يهبه الله من الفضائل العلمية والخلقية والعلمية ما يجدد به شباب الدين، ويعيد إليه الحيوية والقوة عن طريق كلم نافع، أو عمل صالح، أو جهاد كبير، وهذا ما جعلهم يحاولون تحديد هذا المجدد على رأس كل قرن، فاتفقوا حينًا، واختلفوا حينًا آخر؛ فقد اتفقوا على أن مجدد المائة الأولى: خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، ومجدد المائة الثانية: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومجدد

المائة الخامسة: أبو حامد الغزالي، ومجد المائة السادسة: ابن دقيق العيد، واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافًا شاسعًا.

وأرى أن «من» في الحديث – وفي لغة العرب عامة – تدل على الجمع، كما تدل على المفرد، وهي هنا تدل على الجمع كذلك، فمن يجدد الدين في كل قرن ليس بالضرورة فردًا معينًا، بل جماعة من الناس، قد يكون منهم العلماء، ومنهم الولاة، ومنهم القواد، ومنهم المربون، وقد يكونون في بلد واحد، وقد يكونون في عدد من البلاد. وقد يعمل كل منهم وحده في مجاله، وقد يتعاونون فيما بينهم فيما يشبه الرابطة أو الجمعية، وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدعوة والثقافة، وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التربية والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعي، وفئة أخرى في المجال الاقتصادي، وسواها في المجال السياسي. ولا مانع من تعدد هذه المجالات واختلاف ألوان العمل والتجديد، على أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض، أعني: أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع المختلفة من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضًا، ويشد بعضها أزر بعض، لا أن ينكر بعضها على الآخر، أو يعوق بعضها بعضا؛ فيؤدي ذلك إلى ضعفها جميعًا وقوة أعدائها.

إن ربط التجديد بفرد واحد فذ، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره، وكل ما عليهم انتظاره حتى تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه.

والذي أراه أن يربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته، ولا يصبح السؤال: متى يظهر المجدد للدين؟ بل يكون: ماذا أعمل لتجديد

الدين؟

* * *

بين التجديد والتبديد

* في عالمنا الإسلامي ارتبط التجديد والمجددون باتجاهات مختلفة، ودعاوى باطلة من علمانية أو إلحاد خفي، لتجريد المسلمين من حقيقة دينهم، فهل هذا هو التجديد، وهؤلاء هم المجدِّدون؟

** تسمية هؤلاء بـ «المجددين» تسمية خطأ، هؤلاء مبددون لا مجددون؛ لأنهم لا يمتون إلى التجديد الحقيقي بصلة، فتجديد شيء يعني العودة به إلى ما كان عليه عند بدايته وظهوره لأول مرة، وترميم ما أصابه من خلل على مر العصور، مع الإبقاء على طابعه الأصيل، وخصائصه المميزة، هذا ما نصنعه في أي قصر أو بناء أثري عريق نريد تجديده، فلا نسمح بتغيير طبيعته، وتبديل جوهره، أو شكله، أو ملامحه، بل نحرص كل الحرص على الرجوع به إلى عهده الأول، أما إذا هدمناه وأقمنا مكانه بناء شامخًا على الطراز الحديث، فهذا ليس من التجديد في شيء.

والذين أشرت إليهم في سؤالك هم من هذا النوع الذي يريد هدم «الجامع» القديم ليقيم على أنقاضه «كنيسة» حديثة، بكل مقوماتها وخصائصها، إلا أنه كُتب عليها اسم «جامع».

والذي سمى هؤلاء «مجددين» إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصِّرين، وتسميتهم الحقيقية «عبيد الفكر الغربي» فهم لا يرقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي، فإن التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويرد عليه، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية، التي ترى أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما

يفعله فهو جميل، ويستوي في هذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، وكلهم فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل: شجرة المادية الخبيثة التي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله، وقد كشف زيف أدعياء التجديد هؤلاء أستاذنا الدكتور محمد البهي رحمه الله في كتابه القيم «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي».

المجدد الحقيقي هو الذي يجدد الدين بالدين وللدين، أما من يريد تجديد الدين من خارجه، أي: بمفاهيم مستوردة وأفكار دخيلة، ويجدده لمصلحة الغرب أو الشرق فهو أبعد ما يكون عن التجديد الحق(8).

* * *

(8) قام أحد الإخوة في «مجلة الأمة» بإجراء هذا الجزء من الحوار مع الدكتور القرضاوي في رمضان 1404 هـ - حزيران (يونيو) 1984م.

مشكلات النظام غير الإسلامي

* هناك مجموعة أمور نرى أن لها علاقة وثيقة بقضايا الاجتهاد.

يرى بعض الكتَّاب والمفكرين الإسلاميين أن الإسلام كفيل بحل المشكلات الذاتية الناجمة عن تطبيق نظامه بعد أن تجذرت أسبابها بسبب إبعاد الشريعة عن الساحة، وأن سبب كثير من المشكلات التي نراها هو تطبيق أنظمة غير إسلامية، ولو طبق النظام الإسلامي لما كان لها وجود، ولما احتاجت إلى اجتهاد وحلول، وأن الاجتهاد لمثل هذه المشكلات يمكن أن يُصنف في باب إيجاد المبررات أو المسوغات لحركة المجتمعات غير الإسلامية، ويأتي على حساب العمل لإقامة المجتمع الإسلامي، وإن الإسلام يأبى مثل هذا التجزيء والتبعيض، ويجب أن يؤخذ ككل، حتى شاعت الكلمة المشهورة: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه».

وقد لا تكون المشكلة – كما نتصورها – بهذه السهولة، خاصة وأن هذه المجتمعات هي مجتمعات مسلمين، إن لم نشترط في تسمية المجتمع الإسلامي، أن يكون ملتزمًا الإسلام في نظامه.

والمسلمون يواجهون بمشكلات كثيرة لا بد لهم من التعامل معها.

فما مدى دقة هذا الرأي؟ وهل نترك المسلمين تائهين، أم لا بد لنا من الاجتهاد في بيان حكم الشرع، فيما يقع ضمن مقدورهم؟

** قد ناقشتُ هذا الرأي حول «الاجتهاد المعاصر ومدى جديته وجدواه» في الفصل الأخير من كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»، مناقشة

تفصيلية، وخلاصة ما أقوله هنا أنني أقدر وجهة نظر هؤلاء الكتاب والمفكرين الإسلاميين، وأقدّر دوافعهم التي دعتهم إلى هذا القول، وهم مأجورون إن شاء الله على اجتهادهم، أصابوا فيه أم أخطئوا.

ولكني أخالفهم في هذا الاتجاه، وأرى أن من واجب الفقيه أو المفكر المسلم أن يجيب الناس المسلمين من حوله إذا سألوه: ماذا سيصنعون في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم القائمة بالفعل؟ وما الحل لما يعانون من مشكلات، وإن كان سببها البُعد عن الإسلام؟

إنك لا تستطيع أن تؤجل الإجابة حتى يقوم المجتمع المسلم الكامل، وتستأنف الحياة الإسلامية المتكاملة، ولا تستطيع أن توقف عجلة الحياة الاجتماعية، فلا تتحرك يَمنة ولا يسرة، حتى تعود أحكام الإسلام كلها.

إن الناس ولا بد سيظلون يبيعون ويشترون، وينتجون ويستهلكون، ويتبادلون السلع والخدمات، وينشئون فيما بينهم علاقات متنوعة، متأثرين في هذا كله بمؤثرات شتى، عقائدية وثقافية واجتماعية وسياسية، ومن هذه الأشياء ما يوافق الإسلام كل الموافقة، ومنها ما يخالفه كل المخالفة، ومنها ما يوافق في بعض، ويخالف في بعض.

والمسلم الحريص على دينه لا بد أن يسأل: ما موقفي من هذا؟ كيف أتعامل مع البنك، ومع التأمين، ومع الأسهم والسندات، ومع شهادات الاستثمار؟ ... إلخ.

كما يسأل آخرون عن هذه المؤسسات القائمة التي برزت في غيبة الشريعة الإسلامية، والحياة الإسلامية، والتي لا ينكر أن بعضها كان من

زرع الاستعمار إبَّان سطوته ونفوذه؛ هل هذه المؤسسات مرفوضة من ألفها إلى يائها؟ أم منها ما يُقبل، ومنها ما يُرفض؟ وإذا كانت مرفوضة فما البديل الإسلامي لها؟ أم لا يوجد بديل لها في الحل الإسلامي؟

إننا نعلم أن الله تعالى لا يحرم على الناس شيئا إلا وفي الحلال ما يعوضهم عنه، ولا يمكن أن يسد الشارع على الناس بابًا إلا ويفتح لهم بابًا – وربما أبوابًا – خيرًا منه.

وهذا كله يوجب علينا أن نجتهد في ضوء نصوص الشرع وقواعده للبحث عن حلول إسلامية للمشكلات التي يعانيها الناس، ويريدون أن يعرفوا حكم الشرع فيها، وكيف يتعاملون معها.

وأن نجتهد كذلك لإيجاد البدائل النظرية الإسلامية للمعاملات والمؤسسات غير الإسلامية، حتى يهيئ الله من يحول البدائل النظرية إلى واقع عملي، كما حدث بالنسبة لفكرة البنوك الإسلامية.

كل ما أؤكده هنا أشد التأكيد هو تحذير المجتهد أو المفكر المسلم من الخضوع لضغط الواقع القائم، ومحاولة تبريره والاعتساف في تفسير النصوص، وليِّ أعناقها، لإضفاء الشرعية عليه؛ مع أن هذا الواقع لم يصنعه الإسلام ولا المسلمون مختارين، بل صُنع لهم، وفرض عليهم، وأورثوه بعد ذلك فاستسلم له من استسلم، من باب الرضا بالأمر الواقع، كما يجب على المجتهد المسلم ألا ينسى بحال أن الإسلام نسيج وحده، وأنّا لسنا عبيدًا للحضارة الغربية، وأن لنا ديننا، وللغرب دينه، ولنا تراثنا، وله تراثه، فنحن نأخذ منه وندع وفقًا لمواريثنا وقيمنا الدينية والحضارية، ولا نقبل أن نتبع

سُننه شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع.

على أن كثيرًا من المجالات التي تحتاج إلى اجتهاد جديد ليس ناشئًا عن تطبيق أنظمة غير إسلامية، بل هي من ثمار تطور الحياة والمجتمعات في العصور الحديثة، وخصوصًا بعد ثورة التكنولوجيا، وقفزات البيولوجيا، ووثبات علم الطب والجراحة، وثورة الاتصالات والمعلومات، وغزو الفضاء، وصنع «الكومبيوتر» ... إلخ، مما أثار مشكلات لا تعد، تحتاج إلى حلول، وأسئلة لا تحصى، تحتاج إلى إجابات.

فهل يسعنا أن نصمت ونغلق أفواهنا، حتى يحكم الإسلام مائة في المائة، أم نجتهد لبيان موقف الشرع من هذه المستجدات، وأجرنا على الله؟

أعتقد أن واجبًا علينا أن نجتهد في هذه المجالات وتلك، محاولين أن نجلي موقف الإسلام في غير غلو ولا تفريط، ولا حرج علينا إن أخطأنا في محاولاتنا، فسيوجد من يهديه الله للصواب، ولن تجتمع هذه الأمة على الضلالة، والاجتهاد من أهله – ولو أخطأ – خير من الجمود وإبقاء كل شيء على ما هو عليه، فالجمود موت والاجتهد حياة، والمجتهد مأجور، والجامد غير معذور.

أما عبارة «خذوا الإسلام جملة أو دعوه» فهي صحيحة إذا رُفعت شعارًا في وجه من يقول: نأخذ بعض الإسلام ونرفض بعضه الآخر، مثل: نأخذ بالصلاة، ولا نأخذ بالزكاة، نأخذ بتحريم الميتة والدم، ولا نأخذ بتحريم الخمر والميسر، نأخذ أحكام الأسرة، ولا نأخذ أحكام الحدود ... هكذا، فمثل هؤلاء نقول لهم ما قاله الله تعالى لبني إسرائيل: **{أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ**

بِبَعْضٍ} [البقرة: 85].

بيد أننا ننبه على أن الاجتهاد في عصرنا له مزالق كثيرة، انزلق إليها كثيرون، ولم ينج منها إلا الراسخون في العلم، الذين يجمعون بين الثقة والورع والاعتدال.

كما أن الاجتهاد الصحيح المنشود له معالم وضوابط يجب أن يحرص عليها من وضعته الأقدار في موضع من يجتهد أو يفكر للمسلمين.

وقد تحدثت عن هذه الضوابط، وتلك المزالق، بالتفصيل اللازم، في مقام آخر[9].

أما إذا وجد إنسان مسلم غريق في المحرمات، ويريد أن يتوب من بعضها، وإن بقي مصرًا على بعضها، الآخر، فتوبته مقبولة كما قرر ذلك أئمة الإسلام، مثل الغزالي وابن القيم وغيرهما، ولا يُشترط في التوبة أن تكون من جميع الذنوب، وإلا لحجرنا ما وسع الله تعالى.

ومثل هذا يقال في المجتمع المسلم، الذي يريد أن يتطهر من بعض الموبقات التي ورثها من عهود سابقة، ويريد أن يتقدم خطوة نحو التطبيق الكامل للإسلام، فنحن نرحب بهذه الخطوة، ونطالب بالمزيد.

ومثل ذلك لو حدث عدوان على البقية الباقية من تشريع الإسلام في مجتمعنا مثل قوانين الأسرة والميراث والوصية والوقف وغيرها، فإذا حاول الحكام تقليصها أو الاعتداء على شيء منها، فلا يمكن أن نقابل ذلك بالصمت

---

(9) انظر: فصل (معالم وضوابط لاجتهاد معاصر وقويم) من كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية».

والاستسلام، مبررين ذلك بهذه الدعوى الغربية: إما الإسلام كله، وإما لا شيء!

ولا أنسى أن أقرر هنا أن الاتجاه إلى رفض الاجتهاد في قضايا المجتمع، واتهام الذين يفتون الناس في هذه الأمور بالهزيمة النفسية إنما هو فرع عن أصل كبير، هو القول بجاهلية المجتمع الحالي، فليس هو بالمجتمع الإسلامي الذي نبحث له عن حلول لمشكلاته، بل يجب أن ينصب بحثنا وعملنا على دعوته إلى عقيدة الإسلام قبل كل شيء، حتى يفهم معنى «لا إله إلا الله» ويصح إسلامه.

ومن أجل هذا أنكر هذا الاتجاه الدعوة إلى محاسن النظام الإسلامي، وبيان مزاياه وفضائله في مقابلة الأنظمة المستوردة من الشرق أو الغرب؛ إذ لا معنى لبيان النظام والعقيدة مفقودة.

* ويمكن أن يتفرع عن القضية السابقة قضية أخرى هي: أن بعض المسلمين اليوم يرى ضرورة إرجاء الاجتهاد في الفرعيات، والمشكلات التي تعترض المسلمين حتى تقوم الدولة الإسلامية التي تلتزم الإسلام عقيدة وشريعة في شئونها كلها، إلى درجة يخشى معها التنازل عن بعض الأحكام الشرعية الواقعة ضمن تكليف الأفراد.

** طالما سمعت مثل هذه الأفكار، وعجبت منها! فالفقيه المسلم لا يسعه أن يسأل عن شيء يقع لمسلم – وعنده علم يستطيع أن يجيب به – ثم يصمت ويدعه في حيرته، ويكتم عنه علمه، والحديث يتوعد من فعل ذلك بعذاب الله تعالى: «**من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»،

والشريعة لا تقف عاجزة أمام أي قضية، سواء وجدت دولة الإسلام الكاملة أم لم توجد، فلا بد لها من حكم على أي فعل لكل مكلف، في أي حال كان، ولا يخلو عمل لمسلم مكلف من حكم شرعي من الأحكام الخمسة.

ولو أن مسلمًا يعيش في غير دار الإسلام، فإن أحكام الشريعة لا تدعه، لا بد أن تبين له الحلال والحرام والواجب والمستحب والمكروه من تصرفاته حيث كان.

ولا يمكن أن نمنع الفلك من الدوران حتى تقوم الدولة الإسلامية، ولا أن نسقط عن الناس فرائض الإسلام وواجباته حتى تقوم تلك الدولة، بل على المسلم أن يؤدي منها كل ما قدر عليه في نفسه وأسرته ومن حوله **{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ}** [التغابن: 16] فهو يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج البيت، ويدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدافع عن حرمات الإسلام، ويقاوم المبطلين ... وكلها يحتاج إلى جهاد واجتهاد.

وأعتقد أن الدولة الإسلامية لن تقوم إذا ظل كل همنا هو انتظارها، وإرجاء كل اجتهاد أو جهاد حتى تقوم، فهي «مهديُّنا» الغائب المنتظر، الذي لا حيلة لنا في ظهوره.

إن الواجب في رأيي هو العمل المستمر، والاجتهاد، والإعداد حتى تقوم الحياة الإسلامية المتكاملة المنشودة، ولو اجتهدنا وأخطأنا فلا ضير علينا؛ فلكل مجتهد نصيب.

* * *

خطاب التكليف ونصيب الفرد

* لا شك أن الكثير من الأحكام الشرعية منوط بوجود السلطة الإسلامية، كقضايا الحرب والسلم، وإيقاع العقوبات من حدود وتعزيرات وما إلى ذلك مما لا يخفى.

والسؤال المطروح هنا: هل يجوز للأفراد – حال غياب السلطة الإسلامية – ممارسة ذلك بأنفسهم، من جَلْد ورجم وقطع؟

وما مدى ما يمكن أن يترتب على ذلك من مفاسد؟

وإذا كان ذلك مما لا يجوز، فما نصيب الفرد من خطاب التكليف، مثلًا قوله تعالى: **{وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا}** [المائدة: 38]، وقوله: **{ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا}** [النور: 2]، **{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ}** [المائدة: 33] ... الآيات.

هل يمكن أن نقول بأن نصيب الفرد هو العمل على إقامة السلطة التي تنفذ الأحكام، وليس تنفيذ الأحكام؟

** ليس للأفراد أن يقوموا بأنفسهم بإيقاع العقوبات الشرعية على من اقترف الجرائم الموجبة لها، فليس لهم أن يقطعوا يد السارق، أو يجلدوا الزاني أو يجرموه، أو يجلدوا شارب الخمر، ويقتصوا من القاتل، وغير ذلك.

فقد جعل الشرع هذه الأشياء للأئمة، أي لأولي الأمر، أو للدولة، ولو تُرك ذلك للأفراد لأصبح الأمر فوضى، وساد الاضطراب، ونصب بعض الناس من نفسه شرطيًا وقاضيًا ومنفذًا.

صحيح أن المسلمين جميعًا مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ أحكام الله تعالى بمقتضى خطاب التكليف العام لهم جميعًا في مثل قوله تعالى: {فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا} [المائدة: 38]، {فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ} [النور: 2]، {فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ} [النور: 4] ... إلخ، فهذه الأوامر الإلهية ليست للحكام والمنفذين وحدهم، بل للأمة كلها.

فإذا قصر أولو الأمر في تنفيذ الأحكام الشرعية، أو خانوا الأمانة التي ائتمنوا عليها. فعلى الأمة أن تنصح لهم، وتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، لعلهم يستجيبون، وإلا لزم سلوك كل طريق مشروعة حتى يقوم أمر الله، وتعلو كلمته، على ألا ننسى هنا القاعدة التي تقول: لا يجوز أن يزال المنكر إذا خيف منكر أكبر منه، والواجب هنا: ارتكاب أخف الضررين، وأهون الشرين.

ولهذا كان صحيحًا ما قيل: إن نصيب الفرد في هذه الحالة هو العمل مع العاملين الصادقين لإقامة السلطة التي تنفذ الأحكام، وليس هو تنفيذ الأحكام.

* * *

تقنين الفقه

* من المفروض أن هناك فرقًا بين الفقه كأحكام اجتهادية متفرقة، وبين التقنين والقانون كضوابط ومقاييس تمكّن القاضي من العدالة أكثر، وتضبط الأقضية، وتحقق الانسجام، خاصة إذا كان القاضي بعيدًا عن القدرة على الاجتهاد ومعرفة المصادر والمراجع كلها، أو غير قادر على الإحاطة بالآراء الفقهية، ولا يمتلك القدرة على الترجيح والانتقاء بما يناسب الواقع، فهل ترون ضرورة تقنين الفقه لضبط القضاء؟

وما موقع ذلك من الاجتهاد؟

** عرضت لهذا الموضوع في بحثي «الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد» وبيَّنت أهمية التقنين لعالمنا اليوم، وأشرت إلى مخاوف بعض العلماء من التقنين، وكيف يمكن أن نتفاداها، إذا أحسنَّا وضع الأسس والضوابط التي يقوم عليها التقنين المعاصر.

ولكن قرأت في هذه القضية من قريب كلمات مضيئة لعالم كبير، ومحدِّث جليل، هو العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله في محاضرة له بعنوان: «الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر» ألقاها منذ نحو نصف قرن من الزمان.

ويسرني أن أسجل هنا ما ذُكر في هذا الصدد لقوة حجته، وفصاحة عبارته، قال رحمه الله في بيان الخطة العملية لاقتباس القوانين من الشريعة:

«لا تظنوا أني حين أدعوكم إلى التشريع الإسلامي أدعوكم إلى التقيد بما

نص عليه ابن عابدين أو ابن نُجيم مثلًا، ولا إلى تقليد الفقهاء في فروعهم التي استنبطوها غير منصوصة في الكتاب والسنة، وكثير منها فيه حرج شديد. كلَّا؛ فأنا أرفض التقليد كله ولا أدعو إليه، سواء أكان تقليدًا للمتقدمين أم للمتأخرين، ثم الاجتهاد الفردي غير منتج في وضع القوانين، بل يكاد يكون محالًا أن يقوم به فرد أو أفراد، والعمل الصحيح المنتج هو الاجتهاد الاجتماعي، فإذا تُبُودلت الأفكار، وتداولت الآراء، ظهر وجه الصواب، إن شاء الله.

فالخطة العملية، فيما أرى: أن تُختار لجنة قوية من أساطين رجال القانون وعلماء الشريعة، لتضع قواعد التشريع الجديد، غير مقيدة برأي، أو مقلدة لمذهب، إلا نصوص الكتاب والسنة، وأمامَها أقوال الأئمة وقواعد الأصول وآراء الفقهاء، وتحت أنظارها آراء رجال القانون كلهم، ثم تستنبط من الفروع ما تراه صوابًا، مناسبًا لحال الناس وظروفهم، مما يدخل تحت قواعد الكتاب والسنة، ولا يصادم نصًّا، ولا يخالف شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة.

فهذه اللجنة يجب أن تكون موفورة العدد، يكون منها لجنة عليا، تضع الأسس وترسم المناهج، وتقسم العمل بين لجان فرعية، ثم تعيد النظر فيما صنعوا ووضعوا، لتنسيقه وتهذيبه، ثم صوغه في الصيغة القانونية الدقيقة، فيُعرض كاملًا على الأمة، ليكون موضع البحث والنقد العلمي، حتى إذا ما استقر الرأي عليه، عُرض على السلطات التشريعية، لإقراره واستصدار القانون للعمل به.

وأول ما يجب على اللجنة العليا عمله، أن تدرس – بنفسها أو باللجان

الفرعية – مسائل علم أصول الفقه، ومسائل علم أصول الحديث «مصطلح الحديث» لتحقيق كل مسألة منها، وتوحيد منهج الاستنباط من الأدلة، فتحقق المسائل التي يرجع فيها لدلالة الألفاظ على المعاني في لغة العرب، من نحو الحقيقة والمجاز، والعام والخاص، والصريح والمؤول، والمفسر والمجمل، وسائر قواعد الأصول، كأبواب القياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وما إلى ذلك.

وتحقق القواعد في نقد رواية الحديث ورواته، من ناحية المتن وناحية الإسناد، وما يكون به الحديث صحيحًا يصلح للاحتجاج ويجب الأخذ به، وما يكون به ضعيفًا لا يصلح للاحتجاج.

وتحقق القاعدة الجليلة الدقيقة، التي لم يحققها أحد من العلماء المتقدمين – فيما نعلم – إلا أن القرافي أشار إليها إشارة موجزة في الفرق السادس والثلاثين من كتاب «الفروق» - (جـ 1 – ص 249 – 252 طبعة تونس) وهي الفرق بين تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتوى والتبليغ، وبين تصرفه بالإمامة، وبين تصرفه بالقضاء، وهو بحث أساسي لدرس الأحاديث والاستدلال بها درسًا صحيحًا، فيفرق به بين الأحاديث التي لها صفة العموم والتشريع، وبين الأحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرفًا منه بالإمامة، فليست لها صفة العموم والتشريع، بل المرجع في أمثالها إلى ما يأمر به الإمام من المصالح العامة، وبين الأحاديث في أقضية جزئية، تصرفًا منه صلى الله عليه وسلم بالقضاء، فيكون الحديث عن قضية بعينها، يُستنبط منه ما يُسمى في عصرنا «المبدأ القضائي».

وقد حققت مثالًا من مُثُل هذه القاعدة العظيمة في شرحي على كتاب

«الرسالة» للإمام الشافعي (ص 240 – 242).

وأجل عمل وأعظمه أثرًا أن تحقق اللجنة باب «تعارض الأدلة والترجيح بينها» فذلك هو علم الأصول على الحقيقة، وذلك هو ميدان الاجتهاد، وذلك هو أساس الفقه والاستنباط.

فإذا تم هذا، ووُجدت القاعدة التي يُبنى عليها الاستدلال والاستنباط، نُظر في القواعد العامة التي يرجع إليها الفقهاء في فقههم، على اختلاف مذاهبهم، وطبقت عليها قواعد الأصول التي أقرتها اللجنة العليا أو اللجنة العامة، «أصول الفقه وأصول الحديث» ثم وُزنت بميزان الكتاب والسنة الصحيحة، وأُخذ منها ما قام الدليل على صحته وموافقته للتشريع الصحيح.

ثم تدرس اللجنة القواعد العامة للقوانين الوضعية، على اختلاف مبادئها وأنواعها، وتزنها بميزان القواعد التشريعية الإسلامية، فتختار منها ما تقضى المصلحة العامة باختياره، مما لا يعارض نصًّا من نصوص الكتاب والسنة، ولا يُناقض شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة، ولا قاعدة أساسية من قواعد التشريع الإسلامي.

وبعدَ هذا كله، بعدَ أن تستقر القواعد التي تستنبط الفروع والمسائل على أساسها، وتوضع الموازين الصحيحة البيِّنة، حتى لا تتشعب الطرق بالمجتهد، تُقسم أبواب الفقه بين اللجان الفرعية، لتطبق فروع المسائل وجزئياتها على القواعد التي أُقرت، وتضع لها الأحكام الصحيحة التي تقتضيها الأدلة الصحيحة نصًّا أو استنباطًا.

وهذا عمل كبير ضخم، لا يضطلع به إلا العلماء الأفذاذ المخلصون، من

علماء الشرع وعلماء القانون، فيجب أن يسمو اختيارهم على الرغبات الشخصية والأهواء الحزبية، وما إلى ذلك مما قد يُفسد الاختيار أو يضعفه.

وسيدعوهم هذا العمل إلى أن يفرغوا له وحده، فلا يجوز أن يُعهد إلى أي واحد منهم بعمل غيره، حتى يكون وقتهم كله وقفًا عليه، ليسير على وتيرة واحدة، سيرًا حثيثًا موصلًا إلى الغرض المقصود منه في أقرب وقت وأوجزه. وسيدعو إلى اختيار عشرات كثيرة من الأعضاء والمساعدين، ولعله مع كل هذا لا يتم في أقل من عشرين سنة». اهـ.

وقد قامت جهود متعددة في أكثر من بلد إسلامي وعربي لاقتباس القوانين من الشريعة، ووضعت بعض أحكام الفقه في صورة مواد قانونية.

ولكن هل روعي فيها ما ذكره الشيخ من أعمال تتعلق بأصول الفقه وأصول الحديث، وتحقيق رواية الحديث، وبيان التشريعي العام من السنة من غيره، وتمحيص قواعد التعارض والترجيح، إلى آخر ما ذكره الشيخ الجليل، مما قدر له عشرين سنة أو تزيد؟

أعتقد أن قليلًا ممن يعملون في ميدان التقنين هم الذين يلتفتون إلى مثل هذه الأمور، ولعل المجامع الفقهية المعاصرة تجمع أمرها على القيام بهذا الواجب، الذي لا يحتمل التأخير.

* * *

قيادة حركة الشباب

* من الاجتهادات الضرورية والمطلوبة اليوم، إيجاد أوعية شرعية لحركة الشباب المسلم .. فهل ترون أن الذين يقودون هذا الشباب لا بد لهم من التحقق بالقدرة على الاجتهاد والترجيح، بمعنى أنه لا بد لهم من مؤهل فقهي إلى جانب المؤهلات القيادية الأخرى؟

** هذا هو الأصل في كل قيادة إسلامية؛ أن يكون لديها قدر كافٍ من الفقه في الدين، والعلم بالشريعة، تعرف به ما يصح وما لا يصح من الأفكار، وما يجوز وما لا يجوز من الأفعال. وبدون هذا يمكن أن يقع هؤلاء القادة أسارى لمفاهيم دخيلة على الإسلام، متسللة من الغرب أو الشرق، وهم لا يشعرون، ويمكن أن يورطوا شبابهم في أعمال يظنونها جائزة – وربما واجبة! – وهي مرفوضة بالمعيار الشرعي.

وقد رأينا بعض القيادات لبعض التجمعات الإسلامية تقدم تصورات وأنظمة باسم الإسلام، في مجالات السياسة والاقتصاد والحكم، تحمل روح التزمت والحرفية والجمود على ما قاله بعض المتأخرين من فقهاء المذاهب مما يلائم زمنهم وبيئتهم وحالهم، ولكنه لا يلائمنا بحال، ونسي هؤلاء أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعُرف والحال.

وكذلك رأينا من هؤلاء مَن ينقصه «فقه مراتب الأعمال» ووضع كل عمل في مرتبته الشرعية، بحيث لا يعظَّم الهين، ولا يهوِّن العظائم، ولا يقدَّم ما حقه التأخير، أو يؤخر ما حقه التقديم، ولا يقدم الفرع على الأصل، ولا النافلة على الفريضة، ولا المختلف فيه على المتفق عليه.

* * *

تعديل شرائط الاجتهاد

* في عصر تقدمت فيه الطباعة، وأُلغيت فيه المسافات، وشاعت المعرفة، وظهرت الموسوعات في شتى العلوم العامة – إلى جانب العلوم الشرعية الأصولية واللغوية – وتوفرت هذه الأمور جميعها.

هل ترون شيئًا من التعديل بشرائط المجتهد بعد هذه الإضافات التي لم تكن موجودة سابقًا والتي أصبحت تقوم في كثير من الأحيان مقام الذاكرة في الحفظ؟

وهل بإمكاننا القول بأنه يكفي تحقق الملكة والقدرة على النظر، حيث تكفلت المكتبة اليوم بالأمور الأخرى التي كان لا بد من حفظها ومعرفتها؟

** الأصوليون أنفسهم الذين ذكروا الشروط التي يجب توافرها في المجتهد، ذكروا لها أيضًا «مخففات» تجعل تحصيلها غير عسير، حتى في الزمن الماضي.

فالإمام الغزالي في كتابه الشهير «المستصفى» بعد أن ذكر شرط المعرفة بكتاب الله، بيّن أن فيه تخفيفين:

أحدهما: أنه لا يشترط معرفة جميع الكتاب، بل ما يتعلق بالأحكام منه.

والثاني: أنه لا يشترط حفظها عن ظهر قلب، بل أن يكون عالمًا بمواضعها، بحيث يطلب فيها الآية المحتاج إليها في وقت الحاجة.

وكذلك في شرط معرفة السنة – الأصل الثاني للأحكام – قال: وفيها التخفيفان المذكوران؛ إذ لا يلزم معرفة ما يتعلق من الأحاديث بالمواعظ

وأحوال الآخرة ونحوها.

والثاني: لا يلزم حفظها عن ظهر قلب، ويكفيه أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة إلى الفتوى، وإن كان يقدر على حفظه فهو أحسن وأكمل.

هذا ما قاله الغزالي منذ تسعة قرون أو تزيد، ولا شك أن عصرنا يمنحنا قدرات أكبر، وبهذا تكون لدينا تخفيفات أكثر.

المهم هو التكوين العلمي الأصيل، الذي يُمكِّن صاحبه من القدرة على فهم الكتاب والسنة، وذلك بهضم المعارف اللغوية والأصولية اللازمة لحسن الفهم، والإحاطة بمقاصد الشريعة وكلياتها، ووجود الملكة الأصيلة التي يقتدر بها على استنباط الحكم المناسب للواقعة، وهذه الملكة لا تولد من فراغ، بل من قُدرة فطرية موهوبة، تمدها معارف مكتسبة، ومعايشة طويلة وعميقة للنصوص الجزئية والمقاصد الكلية معًا.

هذا إلى جوار معرفة مستنيرة للعصر والبيئة والحياة، وسنن الله فيها، وما يمور في باطنها من أفكار وتيارات، وما يحدث على ظاهرها من أعمال وتصرفات.

فالفقيه الذي يعيش بين الكتب وحدها، مترهبًا في صومعة القراءة والمطالعة، بعيدًا عن دنيا الواقع، ومشكلات الناس، يخشى ألا يقع اجتهاده في موقعه الصحيح.

* * *

الاجتهاد الأكثر ضرورة

* أعتقد أن الاجتهاد في مجال العبادات قد بلغ مداه وأكثر، ولم تبق فيه استزادة لمستزيد، وأن المطلوب اليوم الاجتهاد في مجال المعاملات خاصة المعاملات المستحدَثة.

يضاف إلى ذلك ضرورة الانتفاع من الإنجازات العصرية في مجال الإدارة نظام المالية والحكم والتقدم في مؤسسات تحقيق الشورى.

فهل يقع هذا ضمن دائرة الاجتهاد المطلوب اليوم والأكثر ضرورة؟

** من المسلَّم به أن مجال العبادات لا يحتاج إلى كثير من الاجتهاد، ولكن لا نسلم أنها ليست في حاجة قط إلى الاجتهاد.

وقد قسمتُ الاجتهاد المطلوب لعصرنا إلى نوعين: إبداعي إنشائي، وترجيحي انتقائي.

فالأول: مطلوب لبيان الرأي في المسائل الجديدة التي لم يعرفها فقهاؤنا السابقون.

والثاني: مطلوب لاختيار أرجح الآراء من تراثنا الفقهي العريض، وأليقها بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

ولا ينكر أي عالِم له بعض الإلمام بالفقه أن الاجتهاد بالمعنى الثاني محتاج إليه في كل مجال – حتى مجال العبادات نفسها – لكثرة الاختلاف بين الفقهاء والمذاهب فيها.

وما أحوج المثقف العصري إلى شيء يريح ضميره من الخلاف الذي

ليس أهلًا لأن يفصل فيه، بل يحتاج إلى مَن يذكر له القول المختار بدليله، ليطمئن قلبه، ويعمل به.

على أن هناك أشياء في مجال العبادات تحتاج إلى نوع من الاجتهاد الإنشائي أيضًا، مثل تحديد وقت صلاة العشاء وصلاة الفجر في بلاد معينة يطول فيها النهار جدًّا ويقصر الليل جدًّا، وقد يحدث العكس، وكذلك الصوم في رمضان.

ومثل استخدام الحساب الفلكي في إثبات أوائل الشهور العربية، وبخاصة رمضان وشوال وذو الحجة، بناء على أن الأمة لم تعد «أمية» كما كانت من قبل، فقد أصبحت تكتب وتحسب ... إلخ، ومثل الإحرام لركاب الطائرات بعد النزول إلى جدة ... إلخ.

فإذا جئنا إلى الزكاة – وهي معتبرة في عداد العبادات، بل هي شقيقة الصلاة – وجدنا أنها في حاجة إلى الاجتهاد الإنشائي والانتقائي معًا، وهو ما حاولناه في كتابنا «فقه الزكاة».

ولا يزال كثير من موضوعاتها يُعرض على المجامع الفقهية، وقد أُلفت في الكويت الشقيقة هيئة شرعية عالمية لقضايا الزكاة المعاصرة، شرفتني أن أكون نائبًا لرئيسها.

ومع هذا يبقى المجال الأكبر والأوسع للاجتهاد هو مجال المعاملات وشئون الحياة المتطورة: اقتصادية وسياسية وإدارية، ولا مانع من الاستفادة مما عند غيرنا مما يتفق مع قيمنا وعقيدتنا وشريعتنا وتقاليدنا المحمودة، فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها .. المهم ألا نفقد هويتنا، ولا

نحاكي محاكاة الببغاء، أو نقلد تقليد القردة.

* * *

التخلص من الازدواجية

* يلحظ الإنسان لونًا من الازدواجية – دون التعرض لأسبابها الكثيرة – التي قد يكون في مقدمتها: نظام التعليم.

فنرى أن هناك علماء متخصصين في المصارف والمالية والإدارة مثلًا، يفتقدون الرؤية الإسلامية الشمولية، ونرى بعض المشتغلين بقضايا الفقه والشريعة لا يمتلكون القدر الكافي من العلوم الأخرى، الذي يمكنهم من الحكم على الأشياء؛ بل قد يتجاوز الأمر ذلك، فيفتي في الدين مَن لا علم له بالشريعة، ويقول في العلوم مَن لا اختصاص له، كالكلام في علوم الأحياء والأجنة، والفلك وما يتفرع عن ذلك.

كيف يمكن أن ننظر إلى هذه الأمور؟ وما هو السبيل للتخلص من هذه الازدواجية التي نلمحها اليوم في أكثر من مجال؟

** سيظل الناس مختلفين باختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم، وخصوصًا في عصرنا الذي عُرف بأنه عصر التخصص الدقيق جدًّا.

ولا ريب أن الانحصار في التخصص كثيرًا ما يؤدي إلى التقوقع، وإغلاق الأبواب على النفس، وجهل ما عند الآخرين جهلًا كليًّا، وهذا ما تحاول بعض الجامعات الحديثة تفاديه؛ بطرح بعض المقررات المشتركة لجميع طلابها من كل التخصصات نظرية وعملية، حتى توجد بينهم قاسمًا مشتركًا من الثقافة والنظرة الموحدة للقضايا الكبرى.

والخطر على كل حال ليس في التخصص، إنما في الازدواج الذي يفرز

أناسًا لا يعرفون من الدين شيئًا، وآخرين لا يعرفون عن ثقافة العصر شيئًا.

وأعتقد أن هذا اللون من الازدواج الصارخ قد بدأ يختفي إلى حد كبير.

والذي يهمنا تأكيده هنا هو وقوف كل فرد أو فريق عند حدود علمه، ولا يخوض فيما لا يحسنه، ويرجع في كل علم إلى أهله وخبرائه، كما قال تعالى: **{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}** [فاطر: 14]، **{فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا}** [الفرقان: 59].

كما يجب أن يتعاون أهل العلم – على اختلاف تخصصاتهم – فيما يخدم دينهم، ويصلح دنياهم.

وقد شاركت في تجربة رائدة نافعة تقوم بها المنظمة الإسلامية العالمية للعلوم الطبية في الكويت برئاسة الأخ الفاضل الدكتور عبد الرحمن العوضي، وهي تجمع عددًا من الفقهاء المعتبرين، مع عدد من الأطباء المرموقين، للبحث في بعض القضايا المهمة، مثل الإجهاض، وبنوك الحليب، وبداية الحياة ونهايتها ... إلخ. ويتولى الأطباء شرح هذه الموضوعات بكل ما يحيط بها من ظروف، ويبدأ الفقهاء في محاولة استنباط الحكم بعد المناقشة المستفيضة التي تنتهي بقرار مجمع عليه أو مختلف فيه، أو يؤجل البت إلى دورة أخرى.

وقريب من هذا ما يحدث في المصارف الإسلامية، فنحن في هيئة الرقابة الشرعية، لا نفتي في المعاملات التي تعرض علينا؛ إلا بعد شرح وتوضيح وتفصيل من إدارة المصرف والمسئولين فيه، وبعد أخذ ورد، وبحث قد يطول، ننتهي إلى الرأي الذي نراه أرجح وأقرب إلى الصواب.

* * *

منجزات الأمم الأخرى

* نتكلم كثيرًا عن ضرورة الانتفاع بمنجزات الأمم الأخرى – شرط أن يخضع ذلك لمقياس سليم في الأخذ والرد – وكيف أن سلفنا استطاعوا في عصر تألقهم من الانتفاع بعطاء الأمم الأخرى.

هل تعتقدون أن الأمم المختلفة قادرة على استخدام هذا المقياس؛ الذي هو في الحقيقة، ثمرة لتقدم علمي وحضاري، هذا إلى جانب أنه لو كنا نمتلك هذا المقياس لما كنا فيما نحن فيه من السقوط الحضاري؟

كيف ترون حل هذه القضية؟

** لقد استفادت أمم دوننا في الحضارة بمنجزات الأمم الأخرى، كما في بلاد الشرق الأقصى، ولم تفقد خصائصها الذاتية، وحسبنا «كوريا» التي بدأت نهضتها بعد الحرب العالمية الثانية، وهي اليوم تغزو بمنتجاتها أسواق العالم، وتراها اليابان اليوم أخطر منافس لها.

إننا لسنا دون هؤلاء، وعندنا من رصيدنا الثقافي والحضاري ما يجعلنا أهلًا لأن ننتفع بما عند الآخرين دون أن نذوب فيهم.

الشيء المهم هنا أن نصل إلى درجة كافية من وضوح الرؤية لما نأخذ وما ندع، ومن صدق العزم على تغيير الواقع.

ولا يعين على ذلك إلا إيمان صادق يحرك كوامن الأمة، ويفجر طاقاتها المذخورة، ويدفعها إلى الأمام بقدرات لم يحسب لها أحد حسابًا.

وأي تجاهل لهذا الإيمان المستكن في ضمير الأمة، أو إهدار له، أو افتئات

عليه، إنما هو خيانة لهذه الأمة، وتضليل لها عن أهدافها، وسير بها في متاهات لا تنتهي بها إلى مستقر، ولا تهتدي معها إلى طريق.

إن الأمة في حاجة إلى قيادة مبصرة، تدرك أن قضايا التقدم والتنمية والعلم والتكنولوجيا، لا تنفصل عن قضايا الإيمان والأخلاق، وإن الأمة التي لا رسالة لها، لا تستطيع أن تنافس الأمم الأخرى، التي تشعر أن لها رسالة حضارية، وخصوصًا، إذا كانت متفوقة عليها.

إن المفتاح في أيدينا، ولكنَّا لا نستعمله، أعني مفتاح الإيمان، إيمان الإسلام الحق، الذي لا تتغير الأمة بغيره، فهو وحده الذي يغيرها من داخلها، ومن أعماقها.

* * *

العين السحرية

* يرى بعضهم أن الفقهاء والمجتهدين في الدين يجب أن يكونوا أشبه بالعين السحرية التي تراقب عملية الإنتاج، وتحكم على جودته أو رداءته، وليس بإمكانهم الإنتاج نفسه لعدم تخصصهم في العلوم الأخرى، والعصر اليوم عصر تخصص، فما رأيكم بهذا الأمر؟

** هذا قاله المفكر الجزائري المرحوم مالك بن نبي فيما أذكر، وهو صحيح في بعض المقامات التي يحتاج فيها الفقيه إلى خبرة المتخصص الآخر، كما ذكرت في مجال المستجدات في الطب والمستجدات في الاقتصاد.

ولكن في بعض المقامات قد يحدث العكس، ونجد الفقيه البصير يقترح على الآخرين ما قد يحل بعض المشكلات، أو يطب لبعض الأدواء من صيدلية الشريعة.

وأذكر أن الفقهاء هم الذين اقترحوا على الاقتصاديين والماليين البدائل الشرعية للمعاملات الربوية المحرمة، من مثل المضاربة والمشاركة والمرابحة وغيرها.

كما أن بعضها كان من مقترحات الإداريين والماليين.

وأيًّا كان المبادرة من الفريقين، فالذي يحتاج إليه الجميع هو التفاهم والتعاون بالرأي والجهد، على ما فيه خير الإسلام والمسلمين.

* * *

فقه المعركة .. وفقه الأوارق

* طرح بعض الكتاب والعاملين في إطار الحركة الإسلامية، قضية هامة – في نظرنا على الأقل – وهي أن هناك فقهًا يسمى فقه المعركة، أو فقه الحركة، ويُقصد به الفقه الميداني الذي تكسبه التجارب والمعاناة، مستهديًا بقوله تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ} [التوبة: 122].

وأن هناك فقهًا نظريًا بعيدًا عن المعاناة، لا يخرج عن كونه تصورات مجردة لا قيمة علمية لها، أسماه: فقه الأوراق، ما رأيكم بهذه القضية؟ وما الحدود الفاصلة بين فقه المعركة وفقه الأوراق؟ وهل هذه التفرقة دقيقة؟

** «فقه الأوراق» هذا – إن صحت التسمية – ليس فقهًا، وليس اجتهادًا حقيقيًا، الفقه الحق، والاجتهاد الحق هو الذي ينطلق من معايشة الناس، ومعرفة ما هم فيه، والفقيه الحق هو الذي «يزاوج بين الواجب والواقع» كما يقول الإمام ابن القيم، فلا يعيش في دائرة ما ينبغي أن يكون، غافلًا عما هو كائن وواقع بالفعل، إن «فقه الدين» لا يمكن أن ينفصل عن «فقه الحياة»، وهذا هو «الفقه القرآني».

فالفقه في نظر القرآن يشمل الفقه في أمر الله وشرعه، كما يشمل الفقه في سننه في خلقه، ولهذا وصف القرآن المشركين والمنافقين بأنهم: {قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} [التوبة: 127].

وقال بعد أن ذكر بعض آيات الله في الكون: {قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: 98].

فالفقه هنا أعمق وأوسع من مجرد معرفة الأحكام الشرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية؛ إنما هو إدراك بصير يربط أحكام الله في شرعه بعضها ببعض، ويربط قوانين الله في أرضه بعضها ببعض، ولا يكتفي بالنظر إلى السطوح دون الأعماق.

ويزداد هذا الإدراك عمقًا بالخوض في معترك الحياة، والصراع مع الفراعنة والطغاة، والدخول في أتون الابتلاء والمحن، الذي ينفي الخبث، ويصقل المعادن، ويميز الخبيث من الطيب.

لقد مر شيخ الإسلام ابن تيمية مع بعض أصحابه على قوم من جنود التتار يشربون الخمر ويلهون بأقداحها سكارى مخمورين، فأنكر عليهم بعض مَن معه، فقال له الشيخ: دعهم في سكرهم، فإنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس، ونهب الأموال!

وهذا هو الفرق بين «الفقيه الحرفي» أو ما سميته «فقيه الأوراق» وبين فقيه الحياة أو فقيه الميدان والمعركة، الأول أنكر المنكر الذي رآه دون اعتبار للمقصد والواقع، والثاني نظر إلى الواقع في ضوء المقاصد، فقال ما قال.

لقد رأينا فقهاء الأوراق، يقاتلون على أشياء يمكن التسامح فيها، أو الاختلاف عليها، أو تأجيلها إلى حين، ويغفلون قضايا حيوية مصيرية، تتعلق بالوجود الإسلامي كله، وهؤلاء قوم قد لا ينقصهم الإخلاص، ولكن ينقصهم الفقه، ولئن جاز تسميتهم «علماء» فلا يجوز تسميتهم «فقهاء» لو كانوا يعلمون.

* * *

التآكل من الداخل
أكبر خطر يهدد الصحوة(10)

في مسيرة الأمة «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فقدموا لنا الفعل المنتج الذي أسهم في صنع تاريخها والتأثير في حاضرها وتحديد ملامح مستقبلها وظلت بصماتهم واضحة على هويتها وكينونتها مع تعاقب الأجيال والسنين.

هؤلاء الرجال كانوا فرسانًا في ميادينهم ومشاعل نور إضاءة الطريق للقادمين بعدهم ليسيروا على دربهم وينهجوا نهجهم ويكملوا المسيرة من بعدهم.

وفي هذا الزمان المتلاطم الأمواج العظيم التحديات نجد أننا دومًا في حاجة إلى هؤلاء الرجال القدوة نستلهم قيمهم ونقتفي آثارهم ونبحث عن المخرج من مأزق الأمة وسط أوراقهم.

وفي محاولة للتلاقي مع فكر وعطاء هؤلاء .. قامت «عكاظ» بإجراء استبيان لاختيار أهم ثلاثين شخصية خدمت الإسلام خلال القرن الماضي .. وقد شارك في هذا الاستبيان ثلاثة وخمسون عالمًا ومفكرًا من كافة أنحاء العالم الإسلامي حيث قام كل واحد منهم بترشيح أهم الشخصيات من وجهة نظره .. وقد تمخض الاستبيان عن اختيار هؤلاء:

الدكتور يوسف القرضاوي العالم والفقيه والمفكر والداعية الإسلامي

---

(10) نشر في جريدة «عكاظ» بتاريخ الجمعة 13 رمضان سنة 1411 هـ (29 مارس سنة 1991م). أجرى الحوار الأخ صالح عبد الفتاح.

المعروف .. أحد الرجال الذين جندوا حياتهم في سبيل الله عاملين لنشر الإسلام داعين إلى الإيمان والتمسك بحبل الله.

فهو فقيه معلم .. فقه الناس في أمور دينهم وصحح مفاهيم مغلوطة كثيرة علقت بعقيدتهم وكادت أن تفسد عليهم دينهم.

وهو خطيب ألهب العواطف وأنار العقول وغرس في نفوس الأجيال قيم الإسلام وتعاليمه.

وهو قدوة في فكره ومنهجه، تتمثل فيه الاستقلالية في الفهم، وعدم التبعية وبذل الجهد الخارق لمواجهة التيارات الهدامة، ودفع العمل الإسلامي إلى الأمام انطلاقًا من كتاب الله العظيم وسنة رسوله الشريفة.

وهو مجتهد .. ناقش بجرأة أحكامًا ومواقف وسيرًا قصد من ورائها تصحيح المفاهيم السائدة، والرد على المغلوط فيها، لتقديم الإسلام في أكمل وجه، وإيضاح أوجه الخلل والتأكيد على أن المواقف وظروف الواقع قد توجب أحكامًا تختلف في ظروف ومواقف أخرى .. فلا عصمة إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا انطلق الدكتور القرضاوي في سن مبكرة داعيًا إلى الإسلام، وباحثًا متعمقًا، ودارسًا واعيًا، ليقدم الأنموذج للداعية المتميز.

وفي هذا الحوار يحكي الدكتور القرضاوي رحلته مع الدعوة الإسلامية وهمومها وواقعها في العصر، ويطرح أفكاره قابلًا ورافضًا، ومتفقًا ومنتقدًا .. ناهلًا في كل ذلك من معين الإسلام الذي لا ينضب.

* * *

يتيم مكرَّم

* لتسمح لنا يا شيخ في البداية أن نلقي نظرة من القرب على حياتك ونشأتك!

** أنا من مواليد قرية «صفط تراب» التابعة لمركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية في جمهورية مصر العربية .. ولدت عام 1926 في أسرة متدينة رقيقة الحال حيث يعمل أهلي بالزراعة .. وقد توفي والدي وأنا في الثانية من عمري، ورباني عمي الذي أحاطني بالرعاية الشديدة هو وأبناؤه الذين وجدت فيهم العوض الكبير، فلم تعترضني أية مشاكل في طفولتي، بل وجدت عناية ورعاية وحنانًا وحبًا ومودة من أقاربي عامة.

وعندما بلغت الخامسة من عمري التحقت بكُتَّاب القرية لأحفظ القرآن الكريم، وفي السابعة دخلت المدرسة الإلزامية التابعة لوزارة المعارف ودرست فيها الحساب والتقويم والتاريخ والصحة وغيرها.

وأتممت حفظ القرآن في العاشرة من عمري حفظًا مجوِّدًا، وبعدها كان الناس يقدمونني لأؤمهم في الصلاة فحُرمت من وقت مبكر من اللعب، وفرص المرح التي قد يستمتع بها الصغار.

وعندما أنهيت دراستي بالمدرسة الإلزامية كنت أتطلع إلى ذلك اليوم الذي أصبح فيه عالمًا، ولكن عمي تردد في البداية، معتقدًا أن طريق العلم شاق وطويل، ونصحني أن أتعلم حرفة توفر لي أسباب العيش من أقصر طريق، لكنني أصررت على مواصلة مسيرة العلم والتحقت بمعهد طنطا الديني حيث بقيت فيه أربع سنوات، ثم انتقلت للمعهد الثانوي الذي استمرت فيه الدراسة

خمس سنوات .. ورحلت بعدها للقاهرة حيث درست في كلية أصول الدين، وحصلت على الشهادة العالمية عام 1953 وكنت الأول على دفعتي، والتحقت بتخصص التدريس في كلية اللغة العربية، وحصلت على العالمية مع إجازة التدريس، وحزت المرتبة الأولى من بين خمسمائة طالب من كليات الأزهر الثلاث، ثم التحقت في عام 1957 بمعهد البحوث والدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية وحصلت منه على دبلوم عالٍ في شعبة اللغة والأدب كما حصلت بعد ذلك على (الدكتوراة) بمرتبة الشرف من كلية أصول الدين.

* * *

القراءة والاحتكاك بالعلماء

* الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي .. هل تعتقد أن التعليم الرسمي مثلما ذكرت مسيرتك معه كاف لتأهيل الداعية؟

** لا .. ليس وحده، بل إن مَن ينصب نفسه أو يعدها لأمانة العلم والدعوة عليه أن يستكمل تكوين شخصيته .. ولذلك لم أقتصر على الدراسة الرسمية في الأزهر وطفقت أقرأ كلما استطعت أن أقرأ .. أشتري الكتاب وأحيانًا أستعيره أو أذهب إلى دار الكتب منذ أن كنت في المرحلة الابتدائية واتجهت في قراءاتي الأولى للأدب والشعر .. وشغلت بالشعر وشغفت به فترة غير قليلة، وقرأت في الإسلاميات والتفسير والحديث والفقه والكلام والفلسفة والتصوف والتربية والعلوم والتاريخ والعلوم الإنسانية.

ومما ساعدني في هذه الناحية اتصالي المبكر بدعوة الإخوان المسلمين والتعرف على مؤسسها الأول الشيخ حسن البنا، والاستماع إليه منذ السنوات الأولى في الدراسة في معهد طنطا، وهذا فتح لي بابًا واسعًا غير باب التلقي الرسمي من المشايخ.

فقد تعرفت على الإسلام الشامل، وزاد اهتمامي بقضايا الأمة، وهموم الدعوة، ومشاكل المجتمع .. وأتاح لي ذلك خطاب مجموعات متنوعة ومتباينة من الناس غير تلك المجموعات التي كنت أخاطبها في القرية .. وأمدني ذلك بزاد كبير من الخبرة والتجربة في ميدان الدعوة ومجال التربية.

* * *

بين الغزالي وابن تيمية

* البعض تعتريهم التحولات في حياتهم .. فهل هناك تحولات في حياة الدكتور القرضاوي أم أن درب الحياة كان يسير في اتجاه واحد منذ البداية؟

** خطي الأساسي لم يتغير كثيرًا؛ لأن الله أنعم عليَّ بأن أربط هذا الخط بالإسلام، معرفة به وحبًا له وغيرة عليه، وجهادًا في سبيله وسعيًا في خدمة قضاياه.

ولكن بحكم التوسع في المعرفة والتعرف على المدارس الفكرية المختلفة يمكنني أن أقول إنه قد اعتراني بعض التحول .. فقد كنت في مطلع شبابي شديد الإعجاب بالإمام أبي حامد الغزالي، وكانت كتبه أول ما قرأت، خصوصًا «إحياء علوم الدين» و«منهاج العابدين».

وبعد أن أتيح لي الاطلاع على مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيره، وجدت فيها ألوانًا من التجديد لم تكن في مدرسة الإمام الغزالي واعتبرت أن هذه المدرسة تكمل السابقة .. وبينهما تكامل لا تضارب، وتناسق لا تنافر .. وهذا لعله نهج لي في مساري الفكري، فأنا لا أتعصب لمدرسة بعينها، ولا لشيخ بعينه، بل أنظر إلى الجميع نظرة مَن يأخذ من كل واحد خير ما عنده، على نهج ما قال بعض السلف الصالح: «خذ ما صفا ودع ما كدر».

* * *

البنا أستاذي ومعلمي

* هناك عدد من الشخصيات تؤثر في حياة الإنسان .. فمَن هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على فكر الدكتور القرضاوي؟

** أعظم الشخصيات التي أثرت في فكري ومشاعري وسلوكي هي شخصية الإمام حسن البنا، فقد استمعت إليه مبكرًا في حياتي، وأعجبت به ورأيت فيه الأستاذ والمعلم والمربي والداعية والمفكر، ولهذا تلقفت تقريبًا كل ما كتبه من رسائل ومقالات وبيانات ونهلت منها، ووجدت فيها زادًا ونبراسًا.

وهناك شخصيات أخرى تأثرت بها مثل الشيخ البهي الخولي صاحب كتاب «تذكرة الدعاة»، وكذلك الشيخ محمد الغزالي مد الله في عمره، والدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ محمود شلتوت رحمهما الله .. ولكن الله أكرمني، فلم أحاول أن أكون نسخة من واحد من هؤلاء الأفذاذ.

* * *

لماذا نحن الضحية دومًا؟

* لننطلق قليلًا إلى العموميات ونتساءل: هناك العديد من المعوقات والتحديات التي تواجه العمل الإسلامي .. فكيف يرى فضيلتكم هذه المعوقات وأثرها السلبي؟

** هناك معوقات كثيرة أمام العمل الإسلامي .. بعضها معوقات خارجية والأخرى داخلية .. ولقد اهتممت بهذا الأمر مدة طويلة ورصدت بعض هذه المعوقات في كتابي «الحل الإسلامي فريضة وضرورة»، وركزت على العوائق الداخلية؛ لأنني وجدت أننا تحدثنا طويلًا عن المعوقات الخارجية، ومخطط الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، والشيوعية الدولية، ووجدت أننا نلقى دائمًا التبِعة على هذه المخططات، لكن هذا لا يمثل عذرًا لنا؛ لأنه يثير تساؤلًا مفاده: لماذا نظل دائمًا ضحية تخطيط غيرنا، ولا نخطط لأنفسنا؟ لماذا نظل دائمًا الفريسة وهم الصيادون؟ ينبغي أن نبحث في أنفسنا وعن الخلل فينا ..

والقرآن الكريم يشير إلى هذا في تعقيبه على غزوة أحد إذ يقول الله سبحانه وتعالى: **{أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ}** [آل عمران: 165].

لا بد أن يبحث الإنسان في داخل نفسه عن السبب الذي جعله لا يصل إلى ما يحقق النصر الذي يبتغيه، ولا عيب في هذا، فالإنسان معرض للنجاح والفشل، والنصر والهزيمة .. لكن المهم أن يتدارك أخطاءه أو خطاياه، ويحاول أن يجعل يومه خيرًا من أمسه.

* * *

خلل في فقه الأولويات

وبعد توقف يعود فضيلته مرة أخرى إلى الحديث عن المعوقات الداخلية .. ويقول:

ينبغي أن نركز على العوائق الداخلية؛ فهناك خلل في فقه الأولويات، فقد نُقدم النافلة على الفريضة، وقد نُقدم فرض الكفاية على فرض العين، وقد نُقدم فرض العين الذي يتعلق بالفرد على فرض العين الذي يتعلق بالجماعة.

وكذلك فقه السنن التي أقام الله عليها هذا الكون.

وقد ذكرت في كتابي «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» أن هناك قواعد في الفقه يجب أن نهتم بها مثل فقه المقاصد العامة للشريعة، وفقه السنن الكونية والاجتماعية، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات. أي نميز بين ما يأخذ رقم 1 وما يأخذ رقم 10 في أمور الدين والحياة، وذكرت أن الإسلام بضع وسبعون شعبة أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، فلا ينبغي أن نجعل الأعلى أدنى والأدنى أعلى.

* * *

الصحوة تتآكل من الداخل

ولا زال الحديث للدكتور القرضاوي الذي يضيف قائلًا:

«كذلك فقه الاختلاف وكيف تختلف آراؤنا ولا تختلف قلوبنا، وكيف يمكن أن يكون لكل منا رأيه واجتهاده، دون أن يؤدي ذلك إلى عداوة ولا بغضاء .. كيف نستطيع تطبيق هذه القاعدة الذهبية التي نادى بها العالم الجليل الشيخ محمد رشيد رضا: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

هذه أشياء مهمة يجب أن نتخطاها سواء من حيث الشكل أو الخلل في الترتيب أو في التكوين أو من حيث استعجال الثمرة قبل أوانها، ومن حيث التشتت الذي يعانيه العاملون في حقل الدعوة، فقد أصبحوا مدارس متفرقة وليتهم مدارس في الرأي والفكر، ولكنهم جماعات ينفر بعضها من بعض، ويجافي بعضها البعض، بل يعادي بعضها البعض .. وهذا يجب أن يزال من واقع الأمة، وينبغي أن نلتفت إلى هذه الآفات؛ لأنها هي التي تعين القوى المعادية للإسلام على ضرب الصحوة الإسلامية من داخلها، وبذلك تتآكل الصحوة من الداخل قبل أن تُضرب من الخارج».

* * *

ثمار طيبة للصحوة

* بصفتكم أحد المعاصرين للعمل الإسلامي، فكيف ترون خطوات التحرك نحو تحقيق الغاية الكبرى من تمكين الإسلام في نفوس المسلمين والعمل به؟

** العمل الإسلامي أنتج .. ومن الظلم أن نقول إنه لم يحقق شيئًا؛ لأن هذا يصيبنا بالإحباط، ولا يقدم إجابة صحيحة للواقع؛ لأننا نشهد الآن داخل وخارج العالم الإسلامي صحوة إسلامية نلمس آثارها وثمارها، وهي صحوة العقول التي تحاول أن تفهم الإسلام، وصحوة القلوب والمشاعر المتدفقة بالحب للإسلام والغيرة على قضاياه، وهي صحوة الالتزام والعمل، يتمثل في هذه المساجد العامرة وفي الحرص على أداء الحج والعمرة، وفي الالتزام بالحجاب الإسلامي بعد أن كان شيئًا نادرًا بل وشاذًا في الحياة الإسلامية قبل عقود قليلة.

فلا شك أننا نلمس آثار الصحوة الإسلامية التي تجسدت في الجهاد الأفغاني وصموده أمام أكبر قوة إلحادية في التاريخ .. وكذلك أثر الصحوة داخل الاتحاد السوفييتي، والانتفاضة الفلسطينية التي سميت في أول الأول «ثورة المساجد» وحملت المصاحف وجعلت شعارها «لا إله إلا الله والله أكبر» وجعلت أنشودتها: «خيبر خيبر يا يهود .. جيش محمد سيعود».

هذه الانتفاضة لا شك أنها من ثمار الصحوة، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الحركة الإسلامية قد آتت أكلها، واستطاعت إلى حد كبير أن تصنع إنجازًا عظيمًا يتمثل في هذا التوجه الإسلامي الذي يغلب على أي توجه آخر في

بلدان كثيرة.

فهناك آثار ينبغي ألا نهون منها، بل إنها رد عملي على تلك المكايد الضخمة والخفية التي يدبرها أعداء الإسلام الذين يملكون الخبرة والرجال والأدوات والمال والعتاد .. ومع كل هذا استطاع الإسلام أن ينتج شيئًا.

* * *

هذا ما نخاف منه

ويستدرك الدكتور القرضاوي قائلًا:

«لكن كل ما نخافه على الصحوة الإسلامية هو ما أسميناه (التآكل من الداخل) والانشغال بالقضايا الجزئية عن القضايا الكلية، والاستغراق في المختلف فيه وترك المتفق عليه».

* * *

عين للإسلام وعين للعصر

* لا يخفى عليكم أن الدعوة الإسلامية هي واجب الإنسان المسلم في كل زمان وعصر .. فكيف ترون ملامح الدعوة في هذا العصر الذي تقدم فيه الإنسان وخطا خطوات واسعة على الأرض؟

** يجب أن ننظر إلى الإسلام بعين، وإلى العصر ومشكلاته بعين أخرى، فلا نغفل أصول الإسلام ولا نتجاهل مشكلات وقضايا العصر، وليس معنى أننا ننظر إلى قضايا العصر أن نطوع الإسلام للعصر، ولكن أن نطوع العصر للإسلام.

وقد سئلت لماذا لا يتطور الإسلام؟ فقلت: ولماذا لا يسلم التطور؟ .. وهذا يعني أن ينقاد العصر للإسلام .. ولكن أي الإسلام هو؟ إنه الإسلام من مصادره الأصلية ومنابعه الصافية .. الإسلام كما كان يفهمه الصحابة رضوان الله عليهم واتبعته بإحسان المدارس الإسلامية الأولى، ليس الإسلام المتسيب، وليس الإسلام المتشنج المتشدد؛ لأن بعض المسلمين أصبحوا أثقالًا على الناس في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء لرفع الأثقال عن الناس، ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: 157].

الإسلام الذي نتطلع إليه هو الإسلام الذي يجمع الأمرين: الدين والعصر، وهذا لا يعني أننا نريد أن نميع الإسلام ونجعله عجينة للتشكيل لكل من هب ودب، ولكل من يدعي الاجتهاد وهو لم يحط بالقرآن والسنة ولم يدرس أصول الفقه ولم يتذوق اللغة وليست عنده الملكة التي تجعل منه الفقيه المجتهد .. لأن أمثال هؤلاء ليسوا مجددين وإنما مبددون.

نحن نريد الفهم الصحيح للإسلام وأن يتحول هذا الفهم إلى طاقة إيمانية للإسلام، فنحن لسنا مستشرقين ندرس الإسلام فقط، لكن الإسلام عقل ذكي وقلب نقي.

نحن نريد العقل المتوقد، والعاطفة الدافقة، والإرادة الدافعة، والعمل الملتزم والخلق القوي، فهذه هي الشخصية التي نريدها، وإذا فعلنا ذلك نكون قد سرنا على الطريق الصحيح.

* * *

هؤلاء خدموا الإسلام

* سؤال أخير .. ما هي أهم الأعمال التي خدمت الإسلام في هذا العصر من وجهة نظركم؟

** لا يمكن أن نقول إن هناك عملًا فكريًّا أو دعويًّا واحدًا؛ فهناك عدد كبير من العلماء والمفكرين أعطوا للإسلام .. ومن هؤلاء الإمام محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتفسير المنار الذي جمع بين السلفية والتجديد والأصالة والمعاصرة ودعا إلى الاجتهاد الصحيح وحارب العصبية والتقليد .. والعلامة محب الدين الخطيب صاحب الفتح والزهراء .. وهناك علماء أجلاء آخرون مثل الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ أبي الأعلى المودودي، والشيخ حسن البنا، والشيخ مصطفى السباعي، والشهيدين عبد القادر عودة، وسيد قطب، والشيوخ محمد الغزالي، وسيد سابق، وأبي الحسن الندوي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، ومحمد قطب، وآخرون في المغرب العربي مثل: ابن باديس، والبشير الإبراهيمي .. فكل هؤلاء قدموا للإسلام وخدموه، وكتاباتهم في حاجة إلى القراءة الفاحصة البينة لتستفيد منها أجيال الشباب ولتشع آفاقها نحو مزيد من الفهم الواسع لهذا الدين العظيم.

* * *

الإسلام والعقلانية(11)

من القضايا التي كثر الجدل حولها: «علاقة الإسلام بالعقل» .. فقد ظهر تيار فكري يحمل لواء العقلانية، ويدافع عنها .. ويجعل من العقل حاكمًا .. لا يرد حكمه .. وانقسم حملة هذا اللواء فريقين في ظاهر الأمر أمام الدين عامة .. وأمام الإسلام على وجه الخصوص:

الفريق الأول: رفض الدين رفضًا تامًا، واتهم الفكر الديني بأنه فكر ديماجوجي، معطل للعقل قائم على الخرافة.

الفريق الثاني: تعامل مع الدين ولكن مقررًا أن العقل هو الحكم الفصل في قضايا الدين .. وأنه إذا تعارض النص مع العقل وجب إخضاع النص للعقل، مهما كان النص قطعي الدلالة والثبوت.

وكان علينا ونحن نستفتح هذا الملحق الديني الأسبوعي .. أن نضع هذه القضية في مقدمة القضايا الفكرية الإسلامية التي سنتناولها بإذن الله تعالى.

وكانت لنا تساؤلات حول العقلانية .. طرحناها على ضيوفنا.

سألناهم عن علاقة الإسلام بالعقل والعقلانية ..؟

وبماذا نبرر موقف دعاة العقلانية من الدين ..؟

وعن المناطق التي يجب على العقل ألا يرتادها بمفرده حتى لا يهلك؟

وكيف نوائم بين جنوح العقل وحكمة الشرع ..؟

---

(11) نشرت بجريدة «القطرية» بتاريخ 5يونيه سنة 1989م. أدار هذا الحوار الصحفي الأديب الشاعر د. رشدي إبراهيم.

وقد طرحنا القضية على فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي الذي تفضل ببيان أبعادها وإبراز كل جوانبها .. فقال:

«لا ينبغي أن تترك هذه الألفاظ هلامية مائعة رجراجة غير محددة الدلالة يستخدمها كل فريق فيما يؤيد مذهبه ووجهته وفلسفته في الحياة فينبغي أن يحدد المراد ..

فالعقل وما يشتق منه كلمة محببة للإنسان، لكن قد يفسرها بعضهم تفسيرًا غير مقبول ..

وما المراد بالعقلانية ..؟

العقلانية مصدر صناعي موجود في اللغة العربية زيدت فيه الألف والنون كالعلمانية .. وهي مشتقة من مادة العقل، ونحن المسلمين أولى الناس بتمجيد العقل وما يتفرع منه وما يصدره هذا العقل إذا استخدم العقل في مجاله وبحدوده وضوابطه.

أعظم قضيتين:

بل علماؤنا المحققون يقولون إن العقل عندنا أساس النقل؛ ومعنى هذا أننا نقيم النقل على أساس العقل؛ لأن العقل هو الذي يثبت لنا أعظم قضيتين من قضايا الدين ..

القضية الأولى:

قضية وجود الله سبحانه وتعالى، فهذه لا يمكن الدليل عليها من الوحي ولا من النقل .. إذا جادلني مادي أو شيوعي ملحد عن وجود الله لا أقول له: قال الله تعالى، وقال الرسول؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا بالرسول .. كيف أخاطبه

بقول الرسول وهو لا يؤمن بالمرسل نفسه .. لا بد أن أبحث معه القضية من جذورها بحثًا عقليًا فأقيم له الدليل على وجود الله بالعقل، وهذا ما يؤيده القرآن نفسه؛ لأن القرآن ذكر أدلة عقلية صرفة على وجود الله سبحانه وتعالى في مناقشته للمشركين والجاحدين من مثل قوله تعالى: **{أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ 35 أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ}** [الطور: 35، 36]».

ومضى فضيلة الدكتور القرضاوي يقول:

«فقضية إثبات الوجود الإلهي قضية عقلية .. صحيح هي قضية فطرية أيضًا، هي غريزة فطرية وضرورة عقلية، لا نستطيع أن نفسر الكون وما فيه من حياة وما فيه من إبداع وما فيه من تنظيم إن لم نقل بوجود إله خالق ومنظم ومبدع وراء هذه المخلوقات، قانون العِلّية أو السببية قانون فطري يجعلنا نقول لا بد أن وراء الصنعة صانعًا ووراء التنظيم منظمًا ووراء الحركة محركًا وهو ما عبر عنه الأعرابي حينما قال: «البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟! أفلا يدل ذلك على العلي القدير».

من أجل هذا نقول إن وجود الله سبحانه وتعالى دليله العقل».

القضية الثانية، إثبات النبوة:

وأضاف فضيلته: «ثم هناك قضية بعد ذلك بعد أن نثبت أن هناك إلهًا وربًا له صفات الكمال، هذا الرب العظيم الأعلى من حكمته ورحمته أنه لم يدع خلقه هملًا ولم يتركهم سدى ولم يخلقهم عبثًا، بل أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. كيف يثبت إمكان

الوحي ووقوع الوحي بالفعل ووجود الرسل وأن فلانًا هذا رسول مؤيد من عند الله .. هذه قضية عقلية، فلا تستطيع أن تثبت الوحي بنفسه لأن هذا دور .. وهذا باطل.

إذن لا بد أن تقيم الدليل على ثبوت الوحي بالعقل .. فثبوت النبوة، والرسالة لرسول معين، كيف نثبتها؟ كيف نثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ نثبتها بالعقل.

فالله أظهر على يديه من الآيات والبينات ما يقطع بأنه لا يتكلم من عند نفسه، ولا يمثل إرادته بل يمثل الإرادة الإلهية، وتلك هي المعجزة.

ولذا قال علماؤنا: دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عقلية، فالقرآن دلالته على صدق محمد صلى الله عليه وسلم دلالة عقلية.

فإذن القضيتان الكبيرتان: قضية وجود الله وقضية إثبات النبوة، هاتان قضيتان عقليتان ومن هنا قال علماؤنا: العقل أساس النقل».

القرآن يمجد العقل:

واستطرد فضيلة الدكتور القرضاوي قائلًا: «نحن إذن – نحن المسلمين – لا نخاف من العقل، بالعكس نحن نرحب بالعقل ولا يوجد في الدنيا كتاب أشاد بالعقل ونوَّه به مثل القرآن الكريم.

لا يوجد كتاب ديني فيه تمجيد لأولي الألباب .. ست عشرة آية في القرآن الكريم تتكلم عن أولي الألباب .. وهناك أحاديث عن أولي النُهى وذي حجر، ومادة: «عقل .. يعقل .. يعقلون» موجودة في القرآن بكثرة .. ثم الحديث عن الكتاب الذي يقول للناس: **{قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ}** [البقرة: 111] ..

{قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ} أي أن أي قضية لا تقبل بغير برهان.

ولذلك نجد القرآن ينشئ العقلية العلمية، ويحارب العقلية الخرافية التي تصدق أي دعوى تقال لها، العقلية العلمية التي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء، العقلية المقلدة: **{إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ}** [الزخرف: 23] هذا يرفضه القرآن سواء أكان تقليد الآباء أو تقليد السادة والكبراء **{إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠}** [الأحزاب: 67]. أو تقليد العوام من الناس: «**لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت**»، إنما يريد من الإنسان أن يفكر وأن يستخدم عقله لا عقل غيره، يفكر مع صديق له، أو يفكر مع نفسه، يخلو بنفسه ويفكر بعيدًا عما يسمونه: تأثير العقل الجمعي، وهذا ما أشار إليه القرآن حينما قال: **{قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ}** [سبأ: 46]، خصلة واحدة: أن تقوموا لله – أي مخلصين - في طلب الحقيقة مثنى مع واحد، أو فرادى مع نفسك، ثم تتفكروا في أمر نبوة محمد، ما بصاحبكم من جنة، لا يمكن أن يكون مثل هذا الإنسان صاحب الخُلق العظيم مجنونًا، فكروا فالإسلام يدعو إلى التفكر ويعتبر التفكر عبادة، وفي القرآن: **{أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}** [الأنعام: 50]، و**{لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ}** [يونس: 24] ... إلخ.

فالدعوى إلى التفكر .. إلى النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء: **{أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ}** [الأعراف: 185]، **{قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ}** [يونس: 101]، عملية النظر والتفكر .. دعوة إلى النظر والفكر .. الحملة على التقليد بكل أنواعه، على الجمود بكل صوره، الدعوة إلى إقامة البرهان .. القضايا

الحسية يستخدم فيها الحس: {أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ} [الزخرف: 19] .. الشيء الذي لم تشهده لا تحكم به، القضايا العقلية لا بد فيها من برهان عقلي .. القضايا النقلية والتاريخية لا بد فيها من برهان نقلي: {ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ} [الأحقاف: 4] .. هذه هي العقلية العلمية .. العقلية التي ترفض الظنون في مقام اليقين».

اليقين لا الظن:

ويمضي فضيلة الدكتور القرضاوي في حديثه قائلًا:

«في مجال تأسيس العقائد والحقائق لا بد من يقين لا يقبل الظن .. ولذلك نجد القرآن حمل على المشركين .. يقول: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ} [يونس: 36]، حمل على النصارى في اعتقادهم حول المسيح وصلبه قال: {مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ} [النساء: 157] .. الظن لا يغني من الحق شيئا .. رفض اتباع الظنون في مقام اليقين .. اتباع الأهواء والعواطف .. {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ} [النجم: 23]، {وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ} [القصص: 50].

هذه هي العقلية العلمية، فإذا كانت العقلانية بهذا المعنى .. هذا المعنى لا نقول يقبله الإسلام بل يرحب به، بل يدعو إليه بل يعتبره فريضة، يريد من الإنسان المسلم أن يكون ذا عقلية علمية عقلية ترفض الخرافات وترفض الأباطيل وترفض الأشياء بغير برهان من الله سبحانه وتعالى، فلا بد من هذه العقلية ولذلك نحن ليس عندنا ما عند أصحاب الأديان الأخرى من مثل قولهم: «اعتقد وأنت أعمى»، أو «أغمض عينيك ثم اتبعني»، أو «إن الجهالة أم

التقوى».

ليس عندنا شيء من هذا، بل لا بد أن يكون الإيمان عن بينة، والدعوة على بصيرة .. {أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ} [هود: 17]، {قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ} [يوسف: 108]، {أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ} [الزمر: 22] .. نريد المسلم الذي يحيا على نور، لا يعيش في ظلمات التقليد دون أن يدري شيئا من حوله، يلقَّن أشياء ولا يعرف أصلها من فصلها، لا ليس هذا هو الإسلام».

وفي الأسبوع القادم نستكمل – بمشيئة الله – حديث فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي.

* * *

الإسلام والعقلانية

نحن دعاة العقلانية .. ولكن![12]

في الأسبوع الماضي .. وفي حوارنا حول قضية «الإسلام والعقلانية» تفضل الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي ببيان أن أعظم قضيتين عقديتين – وهما وجود الله وإرسال الرسل – لا بد من إثباتهما بالعقل .. فالعقل أساس النقل كما يقول علماؤنا .. وأكد أن المسلمين أولى بتمجيد العقل إذا استخدم في مجاله.

واليوم نتابع مع فضيلة الداعية الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي الحديث حيث يقول فضيلته:

«نحن دعاة العقلانية .. نحن المسلمين دعاة العقلانية .. نحن نرفض الخرافات والأباطيل، ومن خلال هذه العقلية وفي ظلها قامت حضارة إسلامية شامخة جمعت بين العلم والإيمان .. بين العقل والنقل».

* بمناسبة العقل والنقل .. هل يقع تعارض بينهما، وكيف يمكن درء هذا التعارض؟

** لم ير علماؤنا إطلاقًا أي تعارض أو تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وقد ألَّف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا ظهر في عشرة أجزاء اسمه «درء تعارض العقل والنقل»، فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح مع نقل صحيح، وإذا رأيت تعارضًا فلا بد أن ما ظننته نقلًا ليس صحيحًا، أو ما ظننته عقلًا ليس صريحًا.

(12) نُشر في جريدة بالدوحة بتاريخ 12 يونيه سنة 1989م.

ويستطرد فضيلة الدكتور قائلًا: «لا يمكن لأن العقل أثر من آثار رحمة الله بالإنسان وفضله عليه، والنقل هو وحي الله للإنسان، فكيف تتعارض آثار الله بعضها مع بعض، لا يمكن أن يحدث التعارض إلا من الناحية الظاهرية الشكلية، لكن عند التأمل لا يمكن أن يوجد تعارض، ولا بد أن يكون هناك توفيق بين ما يُظن من التعارض أو أن أحدهما ليس صحيحًا.

فلذلك ليس عندنا مشكلة الدين والعلم، ما يسمونه بالتعارض بين الدين والعلم، أو بين العقل والنقل .. لا يوجد عندنا هذا إطلاقًا .. الدين عندنا علم والعلم عندنا دين .. الدين عندنا يقوم على أساس من العلم، وأول آية نزلت في كتابنا: **{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ 2 ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ 3 ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ 4 عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ 5}** [العلق: 1 - 5]. أول ما نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، مادة القراءة والعلم والتعلم والقلم، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين، وطلب العلم فريضة، سواء أكان علم دين أم علم دنيا، حتى علوم الدنيا، الإسلام اعتبر تعلمها فريضة كفائية إذا كان يحتاج إليها المسلمون».

متى يعزل العقل نفسه؟

ويضيف فضيلة الدكتور القرضاوي: «نحن المسلمين لا نعاني مشكلة عانتها النصرانية في المجتمع الغربي، مسألة التعارض بين العلم والدين، وقامت من أجل ذلك محاكم التفتيش وحرق العلماء، وحدث ما حدث، ليس عندنا شيء من هذا.

فإذا كانت العقلانية هي هذه فنحن كما قلنا: دعاة عقلانية، أما إذا كانت

العقلانية أن نرفض وحي الله عز وجل، أو نغلِّب باستمرار العقل على النص ولو كان النص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فهذا ليس من العقلانية في شيء؛ لأنه كما يقول الإمام الغزالي: إنه إذا ثبت وجود الله بالعقل وأثبتنا النبوة بالعقل، وأثبتنا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينطق عن الهوى، وأن القرآن كتاب من عند الله، إذا ثبت ذلك كله بالعقل – يقول الإمام الغزالي في هذا الوقت: عند ذلك يعزل العقل نفسه ويتلقى من الوحي.

العقل هو الذي أثبت صدق الرسالة وصدق الوحي وصدق القرآن، إذن على هذا العقل أن يعزل نفسه ويتلقى، فما ثبت أنه من الوحي على العقل أن يقول: سمعنا وأطعنا، وإلا حدث تناقض بين العقل ونفسه.

قد يأتي الدين بشيء فوق مستوى العقل، ولكنه لا يأتي بما يحيله العقل، فلا يأتي الدين بما يستحيل عقلًا وإنما بما يستحيل عادة، والاستحالة العادية أمر يتغير، كم من أشياء كانت مستحيلة في عادات الناس، تغيرت .. لو ذكرنا لأجدادنا منذ عشرات السنين ما يحدث الآن لقالوا: هذا جنون، أشياء كانت مستحيلة عادة أصبحت عادة نعايشها يوميًا».

أيها العقل .. قف هنا:

* فضيلة الدكتور .. على ضوء هذا هل هناك مناطق لا يجوز للعقل أن يجتازها، بمعنى أن عليه أن يقف منها موقف المتلقي؟

** قد قررنا أن الدين قد يأتي بما يستبعده العقل، ولكنه لا يأتي بما يحيله، فما يأتي به الدين من غيبيات تتعلق بالعالم غير المنظور، بالملائكة والجن والشياطين، بالعرش، بالكرسي، باللوح، بالقلم، ما يأتي به من أحوال الحياة

البرزخية: القبر وما فيه من نعيم وعذاب، أو أحوال الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وسؤال وميزان وصحف وصراط وجنة ونار، هذه الأشياء على العقل أن يسلم بها ما دام الوحي قد جاء بها.

فالعقل هنا عليه أن يسلم بهذه الأشياء إذا كان يحترم نفسه، وإلا كذب نفسه في تصديقه للوحي أولًا، ثم هناك أشياء ينبغي للعقل أن يسلم بها وهي ما كان مقطوعًا به من ناحية الثبوت ومن ناحية الدلالة.

ما كان قطعي الثبوت والدلالة فعلى العقل أن يسلم له، لا يقول العقل: لماذا نصلي في اليوم خمس مرات؟ ولماذا لم تكن ثلاثًا أو أربعًا؟ ولماذا كان بعض الصلوات ركعتين وبعضها ثلاثًا وبعضها أربعًا؟ ولماذا كان الركوع مرة واحدة والسجود مرتين؟ هذه الأشياء لا يستطيع العقل أن يفصل فيها، وقد شبهها الإمام الغزالي بالأدوية التي يصفها الطبيب للمريض، لا يستطيع المريض أن يفهم لماذا يجعل الطبيب هذا الدواء قبل الأكل وهذا بعد الأكل، وهذا حبة واحدة وهذا حبتين، شرح هذا لكل مريض فوق مستواه، والعبادات أشبه بأدويه روحية للإنسان، فعلى الإنسان إذا سلم بمعرفة الطبيب وخبرته أن يقول: إن هذا لا يخلو عن حكمة، قد يعرف بعضها، وقد يغيب عنه بعض آخر.

فهناك أشياء ينبغي أن نسلم بها كمجال الغيبيات ومجال العبادات، حتى الأحكام الشرعية، هناك أحكام قطيعة هذه لا ينبغي للناس أن يعملوا فيها عقولهم بزعم أنهم أدرى بمصالحهم .. لا، إنهم أدرى بمصالحهم ولكنهم ليسوا أعلم من رب العباد بالعباد: {قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ} [البقرة: 140]».

ويضيف فضيلة الدكتور القرضاوي قائلًا:

«كثيرًا ما سقط العقل الإنساني في ورطات عديدة، بعض الناس في وقت من الأوقات بعقولهم قالوا: لماذا لا نبيح البغاء، بدلًا من أن نترك الناس يزنون بعيدًا عن إشراف الدولة، لننظم الزنا، وليكن تحت إشراف الدولة، وأناس إلى الآن يريدون إباحة الخمور، وحتى مع اكتشاف العقل الإنساني لمضرة الخمر بالفرد وبالأسرة والمجتمع والاقتصاد ومضرتها بالعقل وبالأخلاق مع هذا يستسلم العقل أمام الهوى.

العقل في حاجة لمعين:

فالذين يريدون أن يُخضعوا النصوص لعقل الإنسان هؤلاء مخطئون ولا يمكن أن يترك العقل وحده، العقل في حاجة إلى معين كما بين ذلك الإمام محمد عبده في «رسالة التوحيد» حيث أشار في هذه الرسالة إلى أن العقل في حاجة إلى معين يعينه؛ لأنه أحيانًا تكتنفه أشياء تلبِّس عليه الأمور».

ويستطرد فضيلته قائلًا:

«وبقي في القضية مسألة مهمة وهي: إذا قلنا العقل فعقل مَن؟ عقل الخوص أم عقل العوام .. لقد رأينا الفلاسفة يختلفون بعضهم مع بعض إلى حد التناقض، هذا يثبت وهذا ينفي، هذا يبني وهذا يهدم، فمن معه الحق منهم: الفلاسفة المثاليون أم الواقعيون؟ الماديون أم الإلهيون؟ أي الفلاسفة؟ هذا رأيناه، فالعقول تختلف، رأينا العرب قبل الإسلام عقولهم أجازت لهم أن يئدوا البنات، الإنسان يئد ابنته، أي عقل هذا؟!

لذا نقول: إن العقل الإنساني وحده لا يؤمن أن يترك وحده، وإنما ينبغي أن

يؤيد وأن يصان بوحي الله تبارك وتعالى ليسدد خطاه ويعصمه من الزلل حتى يستمر في الطريق المستقيم، فالعقل بدون وحي معرض للخطأ والخطل والخطر كما رأينا الذين مشوا وراء عقولهم وحدها بعيدًا عن هدى الله تعالى، هذا ما ينبغي أن يُفهم في هذه القضية الكبيرة: قضية «العقلانية» بعيدًا عن الإفراط والتفريط».

* * *

عزة الإسلام بيد علمائه وشبابه
فهل يفعلون؟[13]

أثناء زيارته الأخيرة لدولة الإمارات، مدعوًا لإلقاء عدد من المحاضرات العامة والتخصصية، كان لقاء «الإصلاح» مع الأستاذ يوسف القرضاوي، عميد كلية الشريعة بقطر.

وحينما يجتمع فهم الفقيه وبيان الأديب وحرارة الداعية في شخص مثل الدكتور القرضاوي، فذلك يعني أن اللقاء معه كملاقاة البحر الزاخر بالدرر، إذا حددت زمنًا لجني لآلئه، ضاع منك الزمن، وفاتك من اللآلئ الكثير.

فإن للزمن عند الدكتور القرضاوي حسابًا آخر، فخلال الثماني والأربعين ساعة التي خصصها لزيارة الإمارات، كانت عقارب الساعة عدوه الأوحد في تحركاته ولقاءاته وأحاديثه، فدقة الفقيه علمته أن الوقت ثمين جدًّا، لكن حرارة الداعية أقنعته أن الدعوة بكلمة طيبة يهون أمامها كل ثمين.

لذلك وافق الدكتور يوسف القرضاوي على اقتطاع جزء من وقته المتسارع ليخص «الإصلاح» بهذا الحديث القيم.

* الملاحظ أن الحديث عن الصحوة الإسلامية بات يتصدر الكثير من الكتب والدراسات والمقالات التي يطرحها الكُتَّاب والمفكرون الإسلاميون اليوم، فما هي حدود هذه الصحوة، وما هي الإيجابيات والسلبيات التي تميزها؟

---

(13) نشر في مجلة «الإصلاح» في دبي (شوال سنة 1404 هـ - يوليو سنة 1984م).

** يراد بالصحوة الإسلامية حركة البعث الإسلامي الممتد في آفاق عالمنا الإسلامي، شرقه وغربه، عربه وعجمه، بل الممتد خارج هذه الحدود، إلى أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى، حيث نجد آثار هذه الصحوة في الجمعيات الطلابية والتجمعات الشبابية الإسلامية التي أثرت في كثير من شبابنا المهاجر للدارسة أو للعمل .. فهي موجودة في كل مكان، ولعل هذا ما حفز القوى المعادية للإسلام وأجهزتها الراصدة أن تخطط لضرب هذه الصحوة، وتؤلب القوى الخائفة والحاقدة داخل العالم الإسلامي للوقوف في وجهها.

ولهذه الصحوة مظاهر عديدة، تتجلى في الحركة الإسلامية الطلابية وفي الحركة الفكرية والثقافية، وعلى الصعيد العملي نجد صحوة إسلامية أيضًا في حركة البنوك الإسلامية، في المدارس الإسلامية، في الحركات والجماعات الإسلامية المختلفة، الجمعيات الإسلامية، المجلات والصحافة الإسلامية، هذه كلها تعتبر مظاهر إيجابية لهذه الصحوة، ولكن هناك بعض السلبيات، مثل: المبالغة في بعض الفروع التي ليست من أصول الإسلام ولا من صلبه ولا من فرائضه، وإقامة معارك جدلية من أجلها، ومقاتلة الآخرين عليها، والانشغال بالجزئيات عن الكليات، وبالقضايا الجانبية عن المعارك المصيرية والكبرى، وسوء الظن بالآخرين سوءًا يؤدي في بعض الأحيان إلى تفسيقهم أو تبديعهم أو تكفيرهم، مع عدم رعاية الوجه الآخر من الفكر والرأي، كل هذا يسبب بعض السلبيات التي نراها في الصحوة الإسلامية، وهذه قد يغذيها بعض المعادين للإسلام لتظل الحركة الإسلامية مشغولة بهذه الفروع الجانبية عن القضايا الكبيرة، ولتظل الجماعات العاملة مشغولة

بعضها ببعض فتتآكل من الداخل فضلًا عن ضربها من الخارج.

* * *

استقامة الطريقة ومعرفة الزمان

* إذن، هل تعتقد أن هذه الصحوة بهذه السلبيات والإيجابيات تواكب في مسيرتها الزمن مقابل مسيرة الجاهلية وقوى الشر والكفر الأخرى؟

** لا شك أن قوى الشر والكفر الأخرى تملك من القدرات والإمكانيات ما لا تملكه الصحوة الإسلامية، وعند هذه القوى من الطاقات المادية ما يفوق إمكانياتنا، لقد أصبحوا يستخدمون العلم في كل شيء، ودخل الكمبيوتر إلى صفهم في الصراع، بينما نحن مع الأسف لا نملك للآن مركز معلومات «أرشيف» كاملًا للعاملين للإسلام ولا المعادين له، وهذا يدل على مدى عجز العاملين للإسلام إلى الآن، إنهم يحتاجون إلى تخطيط وتنظيم على مستوى العصر، نعم .. نحن نملك مقابل هذه طاقات أخرى معنوية؛ لأننا أصحاب العقيدة الصحيحة والرسالة الخاتمة، ونملك أعظم رسالة في الوجود، وعندنا تراث عظيم لا تملكه أمة من الأمم، وعندنا رصيد الفطرة في قلوب المؤمنين، وعندنا وعد الله تعالى بالنصر لمن آمن به وعمل لدينه، عندنا هذا كله، ولكن ينبغي أن يكون عندنا أيضًا التخطيط والتنظيم على مستوى عصرنا، ورحم الله امرءًا عرف زمانه واستقامت طريقته، لا بد من الأمرين: استقامة الطريقة ومعرفة الزمان والعصر ومتطلباته، وأعتقد أن الوعي بهذا أصبح قائمًا، والشعور بالنقص هو بداية طريق الكمال كما يقولون.

* * *

يجب أن نتحمل المسئولية

* هل تعتقد أن هذا النقص والتخلف المادي يعود سببه إلينا نحن أم إلى القوى الخارجية؟

** نحن نعتقد أن للقوى الخارجية دورًا، ولكني لا أقر نوع التفكير الذي يريد أن يرجع كل شيء إلى القوى الخارجية المعادية للإسلام، وإذا كانت هناك قوى أخرى تخطط لنا فلماذا نظل كذلك ولا نخطط لأنفسنا؟ نحن أيضًا مسئولون.

* * *

نتعاون فيما اتفقنا عليه

* عند الحديث عن الصحوة الإسلامية تبرز بشكل لافت للنظر قضية تعدد الجماعات الإسلامية العاملة في ساحة الدعوة، دون أن يختفي الاختلاف وربما التنافر الذي يفصل بعضها عن بعض في أحيان كثيرة، هل تعتقد أن ظاهرة التعددية ظاهرة صحية، وما هو المفهوم الصحيح الذي يجب أن يسود بين هذه الجماعات لتوظيف طاقاتها مجتمعة في خدمة مصلحة المسلمين كافة؟

** التعددية ظاهرة مفروضة فرضها غياب فريضة كبرى من فرائض الإسلام، فإذا عدنا إلى الصدر الأول – عهد النبوة المطهرة وعهد الخلافة الراشدة التي أجمع عليها المسلمون – فلا نجد إلا جماعة واحدة تحت قيادة واحد هي جماعة المسلمين تحت إمامة واحدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تحت إمامة الخليفة الراشد من بعده، وظل العمل للإسلام على هدي جماعة واحد تحت إمامة راشدة واحدة حتى اختلفت الخلافة الراشدة المبايعة ببيعة شرعية من مسلمي الأرض، فقام أعلام الدعاة المصلحون المخلصون بالدعوة إلى العمل من أجل الإسلام ومن ثَم نشأت الجماعات وتعددت.

أي أنه لا تعدد في الجماعات الإسلامية إذا كان المسلمون يعيشون تحت سلطان خلافة راشدة انعقدت ببيعة شرعية، أما اليوم وقد غابت الخلافة عن حياة المسلمين فعلى الجماعات الإسلامية أن ينسق بعضها مع بعض، وأن يكون هناك قدر من التفاهم والتعاون بينها، وأن يعي الجميع خطورة الموقف الذي نحن فيه، وخطورة القوى التي تعادي الإسلام وتعمل على تدمير

المسلمين، يجب أن نتفق عليها.

ونحن نعرف القاعدة المشهورة – قاعدة المنار الذهبية التي وضعها السيد رشيد رضا رحمه الله، وتبناها الإمام الشهيد حسن البنا – وهي قاعدة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، وإذا كان المرء مجتهدًا فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، وينبغي أن يكون شعارنا: «إن رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، والصواب والخطأ كلاهما يؤجر الإنسان فيه، فالمخطئ معذور بل مأجور أجرًا واحدًا، هذه هي العلاقة التي ينبغي أن تكون بين العاملين في الجماعات الإسلامية المختلفة إذا صحت النيات، إنما إذا وجد الهوى، ووجدت أحقاد شخصية، فهذا هو الخطر، وهذه هي الثغرة التي يدخل منها خصوم الإسلام، ومع الأسف يمكن أن تستغل جماعة من بعض القوى لضرب جماعة أخرى ثم يضرب الجميع في النهاية.

* * *

بين الشباب والعلماء

* في كتابك الأخير «الصحوة الإسلامية» تحدثت عن ظاهرة إعراض الشباب عن العلماء، وذكرت بالتفصيل أسباب ذلك، ونود أن تحدثنا عن علاج هذه المعضلة، والدور الموكول إلى العلماء في تذويب هذا الحاجز بينهم وبين الشباب أولًا، ومن ثَم النهوض بهم إلى المستويين العلمي والنفسي المطلوبين.

** علاج ذلك ذو شقين، شق يتصل بالعلماء، وشق يتصل بالشباب، فالعلماء عليهم أن يصححوا موقفهم أيضًا، فلقد أعرض الشباب عن كثير منهم لما رأى فيهم عدم الاهتمام بالإسلام، ورأى فيهم التقرب من سلاطين الجور، والوقوف مع السلطة في الحق والباطل، ورآهم سراعًا إلى موائد الظلمة، رآهم يعرضون عن الشباب ولا يقولون كلمة حق، رأى هؤلاء انشغلوا عن الدين بالدنيا، بل عن العلم نفسه، حتى إن كثيرًا منهم لم يكون نفسه التكوين العلمي الصحيح بحيث يستطيع أن يفهم الدين والحياة، ويعرف قضايا العصر وما تستحقه، فعلى هؤلاء أن يصححوا موقفهم، وعلى العلماء الذين رزقهم الله الفقه والإخلاص أن يقتربوا من الشباب وألا يبتعدوا بأنفسهم، فهناك الكثير من العلماء الطيبين، ولكنهم يؤثرون الهرب من المجتمع وما فيه، ويرون العزلة أسلم طريق .. في البعد عن الحكام والبعد عن الشعب نفسه، لكن الحل ليس في الفرار، وإنما أن يبحث أولئك عن الشباب للأخذ بيده وتسديد طريقه.

وعلى الشباب واجب آخر، عليهم أن يتواضعوا ويحترموا الاختصاص،

ويعلموا أنه سنة الله في الكون إذ جعل لكل علم أهله كما قال سبحانه: {فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا} [الفرقان: 59]، فلا بد أن يرجع الشباب إلى أهل الاختصاص، ومع الأسف – ونحن في عصر التخصص – نعترف بالتخصص في كل ناحية إلا في الناحية الشرعية والإسلامية، والدين وحده هو الذي أصبح كلأً مباحًا يفتي فيه من شاء!

وبعض الشباب يأخذهم الغرور، فمجرد أن قرأ بعض الكتب الدينية يظن أنه قد أصبح مفتيًا وقادرًا على أن يخطئ كبار الأئمة وكبار الصحابة أنفسهم، ويقول: نحن رجال وهم رجال! وهذه مشكلة السطحية، فنصف العلم يُفسد أكثر من الجهل، وكما قالوا: فإن أخطر الناس على الحياة نصف متفقه ونصف متطبب ونصف نحوي ونصف متكلم، فنصف المتفقه يفسد البلدان، ونصف المتطبب يفسد الأبدان، ونصف النحوي يفسد اللسان، ونصف المتكلم يفسد الأديان.

* ألا ترى – أستاذنا الفاضل – أن الإعراض يكون في كثير من الأحيان إعراضًا من الشباب عن سلوك العالِم وليس عن علمه؟

** هناك بعض الشباب يغالون في هذه الناحية، فقد يكونون محقين بالنسبة لسلوك بعض الذين يبيعون دينهم بدنياهم أو بدنيا غيرهم، لكن هناك بعض العلماء الذين يكون لهم ترخصات في بعض الأحيان بناء على فقه عندهم، ويجب معرفة هذا أيضًا، والمسائل الخلافية لا ينبغي أن تكون موضع إنكار، وعلماؤنا قالوا: لا إنكار في المسائل الاجتهادية، إنما العالم الذي يرتكب محرمًا صراحة أو يترك واجبًا لا شك فيه، فهذا يُرفض تمامًا، ومع هذا قد يستفاد منه وكما قيل:

فخذ بعلمي ولا تركن إلى عملي/ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

* * *

بين العلمانية والعقلانية

* تثار في هذه الفترة قضية العلمانية في مقابل الإسلام، ويحاول البعض الإيحاء بأن العلمانية هي العقلانية، هل من صحة لهذا الربط، ومن ثم هل من حدود بين الفكر العقلاني والفكر الديني في الإسلام؟

** من المهم في مثل هذه الأمور تحديد المفاهيم، وتبيان ما هي العلمانية فعلًا، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره. هناك بعض الناس يخلطون عن سوء فهم أو سوء قصد بين العلمانية والعلمية، لكن المعروف أن العلمانية أصبحت مصطلحًا معينًا ومحددًا، يعني فصل الدين عن الدولة، وعزل الدين عن الحياة، والقرآن عن السلطان.

وهذا أمر مرفوض؛ لأن الدولة التي لا إسلام لها لا يقبلها المسلم، والدين الذي لا دولة له لا يعرفه الإسلام، فهو يحتاج إلى حكم يطبق تعاليمه ويقيم حدوده، وإذا جاز الفصل بينهما في النصرانية لم يجز أبدًا في الإسلام، فعندهم: دَعْ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. أما نحن فلا نقبل هذه القسمة، ليس الإنسان عندنا مشطور شطرين، شطر لقيصر وشطر لله، وليست الحياة عندنا مقسومة قسمين؛ قسم للدين وقسم لدولة، والقسمان بل الحياة كلها والإنسان كله لله، وقيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد.

أما العلمية والعقلانية فأمر يرحب به الإسلام ويقوم عليه، وعلى هذا قامت الحضارة الإسلامية التي جمعت بين العلم والإيمان، دون أن تعرف صراعًا بينهما كما عرفته المجتمعات الأخرى، حتى قال علماؤنا: إن العقل أساس في معرفة النقل، فالوحي يعرف بالعقل، والمعجزات والآيات المثبتة للنبوة والتي

تدل على أن هذا رسول الله حقًا تعرف بالعقل، فأعظم قضيتين في الوجود يُعرفان عن طريق العقل: الألوهية والنبوة[14].

* * *

(14) راجع الحوار حول (الإسلام والعقلانية) ص 119، وما بعدها.

في السياسة الشرعية

* يساهم الإسلاميون بين حين وآخر، وفي بعض البلدان، في العمل السياسي العام ضمن مواصفات وشروط الأوضاع الراهنة التي لا تدين بالولاء التام للإسلام .. هل ترى في مثل هذه المساهمة إيجابية ومكسبًا للحركة الإسلامية، أم أن لك رأيًا آخر؟

** هذه الأمور تدخل في باب ما يسمى السياسة الشرعية، وهي باب واسع يشمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية وللجماعة الإسلامية والحركة الإسلامية .. وهي تقوم على أساس الموازنة بين المنافع والمضار، والمكاسب والخسائر، فلا ينبغي أن نقف من هذه الأمور موقف المتشنج الذي يرفض كل شيء، ولا موقف من يقبل أي شيء أيضًا، فإذا كان في قبول بعض هذه الأوضاع مصلحة للحركة الإسلامية والعمل الإسلامي جاز ذلك، والإسلام واسع الأفق في هذه الناحية، وقد رأينا النبي عليه الصلاة والسلام يحالف خزاعة في صلح الحديبية، واستعان عليه الصلاة والسلام بالمشركين في بعض الأحيان كما في غزوة حنين، فهناك إذن مَن يقفون معك وقد يكون منطلقهم ليس منطلقك، وهدفهم غير هدفك، لكنهم يتفقون معك في هدف مرحلي، وأنت تتفق معهم في حدود هذا الهدف.

والإنسان الناضج هو الذي يستغل التناقضات بين أعدائه، ويستطيع أن يأخذ أقرب المخالفين إليه، ولهذا يجب على المسلم أن يصنف خصومه ومخالفيه، وأن يستفيد من هذا لمصلحة العمل الإسلامي، على أن لا نذوب في أحد ولا نميع فيه، ولا نفرط في عقائدنا وأصولنا، فكما أنه لا ينبغي أن

نقف متحجرين أمام ما وسع الله، لا يصح أن نفتح الأبواب على مصاريعها لنفقد شخصيتنا ونلغي وجودنا ونصبح أذنابًا لغيرنا.

* * *

شغلنا العلم عن الشعر!

* الكثير من قراء الأستاذ يوسف القرضاوي لا يعرفون عنه مساهمته الثرَّة والمضيئة في حقل الأدب الإسلامي والشعر بالتحديد، ولقد تغنى الشباب المسلم ورددوا كثيرًا النونية الشهيرة التي نظمت في الخمسينيات دون أن يعلموا جميعًا من قائل هذه الملحمة البديعة.

أين الأستاذ يوسف الآن من الشعر والأدب؟ وهل استمر العطاء في هذا الاتجاه ضمن مسيرة الحياة العلمية ومسئولياتها الجسيمة؟

** أما الأدب فلا أعتقد أني انفصلت عنه، ولكن الأدب أدبان: هناك الأدب المتخصص كالمقالات الأدبية، والنقد الأدبي، وهناك الأدب الذي يدخل في ميدان العلم فيصاغ العلم به، وهذا ما يسمونه بالأسلوب العلمي المتأدب؛ أنا أعتقد أني أستخدم الأدب في كتاباتي ودراساتي ومؤلفاتي، وأحاول أن أكتب العلم بلغة أدبية، سهلة بيِّنة مقروءة، وبدون تكلف، فأحاول أن أجمع بين دقة الفقيه ووضوح الأديب وحرارة الداعية قدر ما أستطيع.

أما الشعر فيبدو أننا تركناه من مدة، كانت المحن عادة مثيرات للشعر، كلما هجرناه تأتي محنة فيهيئ الله فراغ الوقت والذهن لعمل بعضه، كالملحمة النونية التي ذكرتها، وقد أنشئت في السجن الحربي سنة 1955، لم يكن معنا وقتها ورق ولا قلم، فكنت أروي أبياتها للإخوان وأنشدها لهم، فيتناقلونها بالرواية الشفهية على طريقة الأقدمين ويحفظونها، ظلت هكذا حتى إني لما أردت أن أنشرها بعد ذلك حاولت أن أجمعها من صدور الرواة، هنا وهناك وقد تفرقوا، ولذلك ضاعت منها أبيات ووجدت روايات مختلفة أحيانًا

باختلاف الرواة. وهكذا .. والكثير من الشعر الذي أنشدته ضاع في أتون المحن، وأنا منذ مدة لم أنشد شعرًا، والآن لم يعد هناك فراغ لهذا، فقد شغلنا العلم عن الشعر، وصعب على الإنسان أن يشتغل بالعلم ويفرغ فيه جهده ثم يجد وقتًا للشعر، فهو يحتاج إلى صفاء معين وفراغ(15).

* ماذا تذكر الآن من القصائد التي نظمتها وما زلت تتأثر بها؟

** هناك مما أذكره نونية من النونيات، وكثير من شعري الباقي نوني، ألقيت سنة 1949 بمناسبة ليلة القدر كان مطلعها:

عشقتها فاسترقت قلبي العاني/فقمتُ أعزف فيها عذب ألحاني

سمَّوه شعرًا، وإني لا أراه سوى/آهات قلبي وإحساسات وجداني

ومنها:

يا ليلة زانها ربي وشرفها/تنزيله في دجاها نور قرآن

دستور حق وتشريع وتربية/يبقى وإن زال هذا العالم الفاني

ربَّى رجالًا مغاوير اهتدوا وغزوا/إن الرجولة من نور ونيران

أمسى بلال به من ذلة ملكًا/وصار سلمان شيئا غير سلمان

لله فتيان حق لو رأيت فتى/منهم ترى ملَكًا في زي إنسان

---

(15) جدت ظروف بعد ذلك أثارت شاعرية الشاعر، وهي ابتلاؤه بالانزلاق الغضروفي سنة 1985 م، وقعوده في البيت عدة أشهر، وسفره إلى ألمانيا للعلاج، وقد أثمرت هذه الفترة مجموعة من القصائد نشر بعضها في ديوانه «نفحات ولفحات» وبقيت قصائد أخرى قديمة وجديدة لم تنشر، يرجى أن تضمها مجموعة أخرى تحت عنوان «المسلمون قادمون» إن شاء الله.

فمن يداني أبا بكر وصاحبه/ومن يجاري عليًّا وابن عفان

هذا الكتاب غدا في الشرق وا أسفاه/شمسًا تضيء ولكن بين عميان

يحاط بالطفل حرزًا من أذى وردى/وفيها حرز الورى من كل خسران

يُتلى على ميت في جوف مقبرة/وليس بحكم في حي بديوان

فكيف ترقى ومعراج الرقى لنا/أمسى يُجَر عليه ذيل نسيان؟

* نشكر لفضيلتكم هذا الحديث الممتع، ونفعكم الله بالإسلام، ونفع الإسلام والمسلمين بكم.

* * *

أسئلة مهمة
حول الدعوة والتربية والمرأة والحضارة(16)
الإعداد العقلي والنفسي للإنسان المسلم

* تتعرض الأمة الإسلامية للعديد من هجمات أعدائها منذ القديم وحتى وقتنا هذا والذي اتخذ فيه الهجوم أشكالًا مختلفة منها المباشرة ومنها غير ذلك، والسؤال هنا: هل أعد الإسلام أبناءه لمواجهة مثل هذا الأمر؟

وما مدى التزام هؤلاء الأبناء بتعاليم هذا الدين؟

** أجل أعد الإسلام أبناءه عقليًا ونفسيًا لهذا الأمر، حين علمهم أن أعداءهم لن يغفلوا عنهم، ولن يغمدوا يومًا أسلحتهم التي شهروها من قبل في وجوههم.

وحسب المسلمين أن يقرءوا قول الله تعالى: **{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ}** [البقرة: 217]، قد يغيرون أسلحة القتال والغزو، ولكن المعركة باقية ما بقي في الدنيا حق وباطل.

كما علمنا الله تعالى في كتابه أنهم – وإن اختلفوا فيما بينهم – متفقون علينا وولاؤهم لن يكون لنا، ولهذا كان علينا أن نتجمع على حقنا في مواجهة تجمعهم على باطلهم وإلا كانت الفتنة والفساد الكبير، وفي هذا يقول القرآن: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}** [الأنفال: 73].

---

(16) أعدَّت الأسئلة الأخت فوزية صعب وبعثت بها إلى أ.د. القرضاوي، فرد عليها كتابة، ونشرتها جريدة «اليوم» بالمملكة العربية السعودية في عدة حلقات.

أول ما يجب على المسلمين إزاء هذا التكتل الغازي أن ينسوا كل خلافاتهم، ويقفوا صفًا واحدًا في معركة وجودهم وبقائهم، كما قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ} [الصف: 4].

ومما يؤسف له أن المسلمين لم يعوا هذا التوجيه الإلهي، فغفلوا وأعداؤهم مستيقظون، وتفرقوا وأعداؤهم مجتمعون، وقعدوا وغيرهم يقاتلون، وما نهضوا به من عمل لم يكونوا فيه على مستوى دينهم، ولا مستوى عصرهم، ولا مستوى تخطيط أعدائهم، أصبحنا نسمع: هذا من تخطيط الصهيونية أو الصليبية أو الشيوعية، كأن هذا عذر لنا، فلماذا لا نخطط لأنفسنا، بدل أن ننفذ بأيدينا مخطط أعدائنا؟!

لقد وصف الله أصحاب نبيه بأنهم: {أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ} [الفتح: 29]، ونحن أشداء على أنفسنا، رحماء بغيرنا! أشد الحروب ضراوة هي التي تقع بين بعضنا وبعض، كذلك وصف الله اليهود قديمًا بقوله: {بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ} [الحشر: 14]، وللأسف هذا هو وضعنا اليوم!

وإن كان هناك أمل فهو في أن تسد الصحوة الإسلامية المعاصرة النقص، وتتلافى القصور والتقصير إذا قُدر لمسيرتها أن تستمر وتسلك سبيل القصد والرشاد، ومراعاة سنن الله في الأنفس والآفاق.

* * *

أزمة مسلمين وليس أزمة إسلام

* يقال إننا نعيش في عصر أزمة مسلمين وليس أزمة إسلام، ما مدى صحة هذا القول؟

** هذا صحيح فالإسلام نفسه محفوظ في كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه بنفسه: **{إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}** [الحجر: 9]، وهذا يتضمن حفظ السنة أيضًا كما قال الإمام الشاطبي لأنها المبينة له وحفظ المبين يشمل في ضمنه حفظ المبيِّن.

ولكن المهم هنا المسلمون الذين يرى الناس فيهم الإسلام عقيدة وعبادة وخُلقًا وسلوكًا، كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كان كل منهم قرآنًا يسعى على قدمين، فهل نجد هؤلاء اليوم؟

صحيح أن المسلمين يبلغون اليوم – من حيث الكم والعدد – نحو ألف مليون من البشر، ولكنهم – إلا مَن رحم ربك – كما ورد في حديث أبي داود: «**كثرة كغثاء السيل**»، وإنما شبهوا بالغثاء؛ لأنه كم كبير يتسم بالخفة والسطحية، وعدم التجانس وفقدان الهدف! على خلاف ماء النهر الذي يتدفق في مجرى معلوم، ومسار مرسوم.

وهناك فرق بين المسلم الذي يحمله الإسلام، والمسلم الذي يحمل الإسلام، مسلمو اليوم يحملهم الإسلام عبئًا على ظهره، والمسلم المنشود هو الذي يحمل الإسلام فكرة واضحة في رأسه، وعقيدة راسخة في قلبه، وعبادة خالصة لربه، وأخلاقًا متكاملة في حياته.

* * *

جيل النصر المنشود

* هل صحيح أن استرداد بيت المقدس لن يكون إلا بإعداد «جيل النصر» كما سميتموه في بعض مقالاتكم؟ وكيف يمكن إعداد هذا الجيل؟ وعلى مَن يقع العبء الأكبر في إعداده؟

** كتبتُ في مجلة «الأمة» القطرية في عددين متتاليين عن «جيل النصر المنشود» الذي يُرجى أن تتحق على يديه الآمال وتسحيل الهزائم والنكسات إلى انتصارات، والذي تتجسد فيه الصحوة الإسلامية الرشيدة، وهو جيل لا يتكون في يوم وليلة، بل يحتاج إلى حضانة طويلة المدى، وتربية عميقة الجذور، حتى يستطيع أن يغلب اليأس بالأمل، ويملأ الفراغ بالعمل، وينتقل من الانفعال إلى الفعل، ومن الارتجال إلى التخطيط، ومن الغوغائية إلى العلمية، ومن التشاحن إلى التعاون، ومن الاستيراد إلى الأصالة.

وقد بينت ما ينبغي أن يكون عليه هذا الجيل المرتقب من سمات وأوصاف وأخلاق، تجعله أهلًا للمهمة المنشودة منه، وقلت في ختام مقالي الثاني:

«هذا هو الجيل الذي ننشده، وتنشده معنا الأمة كلها من جاكرتا إلى رباط الفتح، وهو الذي نسعى جاهدين لتكوينه، ونذيب حبات قلوبنا من أجله.

وهو الذي تعمل القوى العالمية والمحلية المعادية للإسلام على إجهاضه قبل أن يُولد أو وأده بعد أن يوجد، فإن أعياها هذا أو ذاك، فتحاول تضليله عن الهدف الحقيقي بأهداف موهومة، وشغله عن معركته الكبرى بمعارك جانبية تافهة، وتعويقه عن السير بصدامات تفتعلها على الطريق، وإلهائه عن ضرب

العدو بضرب بعضهم ببعض، وإغراقه في دوامة من الجدل لا يخرج منها، إلى غير ذلك من أسباب الفتنة وأساليب الكيد.

هذا الجيل وتكوينه يجب أن يكون الشغل الأول للحركات الإسلامية المعاصرة كما يجب على الدعاة والمفكرين والفقهاء والمربين أن يتعاونوا على حسن إعداده وتربيته تربية متكاملة: روحيًا، وجسميًا،وعقليًا، وأخلاقيًا، واجتماعيًا، وسياسيًا، ويعملوا على حمايته من نفسه أولًا حتى لا يتآكل من الداخل، ثم حمايته من كيد الأعداء، وجهل الأصدقاء، إنه الجيل الذي ادخره الله ليحمل روح أبي بكر في مقاومة الردة وحرب المرتدين ووصفه الله بقوله: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ}** [المائدة: 54].

إن هذا الجيل المنشود هو جيل النصر، وهو الذي تُحرَّر على يديه فلسطين وأفغانستان وأريتريا، وبخارى وسمرقند، وكل أرض دنَّسها الطواغيت والفجار.

هو الجيل الذي ترتفع به راية الله في أرض الله، ويسود به دين الخالق دنيا الخلق، وتشرق به أنوار السماء على ظلمات الأرض، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله، وأن تسير في ركبه الملائكة، وأن يكون كل شيء في الوجود مسخرًا لنصرته، حتى يقول الحجر والشجر: يا عبد الله، يا مسلم، هذا عدوك خلفي فتعالى فاقتله».

* * *

الإسلام والسياحة

* السياحة والاصطياف بالنسبة للعربي المسلم في الدول المعادية للإسلام وما يتبعها من تبذير أموال المسلمين هناك حيث أثبتت الإحصائيات عن السياحة في بريطانيا أن مجموع سياح إحدى الدول الخليجية في العام الماضي (1983) بلغ 53660 سائحًا أنفقوا حوالي 62.6 مليون جنية إسترليني خلال فترة لم تتعد في المعدل 17 يومًا للواحد .. ما رأي فضيلتكم في أبعاد هذا العمل الذي يمثل خطورة كبيرة على الأمة الإسلامية في الداخل والخارج؟

** لا يحرِّم الإسلام على المسلم السياحة، والضرب في الأرض، بل لا يوجد دين عَنِي بذلك مثل الإسلام الذي شرع السفر لطلب العلم، والسفر لطلب الرزق، والسفر للعبادة كالحج والعمرة، والسفر للجهاد، والسفر لغير ذلك من الأغراض المشروعة، ومنها: الترويح عن النفس والتعرف على العالم وما فيه من عجائب ومفارقات حتى قيل: السفر نصف العلم، ولا عجب أن شرع الإسلام من أجل ذلك جملة من الأحكام والرخص، والآداب، والأذكار التي تتعلق بسفر المسلم، كما جعل في مصارف الزكاة متسعًا لمعونة من ينقطع في سفره، وإن كان ممن له مال في بلده، حتى لا يهلك في الطريق بهلاك الراحلة أو انقطاع الزاد، وما أكثر ما تحدث الحكماء، وتغني الشعراء بالسفر وفوائده، ومما حفظناه في صبانا ما نُسب إلى الإمام الشافعي:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب/من راحة، فدع الأوطان واغترب

إني رأيت وقوف الماء يفسده/إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

إلى آخر الأبيات المعروفة.

وما نسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه:

تغرَّب عن الأوطان في طلب العُلا/وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة/ وعلم وأداب وصحبة ماجد

ولكن الذي نلاحظه أن سفر العرب – وبخاصة أهل الخليج – في السنوات الأخيرة إلى البلدان الأوروبية، أصبح ظاهرة تلفت النظر، وتستوجب التوقف لتحليلها ومراجعة ما يترتب عليها من آثار بالغة الخطورة، وذلك من عدة أوجه:

أولًا: إن هذه البلاد الأوروبية مخالفة لنا في قيمها ومفاهيمها وتقاليدها الاجتماعية، ويخشى بدوام الاتصال بها والمعايشة لهم أن يؤثروا علينا وخصوصًا على شبابنا وشاباتنا، فتهتز في أنفسهم قيمنا الراسخة، وتقاليدنا المبنية على عقائد ديننا وأحكام شريعتنا، وهذا ما حدث ويحدث بالفعل، ولا سيما أن أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية قد أصابها من التحلل والانهيار الخُلقي ماجعل مفكريها ومصلحيها يشكون مُر الشكوى منه، وينذرون بسوء العاقبة من استمراره.

وقد حكى لي أحد الأخوة ممن زار لندن في هذا الصيف المنصرم: أنه شاهد في حديقة «الهايد بارك» بعض المناظر الشاذة المكشوفة، فسألته ابنته الصغيرة: ماذا يفعل هؤلاء؟ فقال لها: هؤلاء حيوانات!

فقالت له: وماذا تفعل الحيوانات؟ ولم يستطع الأب أن يجيب .. فانتقل إلى مكان آخر فرأى منظرًا أسوأ من سابقه! فلم يجد حيلة إلا الرجوع إلى المنزل.

ثانيًا: إن هذه البلاد أصبحت حافلة بسماسرة الفساد والإفساد الذين يتلقفون شبابنا منذ نزولهم من الطائرة، لإغراقهم في الشهوات المحرمة، التي تُنهك صحتهم، وتُفسد أخلاقهم، وتُبدد أموالهم وتعودهم على أشياء مرذولة حتى يعودوا إلى أوطانهم، وقد مسخت شخصياتهم، وتغيرت أفكارهم وقيمهم، وهم يحاولون أن ينشروا ما تعودوا عليه داخل أوطانهم نفسها فينتشر الفساد بالعدوى كما يعدي الأجرب السليم، وقد حدثني بعض الشباب الصالح أنهم كان لهم أصدقاء مستقيمون حتى سافروا فوقعوا في الشَرَك، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه من طهارة الاستقامة.

ثالثًا: إن السياحة الآن أصبحت موردًا من الموارد الهامة لكثير من الدول المعاصرة، وقد أصبحنا نحن العرب من أضخم الموارد لعدد منها، والعجيب أنها تأخذ أموالنا ولا تتحدث عنا إلا بسوء.

وكان الواجب علينا أن نضن بهذه الأموال عن تلك البلاد التي تقف من قضايانا موقفًا شائنًا، وأن نجتهد في جعل السياحة داخل بلادنا العربية الإسلامية.

ولو أنفقنا ما يصرف على الاصطياف في أوروبا وغيرها على تحسين المواطن السياحية في بلادنا، لارتقينا بها ارتقاء كبيرًا، وفي بلد مثل السعودية نجد في الطائف وأبْهَا وغيرها ما يُغني عن أوروبا لو وجَّهنا عنايتنا إليها، وفي مصر وشمال إفريقيا مناطق سياحية في غاية الروعة والجمال.

* * *

الإسلام ومناهج التربية الحديثة

* يقول علماء التربية: إن مناهج التربية الحديثة قد تطورت وعدت رائدة في وسائلها وتنوع أساليبها، ما رأي فضيلتكم في هذه التربية؟ وهل استطاعت أن تصلح شيئًا من فساد المجتمع؟ وما هو البديل من وجهة نظركم؟

** لا ننكر ولا ينكر أحد درس شيئا عن التربية الحديثة، ما انتهت إليه مناهجها من تطور، وما حفلت به من خطوات سباقة في وسائلها وأساليبها نظرًا لأهميتها في تكوين الأجيال، وصناعة إنسان الغد، وقد توفرت عليها عقول كبيرة من رجال الفلسفة أو علم النفس، أو المشتغلين في الحقل التربوي، ولا بد لنا أن نستفيد من هذه الوسائل والأساليب لتطوير التعلم عندنا وتحسينه فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها.

ولكن ينبغي لنا أن ننبه هنا على بعض النقاط:

أولًا: أن الأهم من وسائل التربية وأساليبها هو أهدافها، أعني: ماذا نريد بالتربية؟ أي: نوع من الناس نريد أن نربيه؟ فلا ريب أن هدفنا الأسمى من التربية ليس نفس هدف الغربيين الليبراليين، وأهدافنا العليا من الحياة غير أهدافهم، ونظرتنا إلى الوجود والتاريخ غير نظرتهم، وفلسفتنا في التعامل مع الفرد والمجتمع غير فلسفتهم.

نحن نريد الإنسان المؤمن المنتج، الصالح في نفسه، المصلح لغيره، الذي يعيش في الحياة لهدف ورسالة، لا نريد ترابًا يأكل من التراب، ويمشي على التراب وينتهي إلى التراب! نريد إنسان «سورة العصر» الذي لخص القرآن أوصافه وسماته بهذه الكلمات المعدودة: **{وَٱلۡعَصۡرِ 1 إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ 2 إِلَّا**

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ} [العصر].

نريد الإنسان المنتج المعطاء الذي يعطي الحياة كما يأخذ منها، ولا يتخلى عن العمل والعطاء حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، حتى لو قامت الساعة، وفي يده فسيلة يريد أن يغرسها، فلا يقوم حتى يغرسها، كما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤدي الواجب قبل أن يطلب الحق، ويحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، ويعيش لأمته المسلمة قبل أن يعيش لذاته ... إلخ.

هذه الأهداف المنشودة في تربية المسلم والمسلمة.

ولا يخفى أن ثمت ارتباطًا وثيقًا بين الوسائل والأهداف، ولو نظرنا إلى التربية في عالم الحيوان، لوجدنا أن البقرة التي تُربَى للحم، غير التي تُربَى لدر اللبن، غير الأخرى التي تُربَى للعمل في الحقل والسقي والحرث، فلكل نوع وسائل وأساليب في تربيته يختلف عن الآخر.

ولهذا يجب أن نحدد هدفنا من التربية ما هو؟ هل هو مجرد الإنسان الناجح في حياته الدنيا؟ كما تدعو إليه المدرسة «البراجماتية» مدرسة المنفعة؟ هل هو الإنسان المحايد بالنسبة لله والنبوة والآخرة والأديان كما هي التربية العلمانية؟ أو هو إنسان آخر له إيمانه وقيمه وضوابطه السلوكية المتميزة التي سماها القرآن: {ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ} [الفاتحة: 6].

وبهذا يجب أن تكون المناهج والوسائل كلها في خدمة «الهدف المقصود والرسالة المنشودة».

ثانيًا: إن التربية في مفهوم الإسلام هي التربية المتكاملة، وليست التربية الدينية وحدها كما يتوهم كثيرون.

فالتربية «الدينية» نوع واحد من أنواع التربية «الإسلامية» التي يحرص عليها الإسلام ويدعو إليها.

وأستطيع أن أذكر هنا بضعة عشر لونًا من التربية تدخل في إطار التربية الإسلامية مثل:

التربية العقلية، والتربية البدنية، والتربية الصحية، والتربية الخُلقية، والتربية العلمية، والتربية المهنية، والتربية الأدبية، والتربية الفنية «الجمالية»، والتربية الجنسية، والتربية الاجتماعية، والتربية العسكرية، والتربية الاقتصادية، والتربية السياسية، والتربية الإنسانية .. بالإضافة إلى التربية الدينية أو الروحية كما قد تسمى، وكلها ينبغي أن تتكامل وتسير جنبًا إلى جنب حتى تتكون في إطارها الشخصية المسلمة التي تُناط بها الآمال.

ثالثًا: إن المنهج والأسلوب والكتاب كلها أمور مهمة في التربية، ولكن أهم منها: المربي، المعلم، العنصر الفعال في التربية، والذي قد يستطيع بإخلاصه وقدرته أن يتدارك قصور المنهج والكتاب، ويمكنه بعكس ذلك أن يُفسد المنهج الصالح، ويُميت الكتاب الحي، ويُحيل جذوة الطالب المتقدم إلى رماد!

رابعًا: لا يجوز أن تكون المدرسة وحدها مسئولة عن التربية، فالأسرة أيضًا مسئولة، الأبوان مسئولان .. وتعاون البيت والمدرسة أمر واجب، وليست مهمة الآباء والأمهات أن ينجبوا الأبناء أو البنات، ثم يدعوهم في ميدان الحياة وحدهم، كل ما عليهم أن يوفروا لهم الطعام والشراب والكساء، ووسائل الراحة والترفيه، ولا يدرون ما يحدث بعد ذلك، والله تعالى يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا}** [التحريم: 6]، والرسول صلى الله

عليه وسلم يقول: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**».

ثم إن الأجهزة والمؤسسات التوجيهية المختلفة عليها مسئولية مماثلة عن التربية، سواء أكانت رسمية أم شعبية: الصحافة، والإذاعة والتلفاز، والشعر والأدب، وغيرها، كلها مسئولة، وبخاصة أجهزة الإعلام، التي كثيرًا ما تهدم ما تبنيه المؤسسات التربوية، وقد عقد مكتب التربية العربي لدول الخليج ندوة مهمة تحت عنوان «ماذا يريد التربويون من الإعلاميين»؟ صدرت أبحاثها ومناقشاتها في مجلد، لعل إخواننا من رجال الإعلام يفيدون منها.

لقد أطلت في الإجابة عن هذا السؤال لما له من أهمية خاصة ولا مستقبل لأمتنا إلا بتربية إسلامية تستمد روحها وأصولها من الإسلام وتستفيد من كل مستحدثات العصر، دون انغلاق على القديم، ولا افتتان بالجديد.

* * *

مناهج التربية الإسلامية
وتكوين جيل النصر المنشود

* وبمناسبة الحديث عن التربية وأهميتها، هل ترى مناهج التربية الدينية «الإسلامية» ومقرراتها في مدارس البلاد الإسلامية كافية في تكوين الجيل المسلم المنشود؟

** مما لا خلاف عليه أن البلاد تتفاوت تفاوتًا كبيرًا فيما بينها فيما يتعلق بالتربية الدينية «الإسلامية» فهناك بلاد تجعل التربية الدينية شيئا على الهامش، أو مادة اختيارية ليس فيها نجاح ورسوب.

وهناك من يجعل التربية الدينية تابعة للغة العربية، ليس لها مدرسها الخاص، ولا تفتيشها الخاص، وكثيرًا، تبتلع حصصها في جوف اللغة العربية، وهناك من يضع تحت عنوان التربية الدينية، مفاهيم معينة يراد قسر الدين عليها قسرًا، ومن يضخم أشياء معينة من الدين على حساب أشياء أخرى، وهناك من يعطي للتربية الدينية – أو ما يسمى في بعض البلاد مثل قطر: العلوم الشرعية – من العناية الكمية والكيفية شيئا كثيرًا.

ولكن أود أن أؤكد هنا جملة حقائق مهمة كنت كتبتها لبعض المؤسسات التربوية العربية بشأن التربية الدينية «الإسلامية»:

1- ليست التربية الإسلامية مجرد معلومات دينية أو حقائق إسلامية تُلقى في الدرس المخصص للدين، ضمن الخطة الدراسية، إن التربية الإسلامية ليست مقصورة على شحن الذاكرة بالمعلومات وإن كانت صحيحة ونافعة، إنها عملية أعمق وأكبر، لهذا يجب أن تخاطب العقل والقلب معًا، وأن تهدف

إلى تكوين العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية ومن ورائها الشخصية الإسلامية المنشودة.

2- إن حصة الدين أو العلوم الشرعية الرسمية لا ينبغي أن تكون هي وحدها مجال التربية الإسلامية فكل المواد العلمية والأدبية يجب أن تُسهم في التربية الإسلامية، ودرس من دروس الفيزياء أو الكيمياء أو الأحياء أو الجغرافيا، إذا عرضه معلم مؤمن من زاوية إسلامية، ومن منطلق إيماني، يكون أشد تأثيرًا في أنفس الناشئة وغرس معاني الإيمان فيها من درس الدين الرسمي، ورب موضوع من موضوعات القراءة أو نص من نصوص الأدب، أو فصل من فصول التاريخ، أو قانون من قوانين العلم .. إذا كُتب وعُرض في ضوء حقائق الإيمان والإسلام، يؤتي ثمرة للتربية الإسلامية المنشودة، فوق ما تؤديه كتبها المقررة.

إن التوجيه غير المباشر أنفع دائمًا من التوجيه المباشر، والتوجيه من غير المحترف أقوى تأثيرًا من توجيه المحترف، والتوجيه الذي لا يُطلب للامتحان أشد لصوقًا بالنفس مما يدرس لأجل الامتحان.

3- إن التربية الإسلامية ليست مقصورة على الدرس في الفصل أو الصف فقط، إن المدرسة كلها يجب أن تكون ميدانًا للتربية الإسلامية، إن النشاط المدرسي يجب أن يتجه لخدمة التربية الإسلامية، كلمات الصباح، الإذاعة المدرسية، مجلات الحائط، الملصقات، اللوحات، الندوات، المحاضرات، نشاط الأسر، نشاط الجماعات المختلفة، وعلى رأسها جماعة التربية الإسلامية.

4- إن الجانب العملي في التربية له المقام الأول في التأثير، ولهذا يجب أن ينال العناية اللائقة به، حتى يوضع العِلم النظري موضع الممارسة والتطبيق، وأبرز مثل على ذلك هو العناية بالمسجد، وإقامة الصلاة جماعة في ميقاتها، بعد إعلان الأذان من إذاعة المدرسة، وأن يهرع الجميع إلى الصلاة: الطلاب والمعلمون، والإدارة، وفي مقدمة الجميع مدير المدرسة.

5- إن التربية الإسلامية ليست محصورة في داخل المدرسة فحسب إنما ينبغي أن تمتد إلى ما وراء المدرسة من نشاطات متنوعة تقوم تحت إشراف المدرسة نفسها، من رحلات كشفية أو علمية أو اجتماعية، ومن معسكرات ومخيمات، ومن أندية مسائية وأندية صيفية ... إلخ.

كما ينبغي أن تستعين المدرسة بمجالس الآباء والأمهات للتعاون على حسن توجيه الأبناء والبنات، التوجيه الإسلامي المطلوب.

وهذا كله لا يُقلل من أهمية منهج التربية الإسلامية، وكتاب التربية الإسلامية، ودرس التربية الإسلامية، ومعلم التربية الإسلامية، فهذه – ولا شك – أساس البناء .. وإن كانت وحدها لا تكفي .. وللتفصيل مجال آخر.

* * *

تجربة المصارف الإسلامية

* ما مدى نجاح تجربة المصارف الإسلامية وهل تتوقعون لهذه التجارب الثبات والاستمرار؟

** تجربة المصارف الإسلامية تجربة تستحق التنويه والتشجيع والتأييد ولا شك، فقد نقلتنا من الميدان النظري إلى الميدان التطبيقي، وبعد أن كان يُقال: إنه يستحيل أن يُقام اقتصاد إسلامي بلا بنوك، ويستحيل أن تقوم بنوك بلا فوائد (والفوائد هي الربا) أصبح الناس يشهدون بأعينهم قيام هذه المؤسسات المالية والمصرفية على غير الربا، لقد مضى وقت على المسلمين في هذا العصر، حاول بعضهم – تحت تأثير الهزيمة النفسية أمام حضارة الغرب وأنظمته – أن يلوي أعناق النصوص الإسلامية ليبيح الربا، ويبرره بأسانيد شرعية مفتعلة .. ثم جاء عصر انتصر الاتجاه الأصيل القائل بأن الربا حرام حرام، ولا بد من إيجاد بديل للمؤسسات الربوية.

ثم جاء عصر إيجاد البدائل على الورق، ثم انتقلت من الورق إلى حيز الواقع وقام أول بنك إسلامي في «دبي» منذ نحو تسع سنوات، تلته بنوك أخرى في عدد من البلدان الإسلامية.

وقد استطاعت هذه المصارف الإسلامية أن تعيد للمسلمين ثقتهم بينهم وبين أنفسهم، وأن تفتح لهم أبوابًا للاستثمار كانت مهملة مثل المشاركة والمضاربة والمرابحة، وهيأت للكثيرين من أفراد المسلمين أن يودعوا أموالهم لتستثمر في الحلال، وهيأت للكثير من أصحاب المشروعات أن يجدوا التمويل اللازم لمشروعاتهم بطريقة بعيدة عما حرم الله.

ولا ندعي – كما لا تدعي المصارف الإسلامية نفسها – أنها وصلت إلى درجة الكمال فهي لا تزال في أول الطريق، وهي لا تملك إلا مساحة ضئيلة جدًّا مما تملكه البنوك الربوية وهي دائمة العمل على تطوير نفسها وتحسين أدائها من عدة أوجه:

1- من ناحية إعداد العناصر البشرية التي تجمع بين الالتزام الإسلامي في الخُلق والسلوك والفهم لأحكام الشريعة، وبين الخبرة المالية والمصرفية والإدارية وهذا أمر في غاية الأهمية، وينبغي أن يتعاون عليه كل من يهمه أمر الإسلام عامة، والاقتصاد الإسلامي ومؤسساته خاصة.

2- من ناحية الخروج من بعض الأطر التي بدأت بها المصارف الإسلامية لاعتبارات معروفة مثل «توفير الربح للمودعين»، واحتلت مساحة كبيرة من نشاطها، مثل «بيع المرابحة» الذي لا أشك في جوازه، وقد ألفت في ذلك كتابًا خاصًا، ولكن يحسن بالمصارف الإسلامية أن تخرج إلى ميادين التنمية المختلفة في المجتمعات الإسلامية والاتجاه إلى المشروعات الطويلة الأجل، التي قد لا تعطي مردودًا للمساهمين فيها إلا بعد مدة.

3- من ناحية التعاون فيما بين المصارف الإسلامية على ما فيه مصلحتها جميعًا، والوقوف في وجه المكايد التي قد تدبَّر لها، وهذا ما يتمثل اليوم في مجلس اتحاد المصارف الإسلامية، الذي بدأ يفكر في مشروعات جماعية كبيرة مثل «المصرف الإسلامي العالمي» الذي يُرجى أن يؤسس برأس مال قدره (500 مليون دولار) للقيام بالمشروعات الطويلة المدى، ويتبع هذا المجلس هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعية، من مجموعة من علماء العالم الإسلامي.

وبهذا أقول: إن التجربة – والحمد لله – راسخة القدم، مصممة على الاستمرار في المسيرة، ماضية في درب التطوير والتحسين بعزم صادق وإرادة لا تلين، ومن سار على الدرب وصل، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

* * *

مواجهة المنظمات التبشيرية

* المنظمات التبشيرية في العالم الغربي تقوم بدور فعال في العالم الإسلامي، أليس من المفروض أن تكون هناك منظمات إسلامية تقاوم هذا الغزو وتدعو إلى الإسلام؟

** هذا هو المفروض الذي يوجبه علينا الدين، ويفرضه علينا الواقع، حماية لوجودنا الإسلامي من الهجمات الشرسة، التي تريد أن تجتثنا من جذورنا، وهذا ما جعلني أدعو منذ حوالي سنتين إلى وجوب الوقوف الجماعي في وجه هذا الغزو المسلح الخطير، وخصوصًا بعد أن قرأنا ما نشر – مؤيدًا بالوثائق – عن المؤتمر التنصيري الذي اجتمع في ولاية «كلورادو» بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978 لغاية محددة هي العمل على تنصير المسلمين في العالم، ورصدوا لذلك مبلغًا من المال هو ألف مليون دولار، وأنشئوا معهدًا لهذا الغرض سمي «معهد زويمر» إحياء لذكر هذا المبشر المعروف في الشرق الأوسط في أوائل هذا القرن، وقد بدأ القوم نشاطهم بالفعل في شتى أنحاء البلاد الإسلامية وبين الأقليات والجاليات والتجمعات الإسلامية خارج العالم الإسلامي، وهم يستغلون ضحايا الفقر والتشرد والمرض والجهل والأمية في آسيا وإفريقيا، ويتسللون من ذلك لفتنتهم عن دينهم، ونحن لا نلوم القوم إذا بذلوا ونشطوا لنشر دينهم إنما نلوم أنفسنا إذا تقاعسنا عن الدفاع عن ذاتنا، ولم نبذل مثل ما بذلوا، ونحن لا ينقصنا المال، ففي المسلمين من يملكون الملايين وعشرات الملايين ومئات الملايين، بل إن المسلمين – الذي يبلغ عددهم اليوم مليارًا من البشر – لو دفع

كل واحد منهم دولارًا واحدًا، لجمعنا الألف مليون، وإذا كان اليهود في الأربعينات في الولايات المتحدة، وغيرها، قد رفعوا شعار: «ادفع دولار تقتل عربيا» فنحن نرفع شعار: «ادفع دولار تنقذ مسلمًا».

نحن لا نريد أن نقتل أحدًا ولا أن نعتدي على أحد وإنما نريد الإبقاء على كياننا ووجودنا ولا نقبل من أحد أن يسلخنا عن ذاتيتنا، وإني لأحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن كلَّل جهودي بالنجاح، وقامت لهذا الغرض مؤسسة كبرى باسم «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» ومقرها دولة الكويت الشقيقة، ولكنها للمسلمين في كل مكان وقد اجتمعت جمعيتها التأسيسية في 17 و18 من شهر رمضان الماضي، من 160 شخصية إسلامية تمثل الأمة المسلمة في الشرق والغرب، وأقرت النظام الأساسي واختارت مجلس الإدارة وبدأت العمل وينتظر من ورائها خير كثير.

وهذه الهيئة لا تعمل في المجال السياسي ولا العسكري إنما مجالها النشاط الخيري والاجتماعي والتنموي، كما حدد ذلك نظامها الأساسي، ومهمتها الأولى أن توفر الطعام للجائع، والكساء للعريان، والدواء للمريض، والإيواء للمشرد، والرعاية لليتيم، والتعليم للجاهل، والتشغيل للعاطل، والتدريب للعامل، والارتفاع بمستوى المسلمين حيثما كانوا، والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، والرد العلمي الموضوعي على شبهات خصوم الإسلام وأباطيلهم، وبيان حقائق الدين، ونشر اللغة العربية وتعليم القرآن بأساليب العصر.

وعلى جميع المسلمين أن يشدوا أزر هذه الهيئة، ويقفوا بجانبها، فهي ليست ملك فرد ولا مجموعة ولا دولة، ولكنها ملك الأمة الإسلامية كلها

وملك الأجيال القادمة أيضًا.

* * *

محاولة تطبيق الشريعة في بعض البلاد الإسلامية

* تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان والباكستان – ما مدى نجاح هذه التجربة؟ وما هو الدور الذي يمكن أن تُسهم به الدول الإسلامية وخاصة الدل الخليجية في مساندة هذه التجربة المباركة؟

** في المؤتمر الإسلامي العالمي الأول الذي انعقد في الخرطوم بمناسبة مرور سنة على البدء بتطبيق أحكام الشريعة اعترض بعض الأخوة على استخدام كلمة «تجربة» بشأن تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان أو غيره، وحجتهم أن التجربة ما يحتمل الصواب والخطأ، كما يمكن التفكير في العدول، وهذا لا ينطبق على الشريعة الإسلامية، ولا ريب أن الاعتراض مقبول، وقد يُقبل من باب التسامح أو المشاكلة، كما يقول علماء البلاغة في قوله تعالى: ﴿**وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: 54]، ﴿**وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا**﴾ [الشورى: 40] ... إلخ.

والأولى استعمال كلمة «ممارسة أو مسيرة أو نموذج» أو نحو ذلك ومعلوم أن المتفق عليه خير من المختلف فيه.

ولنرجع إلى الموضوع ذاته، وهنا أقول:

إذا كان تطبيق الشريعة فرضًا دينيًا لازمًا علينا بحكم عقد الإيمان ومعنى الإسلام فلا يجوز أن نفكر في مدى نجاح التطبيق أو عدمه فإذا نجح تمسكنا به، وإذا أخفق رجعنا عنه! إذ لا خيار لنا في ذلك إلا إذا خنا زمننا وتحدينا إيماننا، والله تعالى يقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ**﴾ [الأحزاب: 36].

ويقول: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا} [النساء: 65].

ويقول: {وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ} [المائدة: 49].

كل ما يجوز قوله هنا أننا نتابع التطبيق بيقظة وبصيرة واجتهاد متفتح على العصر ومرتكز على الإسلام في ينابيعه الصافية، وأن نحذر من الانحراف، وسوء التطبيق حتى لا يحسب هذا على الإسلام ذاته، ولقد قلت لإخواننا في السودان: إنني باسمي واسم إخواني العلماء نضع أنفسنا جنودًا تحت تصرفكم لترشيد المسيرة وتوجيهها إلى الخط الإسلامي السليم.

ومما نبهت وأنبه عليه دائمًا: أن تطبيق الشريعة ليس معناه إقامة الحدود فقط، ولا مجرد تغيير القوانين الوضعية بقوانين إسلامية، فالقوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، نحن نريد للمجتمع أن يحيا بالإسلام، ويحيا للإسلام، ونصبغ حياته كلها بصبغة الإسلام، وهذا يحتاج إلى عمل تربوي، وعمل إعلامي، وعمل فكري، وعمل اجتماعي، وعلى كل المستويات، ولا بد أن تتعاون المؤسسات والأجهزة كلها على صناعة المجتمع المنشود، وهو لا يصنع بين عشية وضحاها، كما نبهت وأنبه دائمًا: أن الإسلام كل لا يتجزأ: {ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ} [البقرة: 208]، ولا يجوز أن نكون مثل بني إسرائيل الذين قرعهم الله بقوله: {أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ} [البقرة: 85]؟!

وقد قال الله لرسوله: {وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ} [المائدة: 49] فالإسلام «وصفة» متكاملة، يرتبط بعضها ببعض، وليس معنى

هذا أن نرفض ما يطبق من الإسلام حتى يطبق كله مائة في المائة، بل المهم أن تكون النية قائمة على أخذ الإسلام كله، وأن تكون خطة مرسومة للتحول الكامل إلى الإسلام الكامل.

وقد أعجبني تسمية الأخوة في السودان لهذه المرحلة «التحول نحو الإسلام» فهم لا يزعمون أنهم طبقوا كل شيء، ولكنهم في الطريق سائرون.

وأمر آخر في غاية الأهمية، وهو العنصر البشري الذي يعيش في الإسلام، ويعيش فيه الإسلام إيمانًا وفكرًا وسلوكًا، هذا العنصر يجب أن تكون له الأولوية في سد الثغرات وملء المواقع، وتوجيه أزمة الأمور، فإن من أخطر الأشياء أن يوكل أمر تطبيق الإسلام إلى من لا يؤمن بالإسلام، وهذا هو باب الهلاك، كما في الحديث: «**إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، رواه البخاري.

* * *

الترغيب والترهيب في الدعوة الإسلامية

* يبرز بعض الدعاة مسألة العقوبات، والعقاب بالنار، وسخط الله على العصاة كأساس هام لردع الناس عن المعاصي، فأيهما أفضل الترغيب أم الترهيب، والبدء بالجنة أم النار؟

** الموقف السليم هنا ما ذكره الإمام علي رضي الله عنه حين قال: «ألا أخبركم بالعالم كل العالم؟ مَن لم يوئس عباد الله من روح الله، ولم يؤمّنهم من مكره». ومعنى هذا أن يعمل العالم أو الداعية على الموازنة بين الرجاء والخوف، والرغب والرهب في نفس الإنسان، فلا يبالغ في التخويف والترهيب بحيث يبلغ به درجة اليأس من روح الله: {**إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**} [يوسف: 87]، ولا يبالغ في الترجية والترغيب بحيث ينتهي إلى درجة الأمن من مكر الله تعالى: {**فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ**} [الأعراف: 99].

ومن يقرأ القرآن يجده يوازن بين الأمرين، فهو حين ذكر صفات الله تعالى يذكر صفات الرحمة وصفات القوة، أو صفات الجمال وصفات الجلال، كما في قوله تعالى: {**غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ**} [غافر: 3]، {**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ**} [الأعراف: 167]، {**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ**} [الرعد: 6].

وحين يذكر الآخرة يذكر الثواب والعقاب، والرحمة والعذاب، والجنة والنار: {**وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ**} [الحديد: 20].

وحين يوصف المؤمنين يجعلهم بين الرجاء والخوف: {**وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ**

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ} [الإسراء: 57]، **{يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ}** [الزمر: 9]، **{وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ}** [الأنبياء: 90].

ومما يروى عن أمير المؤمنين عمر قوله: لو نادى منادٍ يوم القيامة: كل الناس في الجنة إلا واحدًا، لخفت أن أكون ذلك الواحد، ولو نادى منادٍ: كل الناس في النار إلا واحدًا لرجوت أن أكون ذلك الواحد.

وقد رأيت بالتجربة في ميدان الدعوة والإرشاد: أن تغليب جانب الرحمة والرجاء يؤثر في كثير من الناس، ويفتح لهم باب التوبة، ويبقيهم على خيط موصول بالدين، مهما يكون واهيًا.

أما تغليب جانب التخويف والتغليظ دائما، فقد يؤثر في عدد من الناس، ولكنه كثيرًا ما يؤدي إلى نتائج عكسية، فبعض الناس إذا عرف أنه غريق في المعصية، وأن جهنم له بالمرصاد، يعتقد أنه هالك هالك لا محالة، فيتمادى في الخطايا، ويستمر في الذنوب وييأس من المغفرة، وقد يدفعه هذا إلى ارتكاب أعظم الموبقات، كما أن المبالغة في التخويف قد تورث عقدًا مَرَضية تضر أكثر مما تنفع، فلنتبع طريقة القرآن في المزج بين الرجاء والخوف بتوازن واعتدال، ولنذكر أمر الله لرسوله: **{قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53].

* * *

التخصص العلمي الدقيق في علوم الشريعة

* نلاحظ أن أقسام التعليم الجامعي تقوم على التخصص ثم التخصص الدقيق بعد ذلك .. هل يصلح هذا النهج بالنسبة لعلماء الشريعة؟ ولماذا لم يلتزم العلماء الأوائل بهذا النهج؟

** سنة الله أن الإنسان لا يستطيع أن يحسن كل شيء، فلا بد أن ينقطع لشيء يحسنه ويتفوق فيه، وهذا معنى التخصص، وهو ما أشار إليه القرآن حين قال: **{وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ(17) كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ}** [التوبة: 122].

ولهذا رأينا في الصحابة رضي الله عنهم القُوَّاد والعلماء، ورأينا في العلماء منهم من اشتهر بالرواية كأبي هريرة،ومن اشتهر بالدراية كابن عباس، وبعد الصحابة رأينا التابعين المحدِّث والمفسر والفقيه، كما وجدنا فيهم من يجمع ذلك كله.

وهكذا بعد عصر التابعين نجد فيهم من يغلب عليه نوع من التخصص في ناحية من نواحي الثقافة الإسلامية، ومن نجد ثقافته ثقافة موسوعية كما يتضح ذلك في مثل أبي جعفر ابن جرير الطبري، فهو شيخ المفسرين، وتفسيره يدل على علو كعبه في معرفة اللغة والقراءات وكل ما يتعلق بعلوم القرآن .. وهو إمام في التاريخ، وكتابه فيه معروف، وهو كذلك في الحديث والأثر، وله كتاب «تهذيب الآثار» الذي لم يكن له نظير في بابه، وهو في الفقه إمام، له

---

(17) أي للجهاد.

مذهب مستقل كان له أتباع يسمون بـ «الطبرية» انقرضوا، ونجد مثل هذا في رجل كابن الجوزي، وابن كثير، والغزالي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم.

بل نجد مثل ابن رشد الحفيد يبلغ القمة في الفلسفة حتى إن شرحه لأرسطو كان مرجعًا للعالم كله لعدة قرون، وفي الطب في كتابه الشهير «الكليات» وفي الفقه في كتابه الفريد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

غير أن عصرنا اليوم لم يعد يسمح بظهور هذا النوع من الرجال الموسوعيين الذين كان أحدهم يعتبر دائرة معارف لعصره.

ذلك أن اتساع المعرفة ونموها المطرد – الذي يعبرون عنه بـ «انفجار المعرفة» جعل من المتعذر – بل من المستحيل – على شخص مهما يكن نبوغه الإحاطة بكل هذه المعارف، بل أصبح العلم الواحد ينقسم إلى عدة فروع، والفرع إلى تخصصات، فالطب أقسام، وكل قسم منه يتفرع إلى شُعب كثيرة، وكذلك الفيزياء والكيمياء، والهندسة وغيرها.

ومثل هذا يقال في العلوم الإسلامية، فقد يتعذر أو يتعسر ظهور من يجمع هذه العلوم كلها، لهذا كان لا بد من التخصص في بعضها، مثل علوم القرآن والسنة، علوم الفقه والأصول، علوم العقيدة والمعقولات، وقد تتفرع هذه نفسها، فيوجد من يتخصص في التفسير وعلوم القرآن، ومن يتخصص في الحديث وعلومه ورجاله، ومن يتخصص في الفقه وحده، وفي أصول الفقه وحده ... وهكذا.

بل هناك من يتخصص في متون الحديث، ومن يتخصص في رجال الحديث، ومن يتخصص في فقه مذهب بعينه ... إلخ.

وعلى هذا الأساس وُجدت في الجامعات الإسلامية كليات بعضها لأصول الدين (أي: العقائد وما يلحق بها) وبعضها للشريعة (أي للفقه وأصوله) وبعضها للدعوة، وبعضها للقرآن الكريم، وبعضها للحديث الشريف، وهناك جامعات لم تنشئ لهذه التخصصات كليات مستقلة، وإنما اكتفت بإنشاء أقسام لها داخل كلياتها.

وهذا لا بأس به ما دام القصد منه التعمق والتبحر في فرع معين من فروع الثقافة الإسلامية، ولكني أشترط لها أن يدرس في هذه التخصصات كلها قدر مشترك لا بد منه في أصول الثقافة الإسلامية في العقيدة والفقه وأصوله والتفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والسيرة والتاريخ الإسلامي، بحيث يستوعب الحد الأدنى الذي لا يسع العالم المسلم جهله بدعوى أنه متخصص في غيره، ثم يأتي التخصص بعد ذلك.

* * *

الموقف السليم من قضية تحديد النسل

* إن قضية تحديد النسل قضية هامة شغلت أذهان الكثير من أبناء المسلمين، ولقد اختلفت فيها الأقوال وتضاربت الآراء بين محلل ومحرم، فما رأي فضيلتكم في تحديد النسل؟

** النسل من المقاصد الأساسية للزواج في نظر الإسلام، حتى يتحقق بقاء النوع الإنساني ويقوم بدوره في عمارة الأرض إلى ما شاء الله، وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿**وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ**﴾ [النحل: 72] .. وفي الحديث: «**تناكحوا تناسلوا**».

ولا ريب أن القوة العددية من النِعم التي يمن الله بها على الناس، ومما يفخر بها المفاخرون، ويخوف بها المتربصون.

والقرآن يقول في معرض الامتنان: ﴿**وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ**﴾ [الأعراف: 86].

والشاعر العربي يقول:

ملأنا البَر حتى ضاق عنا/وماء البحر نملؤه سفينا

والآخر يعتذر عن قلة العدد بقوله:

تعيِّرنا أنَّا قليل عديدنا/فقلت لها: إن الكرام قليل

ولكن مما لا ينازع فيه أن الإسلام لا يريد كثرة كغثاء السيل، بل يريد الكم والكيف معًا، فإذا تعارضا فالكيف مقدم على الكم.

ومن ثَم لا أجد مانعًا من الشرع يحول بين الأسرة وبين «تنظيم نسلها» لا «تحديده» على معنى أن تجعل بين كل طفل وآخر مدة من الزمن يتمكن فيها الطفل من استيفاء حقه في الرضاع والرعاية، والرضاع حولان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة: {وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ} [لقمان: 14].

وكذلك إذا كانت صحة الأم، أو مقدرتها على حسن الرعاية والتربية، بدنيًا ونفسيًا واجتماعيًا، لا تمكنها من توالي الحمل والولادة والإرضاع .. إلخ.

فلا تكلف نفس إلا وسعها، ولا تُضار والدة بولدها، والله يريد بعباده اليُسر ولا يريد بهم العسر، والمهم هنا مصلحة الأم ومصلحة الطفل، ولا ضرر ولا ضرار.

وقد كان الصحابة إذا أرادوا ألا تحمل المرأة عزلوا عنها، ولم ينههم الله ولا رسوله عن ذلك، وأحب أن أنبه هنا إلى عدة نقاط:

1- لا يجوز أن يكون من المسوغات لمثل هذا الأمر خوف الرزق، فإن الله قد تكفل برزق كل حي: {وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا} [هود: 6]، والله قبل أن يخلق الناس بارك في الأرض وقدر فيها أقواتها.

ولكن إذا خاف أن يجره كثرة الأولاد إلى التورط في الحرام، مثل قبول الرشوة، أو الدخول في المكاسب المحظورة، أو نحو ذلك فهذا اعتبار ديني يحسب حسابه.

2- يجب أن يبقى تنظيم النسل مسألة تخضع لظروف الأسرة يتفق عليها الزوجان فيما بينهما، دون أن يحرجا أنفسهما في دين أو دنيا.

ولا ينبغي أن يكون ذلك فلسفة عامة للدول تحمل عليها الناس جميعًا،

وأولى من تركيز الجهد على تحديد النسل أن تُبذل جهود علمية منظمة لنتعلم منها الاستخدام الأمثل للطاقات البشرية المعطلة عندنا، التي تستهلك ولا تنتج، وتستورد ولا تنشئ، وتأخذ ولا تعطي!

3- إن بعض الأمم بلغ تعداد سكانها ألف مليون نسمة أو أكثر ولم تضق بهم وجعلت ذلك مصدر قوة لها، واستغلتها إلى أقصى حد ممكن، ونحن عندنا من مصادر الثروة ما يسع أضعاف أعدادنا لو أننا – نحن العرب والمسلمين – حققنا التعاون والتكامل فيما بيننا، وأكمل كل منا نقص أخيه، وأحسنا استغلال ما وهبنا الله من نعم وخيرات.

كنت في السودان قريبًا بمناسبة مرور سنة على بدء تطبيق الشريعة، ورأينا هناك حاجة السودان إلى استغلال المساحات الشاسعة من أرضه الصالحة للزراعة التي تبلغ نحو مائتي مليون فدان منها حوالي (80 مليونًا) قابلة للزراعة بأدنى النفقات، فلماذا لا يساهم الخليج ببعض ملايينه – أو بلايينه – التي تعمل في أوروبا وأمريكا؟ ولماذا لا تساهم مصر بخبراتها الفنية وأيديها العاملة؟ ولماذا ؟ ولماذا؟!

* * *

دور المرأة في الصحوة الإسلامية

* فكر المرأة المسلمة في وقت الصحوة إلى أين يتجه وكيف تعامل المرأة الملتزمة أخواتها المسلمات البعيدات عن الدين؟

** ينبغي أن يتجه فكر المرأة المسلمة في عهد الصحوة، إلى المشاركة الإيجابية في توجيه المجتمع إلى الإسلام الصحيح وفي إزالة العوائق من طريق المرأة المسلمة وتحريرها من آثار الاستعمار بكل أنواعه وألوانه.

إلى جانب تحريرها من رواسب الأفكار القديمة التي ليست من الإسلام في شيء، ونصيحتي لكل مسلمة ملتزمة ممن هداها الله وشرح صدرها للاستقامة على طريق النور، أن تعامل أخواتها البعيدات عن الدين بالرفق، وتدعوهن بالحكمة وتستعين بالصبر.

فقد عمل الغزو الثقافي والاجتماعي عمله في عقل المرأة المسلمة وسلوكها واستطاع في وقت قصير أن يُخرج المرأة المسلمة من أدبها الإسلامي وتفكيرها الإسلامي مقلدة المرأة الغربية تقليدًا أعمى، وتسير وراءها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، فكل «مودة» تخرج من هناك مقبولة، وإن تكن سخيفة ومرذولة، حتى لو دخلت «جحر ضب» لدخلت خلفها، كما بين ذلك الحديث النبوي الشريف، وهو يصور فقدان الشخصية والتبعية المطلقة، وهذا يجعل من الواجب على أهل الدعوة من المسلمين والمسلمات الترفق بهؤلاء الأخوات والبنات، من أسيرات هذا الغزو الغربي المركز، وعملائه وأجهزته داخل وطننا العربي والإسلامي.

ومن هذا الترفق أن نقبل منهن التدرج، فمن أدت منهن الصلاة وأخرت

الحجاب شكرنا لها صلاتها ودعوناها إلى الخطوة الأخرى.

ومن قبلت تغطية الرأس ولم تغط الرقبة مثلًا أثنينا على هذه الخطوة منها وقلنا لها: لا زلنا ننتظر منك الكثير، ومن المهم هنا أن نتخذ «التيسير» منهجًا لنا، ولا يحسن بنا أن نتبنى أشد الآراء تزمتًا ثم نشكو من عدم الاستجابة لنا، وقد بعثنا ميسرين ولم نبعث معسرين، ومَن لم تستجب لنا من أول مرة لم نذمها ولم نيأس منها، بل نصبر عليها ونكرر الدعوة مرة ومرة حتى يفتح الله قلبها للهداية.

وقد تبين لي من تجربتي في الدعوة والإفتاء والتدريس الجامعي ومن أسئلة الأخوات التحريرية والمشافهة والهاتفية: أن المرأة أرق قلبًا، وأقرب إلى التدين والخشية من الرجل.

ولا بد للداعية والموجهة من استخدام أقصى الحكمة في مخاطبة المسلمة المعاصرة، ومعرفة الأمور التي يحسن التركيز عليها، والشبهات التي ينبغي دفعها، والمفتريات التي يجب ردها، والأحكام المجهولة التي يلزم بيانها، حتى لا يظلم الإسلام ذاته حين يُنسب إليه ما كان عليه المسلمون بالأمس في عصور التخلف، أو ما هم عليه اليوم في عصر التبعية الثقافية من جور على المرأة، وإهمال لحقوقها المقررة في شريعة الله سبحانه.

* * *

بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية

* وضع المرأة الغربية في عصرنا هذا .. هل يمكن اتخاذه مثالًا يحتذى به للمرأة المسلمة .. ولماذا؟

** لا تصلح المرأة الغربية مثالًا تحتذيه المرأة المسلمة لأنها مخالفة للمسلمة في عقيدتها ومُثُلها وأهدافها وآدابها وتقاليدها.

المرأة الغربية لا ترى في العلاقات الجنسية ما تراه المرأة المسلمة التي تقيدها فكرة «الحلال والحرام» في كل ما تأخذ وتدع، وليست طليقة العنان تفعل ما يحلو لها كالمرأة الغربية التي لم تعد تبالي بمظاهر الإباحية والانطلاق الغريزي المجنون في الحدائق والطرقات والأماكن العامة، على أن المرأة الغربية اليوم لم تعد راضية عن نفسها، وعما انتهى إليه حالها، صحيح إنها زاحمت الرجال بالمناكب في مواضع العلم والعمل والأسواق، ولكنها في النهاية فقدت خصائص أنوثتها، وأصبحوا يطلقون على المرأة العاملة هناك «الجنس الثالث»، أي الذي لم يعد له خصائص الجنس اللطيف من رقة ونعومة وعاطفة ولم يكسب خصائص الجنس الخشن بمزاحمته في مواضع عمله، بل هو جنس بين بين كالغراب الذي حاول أن يقلد النسر، فلا صار نسرًا ولا بقي غرابًا.

* * *

موقف المرأة المسلمة
من الأحداث الإسلامية المعاصرة

* الأحداث التي تجابهها أمة الإسلام .. ما موقع المرأة المسلمة منها وماذا عليها عمله؟

** إذا رجعنا إلى عصر الإسلام وما بعده من عصور الازدهار الإسلامي نجد أن المرأة كان لها دورها في مسيرة الدعوة منذ يومها الأول وفي العهد المكي والعهد المدني.

ولا ينسى أحد دور أمهات المؤمنين، ونساء الصحابة رضي الله عنهن. فقد شاركن في العبادة والعمل والجهاد، ووجدنا البخاري يذكر في صحيحه «باب غزو النساء وقتالهن».

ووجدنا في كتب التراجم والطبقات على اختلاف أنواعها عددًا غير قليل من النساء المتفوقات في شتى المجالات.

واليوم بعد أن فشا التعليم بين نساء المسلمين لا بد أن يعود للمرأة مكانها الطبيعي، لتسهم في مسيرة الصحوة الإسلامية، وبناء الحياة الإسلامية المرجوة ومناصرة القضايا الإسلامية أينما كانت.

فالعمل للإسلام وقضاياه المصيرية ليس وقفًا على الرجال، فالمرأة مسئولة كالرجل ومكلفة مثله وقد قال تعالى: **{أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ}** [آل عمران: 195]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**إنما النساء شقائق الرجال**»، ومما يحتم على المرأة أن تعمل لدينها، أن المرأة

اليهودية والنصرانية والشيوعية ونحوها تعمل لعقيدتها وتبذل من جهدها ووقتها ومالها ما تراه واجبًا عليها، بل رأينا منهن من تجوب الفيافي وتعيش في الأدغال لنشر عقيدتها، ومن لا تبالي بدخول السجن من أجل فكرتها.

فكيف ترضى المسلمة أن تظل هي حبيسة في قفصها الذهبي لا يهمها أمر دينها ولا تؤرقها مصائب أمتها ولا تقاوم باطل الأخريات بحقها؟!

إن المرأة المسلمة اليوم – وبخاصة المثقفة – تستطيع أن تخدم دينها، وتعمل لنصرة قضاياه، في عدة مجالات:

أولًا: في العمل مع بنات جنسها لتوعيتهن وتجنيدهن لنصرة دينهن، والإسهام في العمل الإسلامي، وهذا ليس بالمجال الضيق فالمرأة نصف المجتمع ولا سيما المتفوقات بالحضارة الوافدة، والمسجونات في سجن التخلف لا بد من دعوتهن والمثابرة معهن، والمعايشة لهن بحسن الصحبة وإعطاء الأسوة الحسنة حتى تتغير أفكارهن ومشاعرهن وتقوى إرادتهن على الاستجابة لنداء الله، والسير في قافلة العمل بالإسلام، ثم العمل للإسلام.

وكثير من المتدينات – مثل كثير من المتدينين – يحسبن أنهن بمجرد الصلاة والصيام أدين كل واجباتهن غافلات عن واجبات الدعوة والنصيحة (التي هي الدين) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكلها فروض عامة يلزم كل مسلم ومسلمة أن يقوم بما يستطيعه منها وأن يتعاون مع غيره فيها: **{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ}** [المائدة: 2].

ثانيًا: هناك مجال آخر مهم لعمل المسلمة الملتزمة وهو عملها داخل

أسرتها، مع زوجها إن كانت زوجة ومع أبنائها إن كانت أمًا، فإن كان هؤلاء من أهل الدعوة والعاملين للإسلام كانت لهم خير معوان على رسالتهم، كما كانت زوجات السلف الصالح وأمهاتهم يحرضنهم على الجهاد، وعلى الثبات على الحق والصبر على الأذى في سبيل الله، ورُب كلمة تشجيع أو تثبيت من زوج صالحة أو أم مؤمنة كان لها أكبر الأثر في موقف زوجها أو ابنها، كما لمسنا ذلك في وصية الخنساء لأبنائها الأربعة في معركة القادسية، وفي وصية أسماء ذات النطاقين لابنها وهو محاصر مقطوع: عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم جميعًا.

وإذا كان الزوج أو الأبناء من ذوي التدين الانسحابي المنزوي عن قضايا المسلمين، فعليها أن تجتهد في دعوتهم بالحكمة إلى أن يدلوا بدلوهم في العمل للإسلام، حتى تحكم شريعته وتتحرر أرضه وتتحد أمته على كلمة الله وينهزم الباطل في رءوس المسلمين وفي حياتهم أمام الحق الذي بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان الزوج أو الولد بعيدين عن الدين، فالواجب هنا مضاعف، والمعركة طويلة، وسلاحها الحكمة والصبر، وعلينا أن نبذر الحب ونرجو الثمار من الرب ولا يضيع الله أجر المحسنين.

ثالثًا: في مجال العمل الإسلامي العام، الذي يشترك فيه الرجال والنساء ويخاطب فيه الجنسان أيضًا، فالمرأة المسلمة الملتزمة إذا كانت داعية أو مربية أو أديبة أو صحفية، أو ذات موهبة أو قدرة خاصة يمكنها أن تشارك بجهدها ومواهبها في تغذية العمل الإسلامي والفكر الإسلامي وتحريكهما وإمدادهما بالوقود اللازم والمستمر والذي يتطلب من كل قادر وقادرة ألا

يضن عليه بما يدفعه خطوة إلى الأمام أو على الأقل يميط الأذى عن طريقه.

* * *

اختيار الزوج والزوجة

* ما رأيكم في زواج الملتزم بفتاة مستهترة غير ملتزمة بحجة أن الفتاة الصالحة هي فتاة قد صلح إيمانها وأن الأخرى في حاجة لمن يصلحها؟

وكذلك زواج الفتاة الملتزمة بفتى مستهتر للحجج السابقة؟

ما تعليق فضيلتكم على هذا؟ وهل لهذا العمل من آثار تمس المجتمع المسلم؟

** الإسلام يوجِّه الشاب المسلم إذا أراد الزواج إلى اختيار الفتاة الصالحة، التي تكون عونًا له على أمر دينه، تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتنصح له إذا حضر، وتحفظه إذا غاب في نفسها وماله كما قال تعالى: **{فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ}** [النساء: 34].

وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه المسلم ويحرص عليه ولا يكون همه محصورًا في مجرد الجمال أو النسب أو المال بل الصلاح كما قال الرسول الكريم: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»، وقال: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي**»، «**ما استفاد المؤمن من بعد تقوى الله خيرًا من امرأة صالحة**».

وصلاح المرأة إنما يتجلى في التزامها الديني، بحيث تُكيف سلوكها وفقًا لأمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، فمن وجد هذه المرأة فقد وجد كنزًا عظيمًا لا يجوز التفريط فيه بحجج واهية، وحسبنا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم الواضحة لطالب الزواج، والتي وضعت أمامه المعيار الذي لا يخطئ:

«**فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

فإذا كان هذا هو التوجيه النبوي فكيف يترك المسلم الملتزم ليتزوج بامرأة مستهترة تنغص عليه عيشه، وتغدو حجر عثرة في طريقه، بدل أن تكون عونًا له؟ مع أن الطبيعي أن ينجذب إلى مَن تكون على شاكلته فشبيه الشيء ينجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع.

ومثل هذا يقال للفتاة المسلمة ولأهلها عندما يتعرض لها الخطاب، فالواجب تخير صاحب الدين الذي يرعى حقها، ويتقي الله فيها، ويعينها على التزامها، ويضع يده في يدها للعمل معا في خدمة الإسلام، وفي هذا جاء الحديث الشريف: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**».

أما الزواج من مستهتر بدعوى أن تعمل على صلاحه وهدايته، فهي نية طيبة ولكنها مخاطرة كبيرة، لا تؤمَن نتائجها، والمعهود أن يحاول هو التأثير عليها، فإن لم يستطع نكد عليها وأزعجها بجوه الغريب عنها، وأصدقائه البعيدين عن الإسلام، وهذا ما حذر منه السلف حين قالوا: من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها!

وقالوا: إذا زوجت ابنتك فزوجها ذا دين، إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها.

ومن هنا أؤكد أن المنهج المقبول والميسور هنا أن يبحث المسلم الملتزم وتبحث المسلمة الملتزمة عمن يشابهه ويلتقي معه في التزامه وتفكيره وسلوكه، بل يحسن أن يكون كلاهما متقاربين في نمط التفكير والاتجاه حتى

لا يعيشا حياتهما في جدل دائم، قد يؤدي في النهاية بحياتهما المشتركة.

هذا هو منطق الفطرة، ومنطق الواقع، ومنطق القرآن: **{وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ}** [النور: 26].

* * *

تزويج الأب ابنته بغير رضاها

* يقال بأن الشافعية يبيحون للأب تزويج ابنته البكر البالغة بدون رضاها، إذا كان هذا صحيحًا فهل يتفق مع المنهج الإسلامي العام في اشتراط موافقة الفتاة المسبقة؟ وهل يشترط الولي دائمًا في عقد الزواج؟

** من الواجب إزاء هذا السؤال المهم أن نقرر عدة حقائق:

أولًا: هنا قاعدة أساسية لا يختلف فيها اثنان وهي أن كل مجتهد يصيب ويخطئ، وأن كل واحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، والإمام الشافعي إمام عظيم من أئمة المسلمين، ولكنه بشر غير معصوم، وقد قال هو عن نفسه: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، كما روى عنه قوله: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وفي رواية: «فاضربوا بقولي الحائط».

ثانيًا: من الإنصاف للمجتهدين أن نضع آراءهم في إطارها التاريخي، فإن المجتهد ابن بيئته وزمنه، ولا يمكن إغفال العنصر الذاتي للمجتهد، وقد عاش الإمام الشافعي في عصر قلما كانت تعرف الفتاة عمن يتقدم لخطبتها شيئًا إلا ما يعرفه أهلها عنه، لهذا أعطى والدها خاصة حق تزويجها ولو بغير استئذانها، لكمال شفقته عليها وافتراض نضجه وحسن رأيه في اختياره الكفء المناسب لها، وانتفاء التهمة في حقه بالنسبة لها.

ومن يدري لعل الشافعي رضي الله عنه لو عاش إلى زماننا ورأى ما وصلت إليه الفتاة من ثقافة وعلم، وأنها أصبحت قادرة على التمييز بين الرجال الذين يتقدمون إليها، وأنها إذا زوجت بغير رضاها ستستحيل حياتها

الزوجية إلى جحيم عليها وعلى زوجها، لعله لو رأى ذلك لغير رأيه كما غيره في أمور كثيرة، فمن المعلوم أنه كان له مذهبان: أحدهما: قديم قبل أن يرحل إلى مصر، والثاني: جديد بعد أن انتقل إلى مصر واستقر فيها ورأى فيها ما لم يكن قد رأى، وسمع فيها ما لم يكن قد سمع، وأصبح من المعروف في كتب الشافعية: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد.

ثالثًا: أن الشافعية شرطوا لتزويج الأب ابنته البكر بغير إذنها شروطًا منها:

1- ألا يكون بينه وبينها عداوة ظاهرة، كطلاق أمها، أو نحو ذلك.

2- أن يزوجها من كفء.

3- أن يزوجها بمهر مثلها.

4- ألا يكون الزوج معسرًا بالمهر.

5- ألا يزوجها بمن تتضرر بمعاشرته كأعمى وشيخ هرم ... إلخ.

وفي هذه الشروط تخفيف لبعض آثار الإجبار، ولكنها لا تحل المشكلة من جذورها.

بعد هذا نقول: قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم جملة أحاديث توجب استئمار الفتاة أو استئذانها عند زواجها فلا تزوج بغير رضاها، ولو كان الذي يزوجها أباها، منها ما في الصحيح: «**لا تُنكح البكر حتى تُستأذن**» قالوا: كيف إذنها؟ قال: «**أن تسكت**»، «**البكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صمتها**»، «**الثيب أحق بنفسها، والبكر يستأذنها أبوها**».

وفي السنن في حديث ابن عباس: أن جارية بكرًا أتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة، فخيرها النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن عائشة: أن فتاة دخلت عليها، فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، وأنا كارهة، قلت: اجلسي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها، فقالت: يا رسول الله، قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من الأمر شيء.

والظاهر من حالة هذه المرأة أنها بكر، كما قال صاحب «سبل السلام»، ولعلها البكر التي في حديث ابن عباس، وقد زوجها أبوها كفئًا – ابن أخيه – وإن كانت ثيبًا، فقد صرحت أن ليس مرادها إلا إعلام النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء! ولفظ «النساء» عام للبكر والثيب، وقد قالت هذا عنده صلى الله عليه وسلم فأقرها عليه.

وكأن هذه الفتاة الراشدة البصيرة أرادت أن توعي بنات جنسها بما جعل لهن الشارع من الحق في أنفسهن، حتى لا يتسلط عليهن بعض الآباء أو مَن دونهم من الأولياء، فيزوجوهن بغير رضاهن لمن يكرهنه ويسخطنه.

وقال الإمام الشوكاني في «نيل الأوطار»، ظاهر الأحاديث أن البكر البالغة إذا تزوجت بغير إذنها لم يصح العقد، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري والعترة والحنفية، وحكاه الترمذي عن أكثر أهل العلم.

وقبل الشوكاني قال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه: إن استئذان البكر

البالغ واجب على الأب وغيره وإنه لا يجوز إجبارها على النكاح وإن هذا هو الصواب، وهو رواية عن أحمد واختيار بعض أصحابه، وهو مذهب أبي حنيفة وغيره ... وقال: إن جعل البكارة موجبة للحجر مخالف لأصول الإسلام، وتعليل الحجر بذلك تعليل بوصف لا تأثير له في الشرع.

وقال الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» بعد ذكر ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم من وجوب استئذان البكر: وموجب هذا الحكم: ألا تُجبر البكر البالغ على النكاح، ولا تزوج إلا برضاها، وهذا قول جمهور السلف ومذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايات عنه، وهو القول الذي ندين الله به، ولا نعتقد سواه، وهو الموافق لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره ونهيه، وقواعد شريعته ومصالح أمته .. وأفاض في بيان ذلك رضي الله عنه.

وهذا أيضًا ما أدين الله به، ولا أعتقد سواه، وإن قال مَن قال بخلاف ذلك.

وأما تزويج المرأة نفسها بغير إذن وليها، فهو جائز عند أبي حنيفة وأصحابه إذا تزوجت كفئًا، حيث لم يصح عندهم حديث في اشتراط الولي، وهذا أيضًا عند الظاهرية في شأن الثيب، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم: «**والثيب أحق بنفسها من وليها**».

ورأي الجمهور أن الولي شرط للزواج أخذًا بحديث: «**لا نكاح إلا بولي**»، وغيره من الأحاديث، والحكمة في هذا أن يتم الزواج بتراضي الأطراف المعنية كلها، وحتى لا تكون المرأة إذا تزوجت بغير إذن أهلها تحت رحمة الزوج وتسلطه حيث لم يكن لأهلها رأي في زواجها.

وعلى كل حال إذا قضى قاض بصحة هذا الزواج فهو صحيح، ولا يملك

أحد نقضه كما قال ابن قدامه في «المغني».

* * *

الإسلام وعمل المرأة

* عمل المرأة إلى أي مدى ينبغي أن يكون، وهل من الضروري حصره في مجالات معينة؟

** عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع، ولا ينافسها فيه منافس، هو تربية الأجيال، الذي هيأها الله له بدنيًا ونفسيًا، ويجب ألا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان، فإن أحدًا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير، الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها وهي الثروة البشرية، ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها/أعددت شعبًا طيب الأعراق

وهذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرَّم شرعًا، فليس لأحد أن يحرم بغير نص شرعي صحيح الثبوت، صريح الدلالة، والأصل في الأشياء والتصرفات العادية الإباحة كما هو معلوم.

وعلى هذا الأساس نقول: إن عمل المرأة في ذاته جائز، وقد يكون مطلوبًا إذا احتاجت هي إليه، كأن تكون أرملة أو مطلقة ولا مورد لها ولا عائل وهي قادرة على نوع من الكسب يكفيها ذل السؤال أو المنة.

وقد تكون الأسرة هي التي تحتاج إلى عملها كأن تعاون زوجها، أو تُربي أولادها، أو إخوتها الصغار، أو تساعد أباها في شيخوخته، كما في قصة ابنتي الشيخ الكبير التي ذكرها القرآن الكريم في سورة القصص وكانتا

تقومان على غنم أبيهما: **{قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}** [القصص: 23].

وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب النساء وتمريضهن وتعليم البنات، ونحو ذلك من كل ما يختص بالمرأة، فالأولى أن تتعامل المرأة مع امرأة مثلها، لا مع رجل، وقبول الرجل في بعض الأحوال يكون من باب الضرورة التي ينبغي أن تقدَّر بقدرها، ولا تصبح قاعدة ثابتة، وإذا أجزنا عمل المرأة فالواجب أن يكون مقيدًا بعدة شروط:

1- أن يكون العمل في ذاته مشروعًا، لا تشوبه شائبة إثم، فلا يجوز لمسلمة أن تعمل في ملهى أو مرقص أو سكرتيرة خاصة لرجل يقتضي عملها معه الخلوة بها متى شاء.

2- أن تلزم أدب المرأة المسلمة إذا خرجت من بيتها: في الزي والمشي والكلام والحركة: **{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}** [النور: 31]، **{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ}** [النور: 31]، **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا}** [الأحزاب: 32].

3- ألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها، كواجبها نحو زوجها وأولادها وهو واجبها الأول وعملها الأساسي.

* * *

التضامن الإسلامي

* الدعوة إلى التضامن الإسلامي هل هي دعوة حديثة أم هي دعوة عريقة قديمة؟ وما واجب المسلمين لتحقيق التضامن الإسلامي؟

** الدعوة إلى التضامن الإسلامي دعوة حديثة، فقد كان المسلمون في غنى عنها يوم كان لهم دولة واحدة، تجمع شتاتهم، وتوحد صفهم تحت راية الخلافة، فلما نجحت المؤامرات اليهودية والصليبية في هدم قلعة الخلافة العثمانية التي كانت تمثل آخر تجمع للأمة الإسلامية تحت علم العقيدة الإسلامية، على ما كان بها من عيوب ونقاط ضعف، وبعد زوال الخلافة، وظهور الدول القومية، وبروز النزعات العنصرية والإقليمية حدث فراغ كبير، في العلاقات بين المسلمين بعضهم وبعض.

وشعر المخلصون أن العالم الإسلامي في حاجة إلى صيغة تقرب بين أبنائه، وتجمعهم صفًا في مواجهة الشدائد والنكبات التي تنزل بهم باعتبارهم مسلمين لهم عقيدة واحدة، وقِبْلة واحدة، ومهددون بأخطار واحدة، ولهم آمال ومصالح مشتركة.

فهذا التضامن هو الصيغة البديلة للوحدة الإسلامية، وهو بديل أدنى وأضعف بلا شك، ولكن أفضل من لا شيء.

وإن كان يؤخذ عليه أنه لم يستطع أن يثبت وجوده حتى الآن في القضايا الكبرى مثل قضية الزحف الشيوعي الأحمر على أفغانستان، أو الحرب بين العراق وإيران، أو مساندة الأقليات الإسلامية المضطهدة في كثير من البلدان، إلى غير ذلك من القضايا الإسلامية، وإذا كان تضامن العرب – وهم

الدائرة الأضيق – فيما بينهم قد أصيب في السنوات الأخيرة بما أصيب به إلى حد الجفاء والتعادي، وربما الاقتتال! فلا غرو أن يكون التضامن الإسلامي – وهو أوسع دائرة – على هذا الحال الذي نراه.

ولكنا لا نيأس أن يقوى هذا التضامن مع الأيام، كلما قوي الوعي الإسلامي ونما شعور الأخوة الإسلامية، وطغى ذلك على العصبيات القومية والوطنية الضيقة، وانكشف زيف المذاهب والحلول المستوردة التي فرقت الأمة بين يمين ويسار، وبين شرق وغرب، وتحرر إلى كينونة الأمة الكبرى التي تستطيع بإمكاناتها المادية والبشرية والروحية أن تكون القوة الثالثة، التي تحفظ التوازن في العالم وتقدم إليه قارورة الدواء وسفينة الإنقاذ، بعقيدتها ونظامها الرباني والإنساني العالمي المتوازن، الذي يصل الأرض بالسماء ويربط الدنيا بالآخرة، ويمزج بين المادة والروح، ويوازن بين حرية الفرد ومصلحة المجموع.

* * *

نظرة الإسلام إلى الجنس

* يلاحظ في المجتمعات المتحضرة والمتخلفة التهافت على قضايا الجنس وما يتبعها من مفاسد ورذائل .. فما هو العلاج الحاسم لهذا الفساد الجنسي؟

** بعض الأديان ينظر إلى الجنس على أنه نجس أو قذر، ينبغي أن يتنزه عنه الصالحون والصِدِّقون، وأن الحياة المثالية للمتدين هي حياة الرهبانية.

وفي مقابل هؤلاء نجد الحضارة الغربية الحديثة التي أطلقت العنان للغرائز الجنسية، حتى غدا الناس في ظلها يكادون يتسافدون في الطرقات.

وقد كانوا يزعمون في أول الأمر أنهم إذا أطلقوا الحرية الجنسية، يحلون عقد الكبت والحرمان، ويعيشون حياة الاستمتاع بلا خوف ولا خجل .. ولكنهم مع كل ما صنعوا لم تنته مشكلاتهم بل زادت تعقيدًا، ولم يحدث الري المتوقع، بل ازداد العطش والتكالب، وغدت الفتاة الجميلة مجالًا للصراع إلى حد الاقتتال عليها، والمحرومة من الجمال تضطر لتلقي بنفسها في أقذر المواقع، وانتشرت الأمراض الجنسية التي تهدد بأوخم العواقب مثل «الإيدز» الذي يفقد الجسم المناعة ويعرضه لأخطر الأدواء.

ولا غرو أن قال أحد الكتاب الأمريكيين: «إن خطر الطاقة الجنسية قد يكون في نهاية الأمر أكبر من خطر الطاقة الذرية».

وينبه المؤرخ الشهير أرنولد توينبي إلى أن شيوع الجنس وسيطرة الغرائز الجنسية يمكن أن يؤدي إلى تدهور الحضارات.

وهذا ما حذر منه الإسلام أشد التحذير، وخصوصًا من الاختلال

الاقتصادي، والانحلال الجنسي كما في حديث: «**ما ظهر الزنا والربا في قرية إلا حل بها عذاب الله**».

وحديث: «**ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يُعمل بها فيهم علانية إلا سلط الله عليهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم**».

وموقف الإسلام من الجنس في غاية الحكمة والاعتدال، فهو لا يرفض الجنس ولا يستقذره، ولكن يوجهه الوجهة النافعة للفرد والمجتمع، وذلك عن طريق الزواج المشروع الذي يربط بين رجل وامرأة برباط مقدس، به تتكون الأسرة الصالحة التي هي نواة المجتمع الصالح، وفي هذه الحالة من حق الزوجين أن يستمتع كلاهما بالآخر، حتى إن الإسلام ليعتبر ذلك عبادة وصدقة: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** [البقرة: 187] .. وفي الحديث الصحيح: «**وفي بُضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «**أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر؟**» قالوا: بلى، قال: «**كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر. أتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير؟!**». والإسلام ييسر الزواج ويعين عليه، ويزيل العوائق من طريقه، ويرغب في يسر المهر، وتسهيل كل صعب.

كما يجتهد في سد طريق الحرام، عن طريق تطهير المجتمع من أسباب الفساد والإغراء، مثل التبرج والاختلاط المتحلل، والصور المثيرة، والقصص الخليعة، والأغاني المائعة، وغير ذلك. كما يُعاقب كل من يجاهر بتعدي حدود الله، ويرتكب الفاحشة علانية، أو يروج لها بصورة من الصور.

وقبل ذلك يُربَى المسلم والمسلمة على الطهارة والعفة والإحصان، وخشية الله تعالى ومراقبته، التي تجعله يرفض الحرام وإن فُتح له إليه ألف باب وباب، قائلًا: إني أخاف الله رب العالمين، حتى يكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إله ظله.

* * *

الدين والدولة

* نلاحظ أن بعض علماء المسلمين قديمًا وحديثًا يبتعدون عن المشاركة في أعمال الدولة .. على ماذا يدل ذلك؟

** الإسلام لا يفصل بين الدين والسياسة، كما تفعل أديان أخرى، ولا يرى أن شطر الحياة لقيصر، والشطر الآخر لله، بل يرى أن قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد .. ولذا لا يقبل قسمة الحياة كما لا يقبل قسمة الإنسان، وليس من مفاهيم الإسلام ولا أحكامه أن تكون هناك سلطتان مستقلتان، إحداهما: روحية تختص بشئون الدين، والأخرى: زمنية تختص بأمور السياسة .. وإنما سلطة واحدة وكيلة عن الأمة ومنفذة لشرع الله الذي يشمل الدين والدنيا معًا.

ولا يقبل الإسلام أن يكون دينًا لا سياسة فيه، كما لا يرضى سياسة لا دين لها. ولا يجوز في نظر الإسلام أن يكون أهل السياسة جاهلين بالدين أو منحرفين عنه، كما لا يجوز لأهل الدين أن يكونوا جاهلين بسياسة أمتهم وقضايا أوطانهم، ومَن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم، وواجب النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم التي هي الدين كله كما في الحديث الصحيح. وواجب التواصي النجاة من خسران الدنيا والآخرة وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أساس خيرية هذه الأمة .. كل هذا يقتضي من المسلم ألا يعيش في صومعة منعزلًا عن آلام أمته ومعاناتها، متلذذًا بعباداته أو قراءاته دون مشاركة فيما يوجبه انتماؤه إليها، وولاؤه لها: **{وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ}** [التوبة: 71].

ومع هذا لا يزال هناك مسلمون متدينون يرون أن حسبهم من الدين أن يقيموا شعائر العبادات الشخصية، ولا يهمهم تحررت أرض الإسلام أو لم تحرر، حكمت شريعة الإسلام أم لم تحكم، عز المسلمون أم ذلوا، اتحدوا أم تمزقوا، قامت خلافة الإسلام أم هدمت .. ولا ريب أن هذا كله من سوء الفهم لرسالة الإسلام، وشمولها لكل جوانب الحياة، وهو فهم متأثر بمعنى الدين في النصرانية وغيرها.

كما أن هناك أسبابًا أخرى جعلت بعض المسلمين الفاهمين لشمول الإسلام، والذين عملوا لقضاياه العامة يعزفون في بعض الأحيان عن العمل السياسي، من ذلك: أن السياسة تقوم في الغالب على المناورة واللف والدوران، وطبيعة التدين تأبى إلا الصراحة والصدق والخط المستقيم، ولهذا يجد المتدين نفسه غريبًا في دنيا السياسة وتياراتها وألاعيبها، ولا يتقن أن يحاربهم بمثل ما يحاربونه به فيلوذ بالفرار ناجيًا بنفسه.

وناحية أخرى: إن معظم البلاد الإسلامية يغيب فيها معنى الشورى أو الديمقراطية، وتُحكم الشعوب فيها بغير إرادتها، ولا يؤتى العمل السياسي فيها ثمرته لعوامل داخلية وخارجية، ولهذا تُجهض كل المحاولات التي تعمل لتغيير الأوضاع العوج، إلى أوضاع إسلامية مستقيمة.

وطالما رأى الناس حركات إسلامية كبرى عملت وجاهدت وقدمت تضحيات جمة، ولم تصل في النهاية إلى ما تريد من الإصلاح والتغيير، برغم ما دفعت من ثمن باهظ، ولعل هذا ما جعل المصلحين الإسلاميين في خاتمة مطافهم يعودون إلى حقل التربية والتثقيف والتوجيه، والبداية من أول السلم من إصلاح الفرد، الذي هو أساس إصلاح المجتمع، وترك السياسة بما

فيها من مهازل ومآس تُضحك وتُبكي، ولعل هذا سر ما روي عن الأستاذ الإمام محمد عبده من قوله: أعوذ بالله من السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس!

ورأيي أن الواجب على أهل الدين ألا يدعوا أمور السياسة للعلمانيين والماركسيين وغيرهم، ممن يكرهون الإسلام، أو يجهلونه، أو لا يهمهم أمره، والحق أن أمر السياسة من الخطورة بحيث لا ينبغي أن يُترك لهؤلاء وحدهم وهم الذي بيدهم توجيه أزمة التعليم والإعلام والثقافة والتشريع وسائر نواحي الحياة التي تضع للناس مفاهيمهم ومشاعرهم وتقاليدهم وأنظمتهم جميعًا.

ولن ترقى شعوبنا إلى مصاف الأمم المتحضرة إلا إذا شاركت جماهيرنا في سياسة أوطانها ولم تدع أمورها لحفنة من الناس – عسكريين أو مدنيين – يلعبون بمصايرها كما يشاءون وهي بمعزل عما يجري، كما قال الشاعر عن «تيّم»:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيّم/ولا يُستأذنون وهم شهود!

* * *

الدجال والحضارة الحديثة

* هناك من يقول إن الحضارة الصناعية الفنية الحديثة هي الدجال الذي ورد ذكره في أحاديث الرسول الكريم محذرًا أمته منه .. ما تعليق فضيلتكم على هذا القول؟

** الحضارة الصناعية الغربية الحديثة لها مزايا كثيرة لا ينكرها إلا مُكابر، فقد قامت على مجموعة من القيم الاجتماعية المهمة مثل: إتقان العمل، والنظام والتعاون، وحسن الإدارة واحترام العِلم القائم على الملاحظة والتجربة، وقد سهلت للإنسان الاستفادة من العلم عن طريق التكنولوجيا الهائلة التي شهدها عصرنا، وبذلك اختصرت الزمن، وطوت المسافات، وقربت بين أطراف العالم، حتى أصبح العالم الكبير كأنه قرية واحدة.

واستطاعت هذه الحضارة أن توفر المجهود البدني للإنسان عن طريق الآلة، ثم في رحلتها الثانية استطاعت أن توفر مجهوده الذهني عن طريق هذا الجهاز العجيب «الكومبيوتر».

ولكن هذه الحضارة ينقصها جانب مهم، لم تلتفت كثيرًا إليه، وهو الجانب الرباني أو الروحي في حياة الإنسان، إنها عنيت بالجانب المادي، وأغفلت جانب الروح، وبهذا عمرت الأرض، وخربت الإنسان، هيأت له وسائل الرفاهية والمتعة ولم تهيئ له أسباب السكينة والطمأنينة؛ لأن مصدر هذه هو الإيمان. وهذا لا يعنيها لأن أكبر همها محصور في تحسين الوسائل والأدوات، وليس في تحقيق المقاصد والغايات! ولهذا كانت حضارة مبتورة ناقصة بحكم نشأتها وظروفها التاريخية، حيث كانت الكنيسة الغربية التي

تمثل الدين هناك قد وقفت عائقًا في سبيل التقدم والتحرر والإبداع.

وقفت مع الجهل ضد العلم، ومع الجمود ضد التطور، ومع العبودية ضد التحرر، ومع الملوك ضد الشعوب .. فثارت عليها الجماهير قائلة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس!

ومن هنا كانت هذه الحضارة جديرة أن توصف بأنها ليست حضارة المسيح ابن مريم، وإنما هي حضارة المسيح الدجال، فهو أعور، وهي حضارة عوراء.

على معنى أنها تنظر إلى الحياة والإنسان والكون من ناحية واحدة، وهي الناحية المادية، وتنسى أن للكون إلهًا، وأن للإنسان روحًا، وأن للحياة غاية هي الإعداد لحياة أخرى هي خير وأبقى، وليس معنى مثل هذا الكلام أن هذا هو التفسير المراد من «المسيح الدجال» الذي ورد في الأحاديث النبوية الصحيحة وحذر منه النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو من باب التفسير «الإشاري» والذي يذكره بعض علماء التفسير، وهو غير التفسير الحقيقي المبيِّن للمراد بالنص.

فمن المعلوم الذي لا يخفى على دارس للحديث أن «الدجال» الذي وردت به النصوص إنما هو شخص من البشر، يخرج على الناس مدعيًا الألوهية ويملك من أساليب التأثير ما يمكنه من إضلال بعض الناس، وفتنتهم عن دينهم ولكن المؤمنين قد عرفوه قبل أن يوجد، فلا تزيدهم خوارقه وألاعيبه إلا إيمانًا مع إيمانهم، ويقينًا بحقهم، ولو نالوا في سبيل ذلك الشهادة.

وليس من المنطق العلمي في شيء أن نرد الأحاديث التي استفاضت

وثبتت صحتها وتلقتها الأمة في سائر عصورها بالقبول، كما لا يجوز لنا أن نؤَوِّلها تأويلًا يبطل معناها ويخرجها عن ظاهرها المتبادر للفهم بلا حجة. كما هو شأن الباطنية الذين أهدروا رسالة اللغة حين فسروا ألفاظها بحسب أهوائهم ومعتقداتهم الخاصة لا بحسب دلالتها الوضعية، فأفسدوا بذلك اللغة والدين جميعًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

حديث عن الدعوة والدعاة[18]

* سألت الشيخ يوسف القرضاوي ونحن بصدد هذا الحوار: من أين نبدأ؟

** قال: نبدأ من القرية، فأنا ابن الريف وابن الأزهر وابن القرآن، أنا ابن تلك الأسرة القروية البسيطة التي تصحو على الأذان وتنام على كلمات الله ولا يعرف أبناؤها طريقًا إلى التعليم في غير الأزهر الشريف.

وما أعذب كلمات الشيخ بعد ذلك وهو يتحدث عن رحلته وتعليمه ومسيرة أيامه مع كتاب الله، ولكنه وهو يبدأ في الحديث عن نقطة التحول في حياته حين قدِّر له أن يلتقي بدعوة الشيخ حسن البنا فيتحول بها ومعها من التدين الفردي إلى الدعوة العامة، يختلج صوته وترف الكلمات على شفتيه وكأنها تخرج من قلبه ويسترسل في حديث عذب فيه من الصدق بقدر ما فيه من العمق والإلهام.

وهنا – حين بدأ الشيخ يتحدث عن الدعوة والدعاة – كان لا بد أن يبدأ هذا الحوار.

ولكن الشيخ يوسف القرضاوي تحرج كثيرًا وهو يتحدث عن جهوده في ميدان الدعوة، وقال: إن الحديث عن النفس شيء ثقيل، فالله تعالى يقول: **{فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ}** [النجم: 32]. وظني أن أعظمنا جهدًا لم يقدم لدينه شيئًا يذكر قياسًا إلى ما قدمه وقام به أئمتنا وعلماؤنا السابقون، لقد شرفنا الله بالإسلام، وحقيق بنا أن نكون على مستوى هذا الشرف الرفيع، فهل قدمنا

---

(18) حوار أجراه الأستاذ خلف السليمان في البحرين، ونشر في مجلة «المسلمون» في 6 من شهر رجب سنة 1412 هـ (10 من شهر يناير سنة 1992 م).

نحن للإسلام ما ينبغي أن نقدمه؟ هل فعلنا من أجل ديننا هذا ما فعله ويفعله الآخرون لأديانهم؟

* قلت: أنت تنكر نفسك يا شيخ، فأنت تعيش في ساحة الدعوة منذ خمسين سنة، وقد أثريت المكتبة العربية بشيء غير قليل من الكتب الأمهات.

** قال: بل هذا جهد المقل، فبرغم كل ما قدمته من كتب إلا أن لدي منها عددًا لم يكتمل، وبعضها بدأت الكتابة فيه قبل عشرين سنة ولم أكمله إلى الآن، ولدي مشروعات متعددة لأكثر من كتاب ولكن وقتي وطاقتي لا يسعفاني لإنجازها.

* قلت: إن كتبك الموجودة تلقى رواجًا كبيرًا وتسد جانبًا هامًا في المكتبة الإسلامية فكيف تراها؟

** قال: هذا من فضل الله تعالى وتوفيقه فله وحده الشكر .. أما الفضل الأكبر ففي انتشار هذه الكتب وإعادة طبعها مرات متعددة إلى حد أن كتابًا مثل «الحلال والحرام» طبع أكثر من أربعين مرة، وقال البعض عن كتاب «فقه الزكاة» إنه كتاب القرن في الفقه الإسلامي.

* قلت: لقد تنوعت هذه الكتب ما بين التفسير والحديث إلى الفقه والأصول والدعوة والفكر الإسلامي، ولكني قد أذكر هنا كتاب «ثقافة الداعية» لأننا أحوج ما نكون إلى هذه الكتب المتزنة التي تتحدث عن الدعوة والدعاة فكيف ترى أبعاد هذه القضية من خلال واقع الصحوة الإسلامية اليوم؟

** قال: يحتاج الداعية إلى عدد من الصفات حتى يستطيع أن يقوم بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بطريقة تؤدي إلى بلوغ الهدف، ولكن، ما هو

الهدف من الدعوة؟

الهدف هو هداية البشر إلى الإسلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والأخذ بأيدي الناس إلى الله سبحانه وتعالى لحشدهم في ساحة الإسلام الصحيح حتى يرتبطوا بهذا الدين الحق علمًا وعملًا وخُلُقًا وفكرًا وسلوكًا، ذلك ما نريده على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة كلها، وتلك مهمة جليلة لا بد أن يستشعر الداعية خطورتها وأهميتها معًا، مما يستوجب التهيؤ لها بكل الأسلحة الشرعية والفكرية والخلقية جميعًا.

* قلت: تلك مواصفات صعبة؟

** قال: نعم، إنها في صعوبة المهمة الكبرى نفسها، إذ أن الداعية لا بد أن يتمتع بميراث النبوة أو بشيء منه ابتداء من الرحمة بالصغير والتقدير للكبير وانتهاء بالاستعداد للإجابة عن كل سؤال من الناس: **{لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ}** [التوبة: 128].

* * *

شباب الدعوة

* قلت: هل يتمتع شباب الدعوة أو شباب الصحوة بهذا الميراث العظيم؟

** قال: على شباب الدعوة مراجعة أنفسهم وعليهم أن يتواضعوا قليلًا وأن يستفيدوا ممن قبلهم من الصحابة والعلماء، عليهم ألا يستعلوا على أحد وألا يزكوا أنفسهم، وبحسب الإنسان من الشر أن يحقر أخاه المسلم وأن يسيء الظن بالآخرين. إن الاجتهادات تختلف، والساحة تتسع للجميع، ومن اجتهد في أمر وبذل وسعه فيه فهو دائر بين الأجر والأجرين.

* قلت: ولكن شباب الصحوة أو شباب الدعوة هؤلاء يواجهون بمعوقات كثيرة؟

** قال: نعم إن المعوقات أكثر من أن تحصى، وهي معوقات خارجية وداخلية أيضًا.

* قلت: ما هي المعقوات الخارجية كما تراها؟

** قال: هناك مخططات تتآمر على الإسلام ومن أهمها وأظهرها المخططات اليهودية والصليبية والشيوعية والإلحادية والماسونية والعلمانية. وقد أسفرت هذه المخططات كلها عن نفسها بشكل فاضح مع بروز الصحوة الإسلامية في السنوات العشرين الأخيرة، وهدفها واضح بالطبع وهو إجهاض هذه الصحوة وتعويق مسيرتها وتخويف أولي الأمر منها.

* قلت: وكيف يمكن مواجهة هذه المؤامرة الخارجية الشاملة؟

** قال: بالتصدي لها، ولكن من خلال عملية عقلانية شاملة حتى يفهم

الجميع حقيقة هذه الصحوة. وفي هذا الإطار فأنا أدعو دائمًا إلى الحوار مع غير المسلمين على مستويات متعددة:

أولًا: على المستوى الديني مع رجال الأديان الآخرين لنبيِّن لهم حقيقة الإسلام، وأن بيننا وبينهم مجالًا مشتركًا يمكن أن نعمل فيه معًا، ضد الإلحاد والانحلال.

ثانيًا: على المستوى الفكري مع المستشرقين والمفكرين الأجانب لأنهم أقدر على الحوار العقلي.

وثالثًا: على المستوى السياسي مع مَن يصنعون القرار في الغرب.

والهدف من هذا الحور المتصل مع هذه الحلقات الثلاث هو أن نبين لخصوم الإسلام حقيقة هذا الدين القيم، وأن نرد على أباطيل المبطلين وأكاذيب المفترين؛ لأن كثيرًا مما يُنسب إلى الإسلام ليس من الإسلام في شيء، فهم يريدون أن يأخذوا من أحوال المسلمين – الذي يجهلون الإسلام – حجة على الإسلام نفسه، وهنا ينبغي أن نقول: إن المسلم ليس حجة على الإسلام ولكن الإسلام حجة على المسلمين.

* * *

المعوقات الداخلية

* قلت: هذا عن معوقات الدعوة من الخارج، فماذا عن معوقاتها الداخلية؟

** قال: إن هذه المعوقات الداخلية ليست أقل خطرًا من المعوقات الخارجية، وإن كان بعضها أثرًا من آثارها، ومن أهم هذه المعوقات عقوق بعض الحكام وعملهم ضد الدعوة الإسلامية. فمن هؤلاء الحكام مَن لم يترب على الإسلام، ومنهم من نشأ في أحضان الشيوعية والصليبية، وهؤلاء يكرهون الإسلام أو يعادونه؛ لأنهم لا يعرفون عنه شيئًا، ومن جهل شيئًا عاداه. ومن الحكام من لا يكرهون الإسلام ولكنهم يخافونه، وبعد هذا – أو قبله – فإن علينا أن ننظر في أنفسنا، ونقوم بما يسمى بالنقد الذاتي؛ لأن فينا أخطاء، ونحن لسنا ملائكة مطهرين ولا أنبياء معصومين، نحن بشر نجتهد في خدمة الإسلام ولكننا قد نخطئ، ولا بد من أن نقوِّم أنفسنا من داخلنا.

* قلت: قد تكون المشكلة بحق هي هؤلاء الحكام الذين لم يتربوا على الإسلام، مما يوجد بينهم وبين العلماء صراعًا على نحو ما، فكيف ترى هذه العلاقة بين العلماء والحكام؟

** قال: الصراع بين العلماء والحكام في بعض البلدان ليس صراعًا مفتعلًا، ولكنه حقيقة واقعة، خصوصًا مع هؤلاء الحكام الذين يضمرون العداء لا للعلماء فقط، بل للإسلام نفسه، ومثل هؤلاء الحكام اللادينيين قد يسمحون للشيوعيين والكفرة بكل شيء ولا يسمحون للمسلمين بأي شيء، فكيف يمكن أن تكون العلاقة مع هؤلاء.

ولكن هناك نوعًا آخر من الحكام الذين يعرفون حق الله في شعوبهم،

وهؤلاء لا بد أن تقوم بينهم وبين العلماء جسور من الود والتفاهم والثقة، بحيث يشعر الحاكم أنه في حاجة إلى نُصح العالم، ويشعر العالم بأن اقترابه من الحاكم فيه منفعة لدين الله، لا بد للعلاقة من شكل يحفظ للعلماء كرامتهم بحيث لا يُنظر إليهم على أنهم من المتهافتين على أبواب السلاطين أو المنافقين لهم، وقديمًا قالوا: «خير الأمراء مَن يزور العلماء، وشر العلماء من يزور الأمراء».

* قلت: ولكن ما أندر هؤلاء الحكام الذين يعرفون للعلماء أقدارهم؟

** قال: المفترض أن تكون هناك علاقة طيبة بين العلماء وولاة الأمر، ومصدر هذا التقدير يأتي من أن الأصل في الإسلام أن يكون الحاكم عالمًا، فقد كانوا يشترطون قديمًا في الإمام والخليفة والقاضي أن يكون مجتهدًا وليس مجرد عالم فقط.

وهكذا كان الخلفاء الراشدون كلهم من الأئمة المجتهدين، وفي مرحلة تالية قيل: إنه يجوز ألا يكون ولي الأمر مجتهدًا، بل ممن يستعين بالمجتهدين.

والمعنى هو أنه يجب على الحاكم أن يتودد لأهل العلم ويقربهم إليه ويزورهم في بيوتهم ويطلب منهم النصح ويسمع لمواعظهم ويستشيرهم في أموره، وهذا كله من دلائل قوة الحاكم وصلاحه واستقامته وفضله، ولكن الذي يحدث الآن – لأسباب ليس الآن مجال الخوض فيها – أن العلماء أصبحوا في جانب، والحكام في جانب آخر، وليس ثمة وسيلة للتواصل بينهما، الأمر الذي يفضي إلى كثير من التناقض وسوء الفهم.

ومن هنا فلا بد من أن تكون هناك وسيلة للحوار، ويتحقق هذا بمبادرة من

الحكام أنفسهم؛ لأن العالم لا ينبغي له أن يسعى إلى الحاكم إلا ناصحًا، والمناصحة هنا ليس معناها التشهير والمداهنة، بل إبلاغ كلمة الحق بالحكمة لا بالضعف، وبالطريقة التي تؤثر في النفس أبلغ التأثير، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدين النصيحة**»، ويقول: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا ـومن هذه الثلاث: أن تناصحوا من ولاه الله أموركم**».

* قلت: هذا حديث طويل عن هموم الدعوة والدعاة فإلى أين ينتهي؟

** قال: لعله ينتهي إلى الخير إن شاء الله بإعلاء كلمته في الأرض.

* * *

الجزائر واختيار الإسلام[19]

* بعد فوز جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر بأغلبية ساحقة في الجولة الأولى للانتخابات البرلمانية في الجزائر، كثرت التكهنات وتعالت الأصوات وعم اللغط في الأوساط الإعلامية والسياسية والدوائر المهتمة، في شبه حملة مسعورة على الإسلام والمسلمين في الجزائر، قد يكون لها ما يبررها عند الصليبيين واليهود والمشركين ومن والاهم، فهؤلاء أعداء لكل ما هو إسلامي، ولكن ليس من مبرر لها عند العرب والمسلمين الذين صوروا فوز الإسلاميين وكأنه ظلام يأتي من المغرب العربي، وأخذوا في عرض تفاصيل الصورة الظلماء بين تشدد ورجعية ودكتاتورية وغير ذلك مما ينبغي ألا يُنسب للإسلام وأهله، بل الواجب أن يُنسب لكل من يتربص بالإسلام والمسلمين الدوائر.

ولأن هذه الاتهامات والشكوك لا محل لها من الإسلام وأهله العاملين له، ولأن فوز الإسلاميين في الجزائر نقطة تسجل للإسلام الذي ضيع أبناؤه كل النقاط، فقد عرضنا الأمر برمته على فضيلة الداعية الكبير الدكتور يوسف القرضاوي، الذي انطلق من «صفط تراب» القرية التي ضم ثراها رفات آخر صحابي مات في مصر وهو الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله عنه، ليجوب بقاع الدنيا حاملًا رسالة الدعوة إلى الله عز وجل حتى أصبح عَلَمًا من أعلامها ورمزًا من رموزها في قرننا الحالي،

---

(19) أجرى هذا اللقاء الأستاذ محمود عوض المحرر بجريدة «العرب» القطرية في 9 يناير سنة 1991 قبل استقالة الرئيس الشاذلي بن جديد، ونشر في «العرب» في 14 يناير.

ليجلي ما عز على الأفهام من الوقائع، وليبين بوافر خبرته وقرب عهده بالشعب الجزائري ما دق من العبر والأحداث.

** قال فضيلته: بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد ..

فإن المرء ليعجب من هذه الحملة المسعورة ضد الجزائر وشعبها بعد ظهور نتائج الانتخابات في الجولة الأولى في الجزائر الشقيقة والتي أسفرت عن نجاح الجبهة الإسلامية للإنقاذ نجاحًا ساحقًا، وبفارق شاسع وجد شاسع بينها وبين القوى الأخرى حتى جبهة التحرير التي هي الحزب الحاكم، والتي أجرت الانتخابات عن طريق حكومتها، فالحكومة الجزائرية التي تمثل جبهة التحرير هي التي أجرت الانتخابات، ولا يسعنا هنا إلا أن نشيد بهذه الانتخابات الحرة، ونحن في بلادنا العربية نشكو إلى الله تعالى ونشكو إلى الضمير العالمي من تزوير الانتخابات، سئمنا التسعات الأربع (99.99) وإذا تواضع أحدهم جعلها(99.98) فهذا دل على نزاهة كبيرة!

ولذلك حينما تقوم انتخابات بهذه الصورة التي يُترك للشعب فيها أن يُعبر عن نفسه بحرية وبلا ضغط ولا إكراه ولا محاولات للتزييف، فلا يسع الإنسان إلا أن يُكبر هذا ويكبر الرجل الذي خطا هذه الخطوة بشجاعة وهو الرئيس الشاذلي بن جديد، وهذا واقع يجب أن نعترف به، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

حقيقة ذهبنا إليه مع فضيلة الشيخ الغزالي بعد سماحه بالتعدد في الجزائر وبعد احتكار للحكم دام مدة طويلة، احتكرته الاشتراكية الثورية الماركسية ..

شكرناه على هذا الموقف بالسماح بقيام حزب إسلامي علني حيث لم يُسمح بذلك في البلاد الإسلامية العربية بالذات الأخرى للأسف الشديد، أما هذه النتيجة فلا ينبغي أن يكون فيها استغراب.

نحن نقول في العلم الإسلامي حسب ما قرره علماؤنا: إن ما جاء على الأصل لا يُسأل عنه، إنما يُسأل عن علة ما جاء خلاف الأصل .. فهل رجوع الناس إلى الإسلام شيء يُستغرب؟ وخصوصًا بعد عصر الصحوة الإسلامية؟ .. ليس هذا بغريب .. إنما يكون غريبًا لو تم هذا في عصر التغريب والفرنسة حيث عاشت الجزائر 130 سنة تحت وطأة استعمار استيطاني لا يكتفي بمجرد الحكم ولا يكتفي باحتلال الأرض ولا يكتفي بانتهاب الخيرات، ولكنه يريد أن يلغي هوية الشعب، ولهذا حارب الإسلام والعربية معًا حتى لا يبقى دين ولا تبقى لغة .. الدين الذي هو أصل الشعب وأساس انتمائه واللغة هي وعاء الإسلام ولسانه .. وعاء حضارته ولسان ثقافته، ولكن ذهب هذا كله هباء وجفاء وبقي ما ينفع الناس، بقي الإسلام بفضل الله تعالى ثم بفضل أولئك العلماء المجددين المجاهدين المرابطين الذين أصروا أن يعيدوا الشعب إلى أصالته بواسطة المدارس الإسلامية المختلفة التي لقنوا فيها الشعب ما عبر عنه نشيد الشيخ عبد الحميد بن باديس:

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب

من قال: حاد عن أصله   أو قال: مات، فقد كذب

وبدأ الإسلام يجري في عروق الناس بقوة، وبدأت العربية تُتَعلم، وكان هذا نواة الجهاد ونواة التحرير فيما بعد، صحيح أن الإسلام زرع والعلمانية

حصدت، وهذا أمر جربناه كثيرًا في بلاد شتى، فالإسلام هو الذي يُحرك وهو الذي يدفع الشعوب لتبذل من دمها، وتضع رأسها على أكفها وتعطي في سبيل الله حتى تتحرر، فإذا تحررت كان هناك اللصوص المدربون على سرقة ثمار الثورات والحركات التحررية ليقطفوا هم الثمرة يانعة لم يتعبوا فيها ولم يكد لهم فيها يمين، ولم يعرق لهم فيها جبين، ولكن ما أن أتيحت الفرصة للشعب الجزائري ليعبر عن نفسه وليتنفس الصعداء بعد زوال حكم بومدين، حتى بدأت هذه الصحوة الإسلامية في البروز والظهور والانتشار حتى امتلأت بها المساجد والجامعات والمعاهد والمدارس، وامتلأ بهذا الشباب المؤمن المستقيم على منهج الله عز وجل، الغيور على دين الله، هذا الشباب الذي أريد له أن يُفَرْنَس يومًا ما، عاد إلى الإسلام بقوة، كأنما يثأر لنفسه من هذا الزمن الذي مضى وجُرِّد فيه من دينه وثقافته وحضارته، وأريد له أن ينسلخ من ذاتيته وشخصيته التاريخية، كأنما يريد أن يثأر من هذا الماضي، عاد الشباب بقوة وعادت الفتيات بقوة إلى الإسلام، وظهر الحجاب في الشوارع والطرقات والمدارس والكليات، وهذه حركة نسائية طوعية اختيارية لم يُكره فيها أب ابنته على هذا الالتزام ولا زوج زوجته، وإنما هي حاجة من بنات الإسلام للعودة إلى الإسلام، وحينما ذهب بعض العلمانيات والمتحللات من النساء يطالبن بإلغاء الشريعة الإسلامية من الأحوال الشخصية، هذه المئات كان يقابلها مسيرة مليونية، حوالي مليون من النساء المسلمات والفتيات المسلمات يطالبن بتحكيم الشريعة الإسلامية، كان هذا كله دليلًا على تحول حقيقي وتغير جذري في الشعب الجزائري .. تغيرت عقليته وتغيرت نفسيته وهذا التغير كان تغير عودة إلى الأصل، عاد إلى الجذور،

فلا عجب أن يظهر أثر هذا التغير وتظهر آثار هذه الصحوة التي رأيت بعض ثمارها في المحاضرات التي كان يحضرها عشرات الآلاف وأحيانًا تبلغ المئات، كنت أذهب إلى بعض المساجد فأجد الميادين والطرقات الموصلة إلى المسجد قد امتلأت، وعطلت المواصلات .. فهذا في حد ذاته استفتاء، وليس الانتخاب وحده هو المعَبِّر عن رأي الشعب .. المسيرات التي سارت للاحتجاج على أمور معينة منذ ظهرت الحرية ونمت هذه الصحوة ودلت على اتجاه الشعب، ماذا يريد؟

فلما كانت انتخابات البلدية قبل ذلك ظهر فوز التيار الإسلامي المتمثل في جبهة الإنقاذ في ذلك الوقت، وهو الذي لفت الأنظار إلى قوة هذا التيار في الشعب الجزائري، ثم لما جاءت هذه الانتخابات ظهر ذلك بوضوح وبدا ماذا يريد الشعب الجزائري.

أنا أقول: إن الشعب الجزائري لم ينتخب جبهة الإنقاذ لذاتها ولا لأشخاص القائمين عليها، فالحقيقة هذا اختيار للإسلام ولمنهج الإسلام، وجبهة الإنقاذ كل ما فعلته أنها وجدت فراغًا فملأته، كان هناك فراغ لا بد أن يملأ، لقد سئم الناس هذه الحلول المستوردة التي جنت على الأمة ما جنت، هذه المذاهب والأنظمة القادمة من الغرب ومن الشرق، سئم هذه الأنظمة التي جرت عليه الخراب والبطالة والانحلال والتبعية والمشكلات التي تتفاقم يومًا بعد يوم، ومضى الزمن لا يعالجها بل يعقدها، الشعب يريد أن يتحرر من هذا، ويريد أن يتخلص من الحكم القديم ومخلفاته كلها، فلم يطعم على يديه من جوع، ولم يأمن من خوف، ولم يسعد من شقاء، ولم يقو من ضعف .. فكان لا بد أن يتغير هذا كله .. يريد التحرر من هذا الماضي الذي جاء بعد التحرير، ولم

يربح شيئًا من ورائه لا لدينه ولا لدنياه، ويريد أن يكون هذا التغيير على أساس من الإسلام الذي رجع إليه، فجبهة الإنقاذ ملأت هذا الفراغ.

كان الناس يريدون أن يتخلصوا من هذا الشيء الظالم المظلم، ويريدون أن يتخلصوا بالإسلام، أن يكون المخلِّص هو الإسلام، وأن تكون الرجعة إلى الإسلام، فملأت هذا الفراغ، فالناس حينما اختاروا جبهة الإنقاذ لم يختاروا عباس مدني ولا على بلحاج ولا عبد القادر حشاني لذواتهم، وإنما اختاروا الإسلام، الحزب الذي يمثل الإسلام في نظرهم، فهذا اختيار لاتجاه، اختيار لمنهج جديد، ولهذا يجب أن تُحترم إرادة الشعب الجزائري، فالشعب أراد هذا بأغلبيته الساحقة، فلماذا يريد بعض الناس أن يتدخلوا في إرادة هذا الشعب، وأن يجبروه على غير ما يريد، والعجب كل العجب أن يأتي هذا ممن يزعمون أنهم يتكلمون باسم الديمقراطية، سواء في العالم الغربي أم في العالم العربي.

الذين يدعون إلى الديمقراطية ويتغنون بها هم أنفسهم الذين يريدون أن يلغوا ثمرة انتخابات جاءت في ظل الديمقراطية.

إذا جاءت الديمقراطية – حتى ولو كانت مزيَّفة – بالعلمانيين أو بالشيوعيين أو بأهل اليسار أو بأهل اليمين كانت مقبولة؟ وإذا جاءت بالإسلاميين أصبحت مرفوضة؟ أي منطق هذا؟! هل هذا منطق؟! يريدون أن تكون الديمقراطية لصالحهم فإذا جاءت في غير صالحهم رُفضت، ورأينا هذه الاستعداءات من هنا وهناك، التي تُحرِّض الجيش الجزائري على أن يتدخل بالقوة المسلحة وبالعنف الدموي، لإلغاء ما جاء عن طريق انتخاب حر قامت به الحكومة نفسها التي يمثلها هذا الجيش نفسه، معنى هذا أن هؤلاء

يريدون أن يوقعوا الشعب الجزائري بعضه ببعض، يريدون لهذا الشعب أن تصطدم فيه القوات المسلحة بقوة الشعب، ولو حدث هذا فلن يقبل الشعب الجزائري هذه النتيجة، وقد حدث من قبل أن خرج الشعب إلى الشوارع سنة 1988 واصطدم بالقوات المسلحة وجرت الدماء أنهارًا، وهذا قبل أن تظهر النتيجة الرسمية في ظل الديمقراطية لانتخابات حرة ديمقراطية .. لا يتوقع في مثل هذه الحالة إلا أن يغلي البلد غليانًا وأن ينفجر، فإن الضغط يولد الانفجار، ومثل هذا الانفجار لا يعلم عواقبه إلا الله، فالذين يريدون هذا لا يرعون مصالح الشعب الجزائري ولا يريدون به خيرًا، يريدون أن تقوم حرب أهلية بين الناس بعضهم وبعض، وبين الجيش الذي من المفترض فيه أن يكون حاميًا للشعب، يصبح هو مقاتل الشعب وهو الذي يُطلق النار على الشعب، على أهله وعلى إخوانه، وعلى بناته وأبنائه.

ولهذا فأنا أظن أن الجيش الجزائري – بما نعرفه عن أبنائه الذين جاهدوا وقاتلوا وبذلوا وضحُّوا – لا يقبل هذا، ولن يستمع إلى الإغراءات ولا التحريضات التي تأتي من كل مكان لهم أن يوقفوا الزحف الإسلامي والمد الإسلامي، ولو تدخل الجيش فلن تكون إلا كارثة.

قد يقبل الناس أو يستكينوا مدة من الزمن، ولكن هذا لا يستمر ولا يمكن أن يستمر، ولهذا ننصح القوات المسلحة في الجزائر أن يكونوا عند حُسن الظن بهم وألا يكونوا أعداء لشعوبهم، ولأمتهم ولوطنهم، ولا يستجيبوا لهذه الوساوس الشيطانية التي تأتيهم من هنا وهناك، وأن يكونوا أكثر عقلًا وحكمة وشجاعة من الاستجابة لهذه المكايد التي لا يراد من ورائها إلا الشر كل الشر للشعب الجزائري، ونعجب حقيقة لأناس في بلاد العرب يكيلون التهم لجبهة

الإنقاذ في حين يرحبون بجبهة القوى الاشتراكية التي يرأسها حسين آيت أحمد، ويتحدثون عن المسيرة التي سيَّرها ومعه دعاة العنصرية للمطالبة بمنع الإسلام أن يكون له رأي وتوجيه وحكم لسياسة البلد، هذه جبهة تعمل لحساب الغرب، ولحساب الثقافة الفرنسية والحضارة الغربية، والآن سيَّرت مظاهرة ضد الإسلام، والعام الماضي سيرت مظاهرة ضد التعريب، ضد اللغة العربية، تريد ألا تكون العربية هي اللغة السائدة، وأنا أعرف أن الكثيرين من البربر في الحقيقة هم مسلمون صادقون يعتبرون الإسلام أساس هويتهم وأن العربية لغة دينهم وثقافتهم وكثير منهم يتكلمون العربية كأحسن ما يتكلم بها العرب الخلَّص، ومنهم الخطباء والأدباء والشعراء، ويرفضون هذا الاتجاه.

فنعجب للذين يدعون العروبة ويؤيدون هؤلاء الذين يدعون إلى عنصرية تعادي العرب وتعادي الإسلام وتوالي فرنسا وتوالي الغرب وحده.

* تكثر هذه الأيام الاتهامات بالتشدد والرجعية والعودة إلى الوراء وغيرها مما يريد مروجوها وصم الإسلام وجبهة الإنقاذ الإسلامية بها؟

** هذه الاتهامات سمعناها من قبل، والواقع أن جبهة الإنقاذ جبهة عريضة ليست حزبًا معينًا أو جماعة تقوم على تربية الأفراد على منهج معين، هي قاعدة جماهيرية عريضة ضمت جماعات مختلفة وضمت أناسًا غير منتسبين إلى أي جماعة أو حزب، ففيها المتشدد وفيها المتساهل وفيها المتوسط وهذا شيء طبيعي، ولكن أنا أعتقد أنه بعد أن دخلت الجبهة المعترك السياسي وخالطت الآخرين وحاورتهم أصبح لديها كثير من المرونة في معالجة الأشياء، لهذا بعض التصريحات التي كانت تُسمع من بعض أفرادهم

قديمًا بدءوا يتجاوزونها وينأون عنها وبدءوا يراعون الوضع الإقليمي والوضع العام لبلدهم وأصبحوا يقولون: نعترف بالديمقراطية.

البعض يقولون: إنهم حينما يصلون إلى الحكم لن يسمحوا بالديمقراطية، سيلغون التعدد وسيكتمون الأنفاس، سيحجرون على الحريات .. وهذا تَقَوُّل عليهم دون وجه حق، والعقلاء من قادة الجبهة – ومنهم حشاني الذي يتكلم باسم الجبهة حاليًا – ينكر هذا ويقول: سنحترم الديمقراطية وسيظل الخيار الديمقراطي ساريًا .. وهذا ما نأمله منهم.

وآمل من الإخوة في جبهة الإنقاذ أن يبادروا ويعلنوا للناس أن الديمقراطية التي وصلوا بها إلى هذا الوضع يحترمونها ولا يحيدون عنها، وأن يعلنوا كل ما يطمئن الناس على حقوقهم وحرياتهم وأنهم لن يكونوا ضد القوى الأخرى التي لم تعطهم أصواتها .. حتى دعاة العنصرية هؤلاء.

ومما يسرني في هذا أن بعض القادة الفرنسيين قالوا: يمكننا أن نتعامل مع جبهة الإنقاذ الإسلامية كما نتعامل مع غيرها.

أريد أن أضيف إلى مناشدتي للجيش: مناشدتي للرئيس الشاذلي بن جديد الذي سمح بالتعددية والذي يُعتبر صمام أمان في هذه الفترة بحكمته ونفوذه أن يمنع نشوب حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس ولا يخسر فيها إلا الشعب الجزائري، نحن نأمل إن شاء الله أن يكون يوم الجزائر خيرًا من أمسه، وأن يكون غدها خيرًا من يومها، ونسأل الله أن يُعينهم إن شاء الله على غد أفضل.

* بماذا تنصحون الإخوة في جبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر؟

** نصيحتي للإخوة في جبهة الإنقاذ تتلخص في هذه الوصايا العشر:

1- أن يتفاهموا مع كل الفصائل الإسلامية وإن اختلفوا في بعض القضايا والتفصيلات، وليكن شعارهم: نتعاون فيما اتفقنا عليه ونتسامح فيما اختلفنا فيه.

2- أن يستمعوا لكل نُصح يوجه إليهم، ولا يضيقوا ذرعًا، فليس هناك أحد أكبر من أن يُنصح (بضم الياء) ولا أحد أصغر من أن يَنصح (بفتح الياء)، وقد كان عمر يقول: «رحم الله امرءًا أهدى إلي عيوب نفسي».

3- أن يستعينوا بكل الخبرات والكفاءات العربية والإسلامية في مجالات الفكر والتربية والسياسة والاقتصاد وغيرها، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

4- أن يفتحوا باب الحوار مع الأطراف المختلفة – وإن لم تكن إسلامية – اتباعًا لأدب القرآن في جدال المخالفين بالتي هي أحسن.

5- أن يراعوا سُنَّة التدرج، فإن الله خلق الدنيا في ستة أيام، وفرض الفرائض، وحرم المحرمات على مراحل، ليعلموا أو يُعلِّموا الآخرين أن ما هُدم في قرن وثلث لا يُبنى في سنة أو سنتين!

6- أن يتذكروا أن للضرورات أحكامها، وأن الضرورات تبيح المحظورات،وأن هناك أعذارًا وظروفًا مخففة للأفراد والجماعات، **{فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ}** [البقرة: 173].

7- أن يوجِّهوا أكبر همهم إلى إيجاد حلول لمشاكل الناس، حتى يشتغل العاطل، ويطعم الجائع، ويأمن الخائف، وتزدهر الحياة، وتعمر الأرض.

8- أن يهتموا بالتربية والتوجيه، وبناء العقول والضمائر والأخلاق، قبل الاهتمام بإصدار القوانين والقرارات والجزاءات، فالقوانين وحدها لا تصنع

المجتمعات.

9- أن يربُّوا الشعب – عن طريق الإعلام والدعوة والتعليم – على العمل لا الجدل، وعلى البناء لا الهدم، وعلى تقديم الجوهر على الشكل، والأصول على الفروع، والفرائض على النوافل، وغير ذلك مما يقتضيه فقه الأولويات، ولا يدعوا صوت الغوغاء يعلو على صوت الحكماء.

10- أن يُغلِّبوا التيسير على التعسير، والتبشير على التنفير، والرفق على العنف، وأن يقودوا الناس إلى الله بزمام الحب، ولا يسوقوهم بسياط الخوف، وأن يظهروا الإسلام في صورة كريمة سمحة، للموافق والمخالف، ليكون كما أراده الله: «رحمة للعالمين».

* * *